

سارق الكرز

www.ebibliomania.com



+201065534541
+201208868826



fb.com/Books.Bibliomania/

ببليومانيا
للنشر والتوزيع

fb.com/ibibliomania.eg/



Insta:books.bibliomania/

ببليومانيا - Books

fb.com/groups/Bibliomania.Books/



@BibliomaniaEg

سارق الكرز

رواية لـ

محمد و غلس



بيلومانيا
للنشر والتوزيع





ببلومانيا للنشر والتوزيع



نوع العمل: رواية

اسم العمل: سارق الكرز

اسم المؤلف: محمد دغلس

تدقيق لغوي: فريق ببلومانيا

اعداد ومراجعة: فريق ببلومانيا

تصميم الغلاف: عبد الرزاق طواهرية

رقم الإيداع: 2018/21232

الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-6607-56-2

الناشر / دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

المدير العام / جمال سليمان

تليفون / 26061014 (+20)

هاتف محمول / 1208868826 (+20) - 1065534541 (+20)

صفحة الدار على موقع فيسبوك:

<https://www.facebook.com/bibliomania.eg/>

الموقع الإلكتروني: www.ebibliomania.com

الطبعة الأولى 1439 هـ - 2018 م

تنويه: ما ورد في هذا الكتاب يعبر فقط عن وجهة نظر كاتبه



باعتبارنا كائنات بشرية، عندما نقول " أنا " فإننا نعني ذاكرتنا. الذاكرة هي الروح. إذا فقد شخص ما ذاكرته فإنه يصبح كالنبتة ولا يعود يمتلك روحا بعد الآن. حتى بالنسبة للمؤمنين، الجحيم ليس له معنى بدون ذاكرة. العقاب يكمن في استمرار تذكر الخطيئة المقترفة. لذا، فنحن عبارة عن ذاكرتنا. عندما يتقدم بنا الوقت فإن الذكريات القديمة تعود، أتذكر الآن أشياء من طفولتي لم أستدعها من قبل. الذاكرة اختيار، نحن نلغي أو ننسى الأمور التي لا نحب، ونبقى على ذكرى الأمور التي نحبها ولكن بطريقة مشوهة.

(أمبيرتو إيكو)

-لا يوجد في الدائرة خط عمودي ولا خط أفقي ولا نهاية ولا بداية. يمكننا اللولج إلى الدائرة من أي مكان فيها ما دمنا لا نقع بعشق إيجاد البداية، ولكنكم لا تطلقون اسم البداية على المكان الذي تبدوون منه. لا ميلاد ولا عتبة ولا آخر موقف ثمة سابق مهما كانت نقطة الإنطلاق.

(إليف شافاق)

- الحب والموت شيئان مسرحيان.

(مالك حداد)

- تمتدّ البلاد بيني وبينني
وما بين بيني يمتد بين البلاد
صوتي للريح مشرّع
وصداي هائم بينك وبينني
تبتعد خطوط قلبي عني ضفتين
الضفة الأولى وطني
والضفة الأخرى وطني
وما بين بيني
وما بين الضفتين
وبيني
ياسمين
معمر منذ ألف عام
وصدى هائم بينك وبينني.

(مكادي نحاس)

إهداء مخرج بالألم

إلى الذين ينتمون إلى الألم في أي مكان
 وإلى الذين أقسموا أنّ ألم الآخرين هو جزء من آلامهم.
 وهم يوشوشون أنفسهم أنّ ذاك الذي يتألم في زاوية ما من هذا العالم هو أنا ولكن
 بجسد آخر.
 وإلى الذين ولدوا بلا أسماء لحظة ولدوا بلا وطن
 فاستعاروا أسماء العصافير والأشجار
 وظلوا ينزفون وطنا حتى بعد موتهم
 وهم يسировن على طريق الآلام
 ستقومون يوما من بين الأموات
 وتصبحون على وطن.

تركت أرضي بحثاً عن مصيري
 أخذت في الروح العائلة والأصدقاء
 عبرت آلاف الحدود
 مشيت في الكثير من الشوارع
 ولكن دائماً تركت القلب منقسماً
 إلى أرضي سأعود
 إلى أرضي سأعود إلى الأبد
 بالقرب من شعبي سوف أعود
 عانيت من الحنين والشعور بالوحدة في فصل الشتاء
 ولكن الذي يعاني أكثر من غيره هو الذي يجب أن يتخلى عن الأحلام
 تعلمت أن أحب الناس من العديد من البلدان
 ولكن أنا لا أحب أي شيء مثل العودة إلى بيتي
 أشكر الحياة التي جلبتني إلى العالم
 أشكر الحظ الذي خلقني مسافراً
 تركت أرضي بحثاً عن مصيري
 عندما أعود إلى الأبد
 سوف يكون حلبي قد اكتمل.

أغنية)) a mi tierra volvere))

سقطت تفاحة من السماء
واحدة للذي يحكي
وواحدة للذي يستمع
وواحدة للذي يفهم !

(مجهول)

" ما هو الأصدق من الصدق؟ الحكاية نفسها. "

يُحكى أنّ حطّاباً كان يعيش مع زوجته وابنه الوحيد في كوخ صغير. مرض ابنه الوحيد وقد يئس الأطباء من شفائه، وكان في القرية امرأة عجوز قالت له بأنّ في أعلى الجبل بيت مسحور تحرسه فتاة جميلة، وفي حديقة البيت يوجد شجرة كرز كبيرة ستسقي ثمرة منها ابنه، والفتاة لا تدع أحداً يقترب منها قبل أن ينفذ الناس ما تطلبه، ونصحته العجوز بأن لا يغترّ بمنظر الفتاة الساحر والوديع.

صعد الحطّاب إلى الجبل ووقف عند الباب وقالت له العجوز الكلمات السرية التي عليه أن يقولها كي تطلّ عليه الفتاة.

ردّد الجملتين :

ينسى الإنسان كل شيء إلا من يحبه..

الموت يأكل جسد الإنسان لكن لا يأكل ذاكرته.

انتظر قليلاً ثم فتحت البوابة السوداء الكبيرة، وظهرت فتاة فائقة الجمال بثوبها الأبيض النقي.

قالت له :

-صباح الخير

سحره صوتهما

-ابني مريض وقالوا لي أنّ شجرة الكرز التي في بيتك ستشفيه.

-ولكن عندي طلب

- ما هو؟

- عليك أن تقطع لي الحطب من الشجرة الكبيرة في أعلى الجبل.
ظلّ الحطاب أياماً وهو يقطع الحطب ثم أتى به إليها.
قالت له :

- ظننت أنك لن تعود.

- وكيف لا أعود وعندك ما يشفي طفلي؟!

- أي أنك لم تعد لأجلي لأني جميلة؟!

ظلّ صامتا :

فكرت الفتاة بحيلة كي تنتقم منه بعد أن ابتسمت بوجهه.

-إني أمرح معك خذ وكل حبة الكرز هذه.

حين أكلها قالت له وهي تضحك :

-هذه ليست كحبة الكرز التي على الشجرة، هذه الكرزة ستصيبك بالنسيان ستنسى

عائلتك وطفلك وطريق بيتك، وهذا عقابك لأنك لم تأت لأجلي.

مع الوقت نسي الحطاب كل شيء إلا الذين أحبه من قلبه زوجته وطفله.

حين كانت نائمة، قطف من شجرة الكرز الحقيقية، وتساق الحائط، وقد وجد العجوز

بانتظاره التي دلته على ابنه الذي أطعمه من حبات الكرز وشفي.

آني / ١٩١٥

الفصل الأول

(١)

مارسيليّا / ٢٠١٤

عزيزي وأخي الحبيب صحو...

إلى متى سأظل أقيك من الموت بورقة ؟!!!!!!

تقول الأسطورة العجرية بأنّ الله بعد أن أنهى توزيع الأراضي على الشعوب جاء
العجر قائلين : كأنك نسينا فلم تعطنا شيئاً !

فقال لهم : لكم الفرح . ومن وقتها صارت الأوطان مؤلمة .

كنت أظن وأنا صغيرة إذا كانت الأسطورة صحيحة فقد أعطى الله للعجر الفرح بدلا
عن وطن فإذا أعطانا نحن الذين أصبحنا في كل مكان وبلا مكان . كان بديلنا هو
الأم وكما تقول جدتي (آني) حين تكون غريبا عليك أن تظهر أملك دوما كهويتك
الشخصية فبدون ألم لا نسوى شيئاً ومن يومها وأنا أحيّا مع الألم .

أكتب لك الآن من شرفة بيتي بعد أن أنجزت كتابي وبعد أن قطعت أشواطاً من
الألم والحنين . هل حدث لك مرة أن تأملت فرحاً ؟!!

طيلة المدة التي قضيتها في المصح النفسي كنت اتسائل كيف سأخرج مما أنا فيه إذا
كان ليس بمقدور الطبيب أن يحو ألمي ؟!!!

قررت يومها أن أكتب فطلبت من ليفون أن يحضر لي أوراقاً بيضاء وأقلام .

قررت أن أصبح عجربة مع آني بالهوية لست عجربة لكنني في الحقيقة أنا كذلك فقد
ولدت في فرنسا وأنتمي لبلدين لا أعرف واحداً منهما إلى أرمينيا وإلى فلسطين .

قررت أن أنتمي إلى العجبر أي إلى الفرح بما أني أنتمي إلى مكانين لا أعرفهما.
 سدهش إن قلت لك أن الاكتئاب علني معنى الفرح ومعنى الحياة.
 تقول الكاتبة التركية (إليف شفق) : الاكتئاب تجربة ملفتة لإعادة بناء أنفسنا،
 ويمكن أن يعتبر كل اكتئاب فرصة تقدمها لنا الحياة لتوقف، لنفكر، لتأمل دواخلنا
 وربما لنعيد إنشاء أنفسنا بشكل يكون أفضل من السابق هذه عملية مؤلمة جدا لكنها
 يمكن أن تكون مفيدة جداً على المدى البعيد.

وها أنا أحصد ثمار هذه التجربة. إني متشوقة لرؤيتك بعد أن افترقنا سنتين.
 إن بطني قد كبر وأصبحت كالبطة ومسللاً يومياً مضحكا لباتيل.
 أعلم أني لم أشعر من قبل بفرحة أن بأحشائي طفل كما أشعر الآن، فحين كنت حبيلى
 بباتيل كنت كارهة ذلك الحمل فقد كنت أنوي الطلاق من ليفون فلم أشعر بتلك
 التجربة كما يجب. أو لأنني لم أكن مستعدة لاستقبال طفل أنا المهووسة بالكتب.
 البارحة ذهبنا أنا وليفون إلى العيادة ورأيناه.. أتدري ماذا يعني أن يتنفس أحد منك
 وأن يفرح حين تفرح وأن يحزن حين تحزن. لن نستطيع أن تفهم ذلك الشعور لأنه
 ليس بمقدورك أن تجربته فتلك موهبة أعطاها الرب لحواء وليس لآدم كي تلد بالآلام.
 ذهبت البارحة مع باتيل إلى السوق واشترينا بعض الملابس ل (روح) اخترت له
 هذا الاسم كي لا ينتمي إلى طرف ما بل كي يختلط في هذا الكون بلا عقائد أو
 أفكار مسبقة اخترته بعد أن صرت أقرأ عن التصوف وأنا في تجربة العلاج وتعلقت
 بتلك الفكرة كثيرا ففي الصوفية الكون كله كالدائرة والجميع في هذه الدائرة متساوون

ويتقبلون بعضهم ولأنّ لا نهاية لهذه الدائرة نعود دائماً لنقطة الصفر فلا بداية ولا نهاية والله هو الوجود فقط والمركز، والبشر جميعهم يطوفون حوله. أريده أن يكون روحا تطوف في كل مكان ويتقبل كل شيء.

أعرف أنك ستسخر مني حين تقرأ هذه السطور لأن الله لم يكن مهما بالنسبة لي وليس بيننا حتى ذلك التواصل البسيط كصباح الخير مثلا ولم أسأله يوما كيف حاله، ولكنه كان في أدق لحظات حياتي كان عميقا إلى درجة لم ألاحظ وجوده وهكذا الذين يحبوننا بعمق ليسوا مرئيين بالنسبة لنا لكثرة ما اعتدنا على وجودهم.

نحن بالنهاية لسنا سوى ذرات حب صغيرة لا ترى إلا بعين الله المجردة.

كم أحببتني يا الله وكم كرهت نفسي لأني لم أحبك بما يكفي.

اشترت اليوم الكرز التي كانت تمنعني جدتي من أكله لأنه يصيبنا بنسيان الآلام حسب القصة التي كانت ترويها لنا.

كان طعمه مرّ كالفرح الذي يأتي متأخرا وكالحب الذي يأتي بغير مواعده.

أنتظر نهاية الأسبوع كي تأتي، أشتاق إليك أكثر من الأيام.

(٢)

باريس / ٢٠١٤

أحضرت الممرضة الفطور، فتح لها صحو الباب وهو يحدث سما

-هيا يا حلوتي أما زلتِ نائمة ؟

-أين صديقتي سونيا ؟

سأل عمار

-من سونيا ؟

قال صحو: :

-صديقتها في هذا البيت.

-منذ أول شهر ؟

-هكذا هي سما. هل تستطيع أن تبقى معها وتطعمها أريد أن أقابل المدير.

-حسناً.

قالت سما :

-إنّ صحو لم يأتِ اليوم ربما لم يعد يحبني علينا أن نحضّر لامتحان Delf

التفت صحو بحزن :

-سيأتي لن يتأخر.

ذهب صحو إلى مكتب المديره فالتقى بها في الممر.

-صباح الخير.

-صباح النور سيد آواديس هل كل شيء على ما يرام ؟

-لم تعتد بعد على المكان.

-إنه أمر طبيعي فرضى الزهايمر يخافون من الغرباء والأماكن الجديدة.

-لديها الآن أصدقاء وخصوصا سونيا.

-إنَّ سما عاطفية جدا وذاكرتها العاطفية قوية جدا.

-لم أفهم.

-إنها تتأثر بالحب والحنان ولا تنسى الذين يحبونها يحدث أن تنساهم لكنها تستطيع

أن تستعيدهم عبر ذاكرة قلبها.آه مستر جيمس كيف حالك ؟

-بخير سأذهب إلى العيادة وسكرتيري الجميلة لم تأت بعد.

قالت المديرية :

-جيمس قد تجاوز الستين كان طبيبا للعيون قبل أن يصاب بالزهايمر قبل ست سنوات

إنه يفيدك إذا أردت أن تفحص عينيك..

-هل ما زال يصدق أنه طبيب ؟

- في هذا الجناح جناح (وحدات دعم الذاكرة) علينا نحن أن نصدق أيضا

كي نحافظ على ذاكرته.يظن أنه في ندوة لأطباء العيون.

قال جيمس وهو يذرع المرر ذهابا وإيابا

-أنا قلق

سأله صحو

-ما الذي يقلقك ؟

-لا أستطيع الخروج من هذا المكان.. اخرجوا من هنا لا أريدكم

-هل يعجبك هذا المكان ؟

-نعم نعم بالطبع فهنا عيادتي أي مكان عملي.

سأل صحو المسؤولة :

-لماذا لا يخرج ؟

-لأنه لا يعرف طريق العودة.

-ولكنه يمكنه استخدام المصعد.

-تحتاج إلى رمز للوصول إلى الطابق... الذاكرة القصيرة المدى هي المشكلة هنا.

زار صحو مع المديرية غرفة أخرى، طرقت المديرية الباب

-آه ماري كيف حالك ؟

قالت ماري التي بلغت الخامسة والسبعين :

-بخير لكنني رأيت لصا أسمر البشرة يتسلق النافذة

قالت المديرية

-حقا سنمنسك به لا تقلقي

سألها صحو :

-هل هذا حدث حقا ؟

-لا إنها مجرد هلوسات ليس أكثر.

جاءت ابنة ماري وقد أحضرت لأمها خزانة جديدة

سألتها:

-أعجبتيك الخزانة ماما ؟

-الخزانة نعم نعم

قالت ابنتها

-لم أخبر أمي أنني سأجيء بها إلى هنا تظن أنها فترة قصيرة ثم سنعود

سألها صحو :

-كيف علمت بمرضها؟

-حين كانت تسوق السيارة وتوقفت في منتصف الشارع ونسيت طريق العودة.

قالت المديرة

-لا تتحدثوا عنها وكأنها ليست موجودة بل أشركاها في الحديث

قال صحو:

-سعدت بلقائك.

-وأنا أيضا

دخل صحو مع المديرة إلى غرفة أخرى

-إنها غرفة سونيا وزوجها بيتر

-آه أعرفها إنها صديقة سما

-حقا ؟

فتحت سونيا الباب كانت ترتدي حذاء رياضيا وتضع ملقط شعر على شعرها المغطى
بالبياض

مدت سونيا يدها لصحو بعد أن جاء زوجها بيتر

-آه كم أنت جميل !

ابتسم صحو

-وأنت جميلة أيضا

-حقا لم أكن أعرف مسبقا ذلك، إنك شاب ذكي

ضحكوا جميعهم

سألها صحو :

-هل تنسين كثيرا ؟

-أنا أنا لا لا لا، إن ذاكرتي قوية

قال بيتر :

-لا إنك تنسين أخبرينا إذن عن اسمك

أصبحت سونيا ذات التسع والثمانين عاما تتمايل

قال بيتر :

-إننا لسنا في حصة للرقص ما هو اسمك ؟

- في هذا الوقت مم اسمي سونيا جونزاليس

سأله صحو :

-هذا صحيح؟

-لا سونيا سميت.

-هل تعتني بها منذ زمن ؟

-بالطبع كانت سونيا ممرضة انظر إلى صورنا المعلقة على الحائط هذا ابنا الذي توفي

قبل سنة بحادث سيارة كانت سونيا تحب الناس كثيرا وتحب السهر والضحك وتحبني،

لكنها يحدث أن تنساني لهذا أعلق هذه الباجة على صدري... لمن سأتركها؟ فلو كنت

أنا مكانها لاعتنت بي أيضا.

-متى تشعر أنها تعي ما تقوم به ؟

-تكون واعية عندما تعانقني أو تقبلي.

اقتربت سونيا من بيتر وقبلته على فمه

-آه تريدن استخدام النونية ؟

هزت رأسها

بعد أن عادت قالت بصوت عال :

-إنّ بيتر لا يستطيع أن يغلق سحاب بنطالي أو ينسى أن يفعل ذلك.

قال صحو:،:

-إنّ سما تسأل دوما عنك.

-من سما؟ سما أهي ممثلة أم ماذا؟

-إنها صديقتك الجديدة.

قالت المديرية :

- هيا، عليّ أن أذهب الآن لأقوم بجولة الصباح لاختبارات الذاكرة.

دخلت المديرية غرفة سما

-صباح الخير سما

-صباح الخير أين ذهبت يا صحو؟

-ها أنا بجانبك

أخرجت المديرية قلما وورقة

-أتحبين الإملاء؟

-بالطبع كما أنا وصحو نقوم به دوما بالفرنسية ونحصل على أعلى الدرجات.

أصبحت المديرية تملي عليها جملا بالفرنسية.

نظرت المديرية إلى الورقة

-جميعها صحيحة يبدو أنك تعشقين الفرنسية

-بالطبع

-حسنا أرسني لي هنا بيتا.

أخذت سما وقتا كبيرا فوضعت المديرية أمامها مكعبات ورتبتها بشكل صحيح.

-هذه مكعبات أخرى هل تستطيعين أن ترتبها كشكل المكعبات الأول؟

أخفقت سما مرة أخرى.

نظرت المديرية في أرجاء الغرفة

-آه لمن هذا الجيتار؟

تحمست سما

-إنه لي.

-أستطيعين العزف؟

-بالطبع.

مسكت سما الجيتار وبدأت بالعزف والغناء.

On cherche avec toi marie

Les pas de dieu vierge marie

نبحث معك يا عذراء

عن خطوات الرب.

قالت المديرية :

-كم هو صوتك جميل أتحبين مريم العذراء؟

-بالطبع أحب أم النور انظري هذه قلادة فيها صورة مريم العذراء أهدتني إياها

صديقتي جوليت.

ابتسمت المديرية. سألت صحو المديرية :

-كيف وجدتتها؟

كان صحو وعمار يلتفتان إليها

-يجب أن تمارس سما دوما الأشياء التي تحبها بأن تكتب قصصا باللغة الفرنسية وأن تعترف دوما على الجيتار فهذا يشعرها بالسعادة فقد قلت لك أن ذاكرتها العاطفية قوية أي أنها تميل إلى تذكر الأشياء التي تحب القيام بها ولها معها ارتباط عاطفي وليس عقلي.

حين خرجت المديرية وذهب عمار إلى الجامعة جلس صحو على الشرفة متأملا ضباب باريس..فتح جهازه المحمول وقرأ رسالة تسوغيك. وحدها رسائل تسوغيك من كانت تعطيه الأمل والحياة. جاءت راشيل.

قال صحو: :

-إنّ تسوغيك حامل

-حقا؟!!

-وقد انجرت كلابها.

-إنّ تسوغيك قوية كأخيها.

-أهذه مزحة؟

-لا بل حقيقة.

-قد اشتقت إليها كثيرا.

-اتصل بها لتأتي.

-ولكن....

-قد مضى على ذلك مدة طويلة وقد شفيت.

-نحن لا نشفى من آلامنا.

-لكنها ضمدتها بكتاب.

-لا يكفي ذلك.

-كيف حال سما ؟

-كانت المديرية هنا قبل قليل وقالت أنها يجب أن تعزف على الجيتار.

-أنا من سأساعدوها دوما لا تقلق.

-قمت اليوم بجولة مع المديرية على المرضى أردت أن أسمع منهم وأستفيد من خبراتهم ولكن لا يمكننا أن نعلم ألمنا للآخرين. لكل واحد منا ألمه الذي يعيشه مع النسيان بطريقة مختلفة قالت لي المسؤولة عن اسم آخر للزهايمر ألا وهو(سارق الذكريات) ذلك اللص الذي يسرق الذكريات ولا يمسك به أحد.

الفصل الثاني

(٣)

الأردن - اربد ٢٠١١

عزيزي وأخي الحبيب (صحو) أو كما أسمتك جدتي (آوديس) الذي يعني بالأرمنية
الخبر السار ..

إن أقصر مسافة بين الناس هي القصة على حدّ قول جدتي (آني).
لهذا أكتب إليك منذ سنين... كل نهاية شهر تلهث أصابعك إلى صندوق البريد كما
ألهث أنا إلى الطاولة بعد نهار طويل...

لماذا أحاول دوماً على أن أبقى على هذا الخيط اللامرئي الذي بيننا أو ما يسمى بالخيط
الورقي أو الخيط الإلكتروني.

لا أدري حقاً لماذا جئت إلى هنا هل هرباً من عيني (ليفون) البريئين والذي كان
ذنبه الوحيد أنه أرميني أو لأن جدتي (آني) من أجبرتني على الزواج منه ؟
خططت للطلاق من أول يوم تزوجته فيه حين كان الخوري يبارك زواجنا وأنا أنفث
اللعنات.

هل تذكر حين كنت طفلة صغيرة صامتة نحولة أغريتني بكتابة الرسائل إليك كل
خميس وأن أضعها في ملف تحت باب غرفتك كي تذيب نخلي بورقة وكي أتمرّن على
الكتابة بالعربية وصرت أدمنها وها أنا الآن قد اعتدت على تلك العادة الورقية بعد أن
استبدلتها بشاشة غبية ولكن بقيت وفيّة بورقة فأكتب الرسالة أولاً على ورقة ثم أكتبها

مجددا على الحاسوب فأكد سها إلى أن تأتي لأني أعرف أنك تحتفظ برسائلي إليك منذ كنت في العاشرة ولم ترني إياها حين طلبت منك ذلك قبل أن أسافر إلى الأردن قلت لي ونحن في المطار قبل أن يفرقنا ذلك الصوت القادم من مكبرات الصوت ذلك الصوت الحازم كالموت لا رجعة فيه الذي يؤدي مهنته على أكل فراق بأنّ على الركاب الراحلون أن يلمّوا ذكرياتهم ويحزموا أحلامهم فطائرة الحنين ستقلع.

قبلت جبهتي كما اعتادت أن تفعل ذلك منذ كنت صغيرة ولم تكن تلك القبلة من عاداتنا الفرنسية وفسرت لي أنّ تلك القبلة العربية للذين نحبهم بعمق ولا نستطيع أن نعبر لهم عما نحسّ به اتجاههم فنستعيز عن ارتباكنا بقبلة على الجبين تلك المنطقة الحساسة المثقلة بشحنات حب لا مرئية لا ترى إلا بعين قلوبنا المجردة.

سألتك كطفلة وأصابعي تلعب بشعرك الخمسيني :

-متى ستعطيني الرسائل ؟

كانت عيناك البريئتين الصغيرتين تحدقان بي

-إن أعطيتك إياها فستتوقفين عن الكتابة إلي ولا أريد أن تفعل ذلك إلا حين أموت. وضحكت كي تحو أثر كلمة (موت) وما نفع ذلك بعد أن زلت بها في لحظة الفراق تلك. ولهذا بقيت أنثبث بكتابة الرسائل إليك كي أقيك بها من الموت فما دمت أكتب إليك فستظل أنت على قيد الحياة.

أعرف أنك ستضحك من تلك الفكرة فلطالما كنت تسخر من الثوابت كي تقلل من حدتها ووقعها علينا نحن البشر فتدخل تلك الثوابت كالموت في قائمة الأشياء التي يمكن

حدوثها في أي وقت كأن يباغتنا صدام ما، نكساره فريقيا الذي نجهه.
البارحة ذهبت إلى جامعة اليرموك وقدمت طلب توظيف للعمل كمدرسة للغة
الفرنسية وتعلم أني جئت إلى هنا هربا من زوجي (ليفون)، أتعلم حين طلبت منه
الطلاق لم أستطع النظر في عينيه لطالما أغرتني عيناه، (ليفون) الرجل المستقيم الذي
يحفظ الانجيل آية بآية ولا يفوته قداس، ويعلم في مدارس الأحد باحثا عن أطفال
أرمن يتلو عليهم الإنجيل بالأرمنية ويعلمهم إياها وأظن أنه لم يكن هدفه أن يعلمهم
الصلاة بقدر ما يعلمهم الأرمنية ولطالما تفاخر أُمامي بأن الأرمن هم أول من اعتنق
المسيحية لذلك عليه أن ينشرها في كل مكان.

ها أنا أجلس في المطبخ مكاني الحميمي المفضل، لا أدري لماذا كلانا نحب الجلوس
فيه، أتذكر حين كانت أُمي تتخذ إلى النوم، كما نهض من فراشنا ونأخذ أغطينا
ونذهب إلى المطبخ كي نقرأ ولنستمع لصوت الثلاجة التي كانت موسيقاها تريحنا
وتكسر الصمت في ليالي الشتاء.

كما نجلس على الأرض وتغطي بذات الغطاء وأضع رأسي على كتفك ونبدأ بالقراءة
كنت مولعة بكتاب little women (نساء صغيرات).

قد أغريتني بقراءة الكتاب حين قلت لي أني أشبه جوزيفين التي تتصرف كالصبية
وتحب الكتابة كان ذلك في عيد الميلاد اصطحبتني معك إلى مكان تصوير فيلمك الجديد
فقد رجوتك مرارا أن تأخذني معك كي أرى الممثلين ولكنك كنت ترفض دوما
لأنك لا تعود إلا في الثالثة فجرا واليوم ستضع لمساتك الأخيرة على الفيلم.

لن أنسى ذلك اليوم حين تعلقت بكتفك وأنا أحاول أن أصل إلى قامتك وأنا أتحسس تجاعيد عمرك الثلاثيني أنا التي لم أكن أتجاوز العشر سنوات..... خرجنا في الحادية عشر ليلاً.. كنت يومها بابا نويل الذي يحقق لي أمنياتي.

وكانت المفاجأة حين التقيت بالممثلة الأرمنية (فارتي)..... طالما رأيته في عيون جدتي حين كانت تتسمر أمام التلفاز حين يبث لها فيلم ما... ها هي الآن قد تجاوزت الخمسين... لم ترهق وجهها بمساحيق التجميل ولم تغير لون شعرها الأبيض كي تخفي عمرها، أحببت أن ترى يد الله وهي تغير ملامحها هكذا كانت تقول عنها جدتي آني. حيثها بالأرمنية وأنا أرى ملامحها تغمرها السعادة كردة فعل كل أرمني حين يسمع كلمة أرمنية فيحس أنه عاد إلى جذوره، فالذي يقتلع من جذوره يتشبث بالكلمات فهي ملجأه الوحيد فيني منها وطنه.

أجلستني في حضنها متابهية بي أمام الممثلين فقد وجدت أحدا يقاسمها وطنها ولا يعلك الفرنسية.

سألتني بحنو :

-ما اسمك ؟

أحببتها وانا أوشوش نفسي خوف أن يسمعي أحد ففي أول يوم لي في المدرسة دخلت معلمة اللغة الفرنسية ويدها قائمة بأسماء الطلاب وحين سألتني عن اسمي تحمست بكأني الطلاب الذي يقولون اسمهم بكل براءة وثقة.

-تسوغيك ديرهاروتيونيان مدام.

فأعدت عليّ السؤال مراراً كي تستطيع لفظ اسمي وكتابه بشكل صحيح فأعدته لها مرارا أمام ضحكات الطلاب وهم يوشوشون بعضهم واتخذوا من اسمي واسم عائلتي لعبة) تسو، سي، ايكغك... راهو.. داهو.....).

لم تكن تعلم المعلمة أنها كلما كانت تسألني عن اسمي كي تكتبه جيدا كنت أغرق في نحلي ويزداد نفوري من الذهاب إلى المدرسة فلم أعد أرفع اصبعي كي لا تختارني وتزل باسمي وبالنهاية صارت تتحاشاه وتخطبني بدون أن تذكر اسمي. فأدركت أنت ما أفكر به فقالت لي بعد أن مررت أصابعك على شعري -هيا.....-

فهيأت كأني سأجتاز امتحان ما
-تسوغيك ديرهاروتيونيان.

وحين سمعته فارقي غمر وجهها الفرح وكي تعطيني الثقة أشارت لي كي أقرب منها
وحين أجلسني في حضنها ووجهت سؤالها الى الممثلين.
-هل تعرفون ما معنى اسم تسوغيك ؟

ولم تنتظر اجابة من أحد وأجابت سريعا بزهو :
-تسوغيك بالأرمنية معناه الندى، وتسوغيك التي أمامي كالندي.
احمررت نجلا لأول مرة أقابل أحدا يعجب باسمي ولا يزلّ به من غير عائلتي... لأول مرة أنظر بعيون الآخرين ولا أدخل في متاهة الأخطاء اللفظية.
وقبل أن تغادر، دعيتني فارقي إلى حضور الفيلم وقالت :

-بما أنك تحملين اسما أرمنيًا عليك أن تحلي ذاكرة شعب بأكله.

كانت وصاياها تشبه وصايا جدي آني التي كانت تحملني دوما عبء اسمي.

ونحن نسير في الطرقات المليئة بالزينة قلت لك :

-جدي ستفرح بلقائي بفارتي.

-قد حضرت لها مفاجأة في عيد الميلاد.

دخلنا إلى المكتبة لطالما كانت المكتبة ملجأً الوحيد حين لم أستطع أن أكون

صداقات في الصف لشكلي الغريب واسمي الغريب وانطوائي الفطري على نفسي ومما

زاد كره الطلاب لي حين كنت أحصل على الدرجات الكاملة ولم أكن أعرف أنّ

تفوقي من الأسباب التي ستزيد من كرههم لي.

لم اخبر أحدا بما يحدث معي في المدرسة وأني كنت منبوذة وأظن أنك وحدك من

شعرت بذلك حين رأيتني أسلّ عصرا إلى غرفتي وأحتضن الكتاب بين ذراعي ولا

أخرج من غرفتي إلا عندما تناديني جدي لتعلم الأرمنية.

ولك أن تتخيل طفلة لم تتجاوز العاشرة عليها أن تتعلم أربع لغات في وقت واحد ثلاث

لغات في المدرسة الأرمنية والفرنسية والإنجليزية ثم أعود للبيت لأخذ من جدي درسا

آخر في الأرمنية ومنك في العربية.

واخترت لي أنت هدية عيد الميلاد كتاب les quatre fille du docteur

march (الفتيات الأربع للدكتور مارش) وحين خرجنا من المكتبة طوقتني

بذراعيك.

-العنوان الأصلي للكتاب بالانجليزية (نساء صغيرات) وأنت واحدة من الفتيات الأربع اللاتي تعلمن أن يتصرفن بنضج بغياب أبيهن.

أضع الكتاب أمامي بعد كل هذه السنوات وأتذكر أصابعي الصغيرة وهي تعلق على جمل في الكتاب أقرأ الآن مشاعري التي كتبتها بيدي حيال كل شخصية في الكتاب وكانت الأخوات الأربع صديقاتي التي لم أستطع أن ألتقي بهن في الصف.

لهذا لم تكن هديتك مجرد هدية عادية في عيد الميلاد... كانت الأخوات الأربع يقضين معي جميع أوقاتي يأكلن ويشربن وينمن معي خلقت لي عالما سحريا حين أنعمت علي بهذا الكتاب.

وها هو عيد الميلاد على الأبواب ولم نعد معا وهديتك على طاولة المطبخ والساعة قد تجاوزت الواحدة ليلا قبل قليل قد انتهت من ترتيب البيت...

لا أدري إن أحببت أمي المكان فلم تأت إلى الأردن مرة واحدة. أظن أنني اخترت متعمدة السفر قبل عيد الميلاد كي تفطم أمي من حنينها فالأعياد نشعرنا بالحكمة وتعيدنا إلى جذورنا ونستعيد بها صداقاتنا القديمة لذلك قررت السفر كي لا نشعل جذوة الحنين وأظن أنها كانت مجبورة على المجيء معي بعد أن صدمها قراري بالطلاق فلطالما قد حملتها خطأي بالزواج حين تواطئت مع جدتي كي أتزوج من أرميني كي تحافظ على جذورنا الأرمينية وأشعرتاني أنني إذا لم أتزوج بأرميني سينقطع النسل الأرميني.

أعرف أن قراري بالمجيء إلى الأردن كان صادما لك وقرار طلاقي أيضا فقد تمردت

دفعه واحدة على جدتي وأمي وزوجي فلم أعد ابنة التاسعة عشر التي أرغموها على ارتداء الفستان الأبيض والذهاب إلى الكنيسة ليبارك القسيس (زهراب) زواجي ولم تدع جدتي الفرصة لتشرح لي أن اسم زهراب اسم مقدس لأنه يعود إلى يوحنا زهراب الراهب الأرمني الذي ترجم الكتاب المقدس إلى اللغة الأرمنية الحديثة. ولم أكن أبالي حقاً في ذلك اليوم بحكايا جدتي التي كانت سعيدة بزواجي وقد ارتدت ثوبها الأرمني ولا بوصايا القسيس وهو يبارك زواجي ولا ب (بليفون) الخجول الذي كان يكبرني بسبع سنوات.

كنت أريد فقط الهرب من جدتي التي كانت تختنق حياتي بحكايا الأرمن وتعلم اللغة الأرمنية وأظن أنني تحررت منها بعد فوات الأوان فقد استنفدت جدتي طفولتي وزرعت بها ما تشاء.

وحين كان القسيس يبارك زواجنا كنت أفكر في تلك اللحظة بالطلاق. وكى لا أثير شكوك جدتي أنجبت طفلة عن غير قصد وكان شرطي قبل إنجابها أن لا تسمى اسماً أرمنياً يتعثر الطلاب بلفظه في المدرسة ويصبح نكتة يتناقلها الطلاب من فصل إلى آخر كما كانوا يفعلون معي وكى لا تتوقف المعلمة طويلاً عند اسمها تجرب لفظه أمام سخرية الطلاب ، فأسميتها (ثلج) مع أنه ليس اسماً عربياً شائعاً فقد اخترته كي تبقى ابنتي نقية كالثلج ولم تقبل جدتي (آني) الهزيمة فاخترت لها اسماً أرمنياً يحمل معنى الثلج بالأرمنية.

-انتقت جدتي اسم (باتيل) أي قطرات الثلج ورضخت لها لأن جميع حروفه موجودة بالفرنسية وكنت أعرف أنّ جدتي لم تنتقي اسم (باتيل) كي يسهل لفظه على الفرنسيين فلم تكن تبالي بذلك المهم أن يحمل جميع أفراد عائلتها أسماء أرمينية وحمدت الله أن ألهمها القدر بهذا الاسم كي لا أحمل ابنتي قدرا ثقيلا طيلة حياتها.
اشتقت إليك

سأكتب إليك دوما. (تسوغيك).

المطر لا يتوقف في الخارج....

تضع تسوغيك غطاء من الصوف على جسدها المنكش على الكرسي... تصغي إلى صوت الريح الذي يلعب بهذه العمارة الصغيرة الفارغة التي لا يسكنها إلا هي وأما وابنتها والمكونة من طابقين قد سكنوا في الطابق الأرضي والشقتين في الطابق الثاني منذورتين للأشباح.

(آواديس أو صحو) من أعطاهما رقم (أبو صالح) بعد أن اتصل به وأخبره أنه سيسافر إلى أبنائه في أمريكا بعد أن أصبح وحيدا حين ماتت زوجته.

تقف (باتيل) أمام عتبة المطبخ بقميصها الصوفي الذي خاطته لها جدتها (آني).. كانت ملاح باتيل خليطا من ملاح العرب والأرمن والفرنسيين... شعرها أشقر كثيف وغرتها تصل إلى عينيها الواسعتين كغزالة شاردة في صحراء عربية ووجهها

طويل وجبهتها عريضة كالأرمن ولكن ملامحها الفرنسية قد طغت على كل الملامح
فقد كانت أمام (تسوغيك) كدمية فرنسية خلف واجهات محلات عيد الميلاد
ترتجف من البرد.

وضعت تسوغيك القلم حين رأتها وهي تبعد شعرها الأشقر عن وجهها

-maman, j'ai soif

(ماما أشعر بالعطش).

تنهض تسوغيك عن الكرسي وتحضر لها كأسا من الماء وتهرع باتيل ذات الثلاث
سنوات إلى الكرسي الذي كانت تجلس عليه تسوغيك وتغطي بالغطاء الصوفي.

تسأل أمها بالفرنسية التي لا تتقن غيرها . ضغطت تسوغيك على إبريق الماء الكهربائي

-maman c'est vrai que papa noel est aussi en Jordanie ?

(ماما هل صحيح أنّ بابا نويل موجود أيضا في الأردن ؟)

تضحك تسوغيك وهي تعد لها كوب الحليب

-donc il va prendre l'avion pour venir chez nous.

(إذن سيركب الطائرة ويأتي إلينا)

-qui t'a dit ça ?

(من قال لك هذا ؟)

-Awedis

(آواديس).

-quand vous chuchotiez à l'aéroport?

(عندما كنتما تتوشوشان في المطار؟)

تبتسم تسوغيك وتحمل باتيل بين ذراعيها

au lit-

(هيا إلى الفراش)

-et papa noel ?

(وبابا نويل؟)

-Qu'est-ce qu'il a ?

(ما به؟)

تضعها تسوغيك في الفراش.

-aura-t-il peur comme moi quand l'avion décollera? Mon oncle Awedis m'a dit que quand papa noel a peur, il se met à rire et les gens pensent qu'il est heureux de monter dans l'avion.

(هل سيخاف مثلي حين تطلع الطائرة؟ نخالي آواديس قال لي أنّ بابا نويل حين يخاف يبدأ بالضحك وسيظن الناس أنه سعيد بركوبه الطائرة.)

-ne t'inquiète pas pour lui, on l'aidera

(آه من صحو لا تقلقي بشأنه فهناك من سيساعده)

تسألها باتيل وهي في السرير وهي تضم الغطاء إلى جسدها الصغير من شدة البرد

-Qui est Sahou ?

(من هو صحو؟)

تجيبها تسوغيك متأففة :

-l'autre nom de mon oncle

(الاسم الآخر لخالك)

-et pourquoi mon oncle a deux noms ?

(ولماذا خالي له اسمان؟)

وكي تقطع تسوغيك أسئلة باتيل أصبحت تجيبها في العربية كي تضجر. لكن على العكس
جلست باتيل في السرير غاضبة وهي تبعد بيدها الصغيرة شعرها المتساقط عن عينيها

tu parles en arabe pour que je m'arrete de parler-

(إنك تتكلمين بالعربية كي أتوقف عن الكلام.)

-oh,mon Dieu, si tu sais que je fais ça exprès à cette heure

tardive, donc pourquoi tu ne cesses pas de parler ?!

(رباه وإذا كنت تعرفين أني أتكلم معك بالعربية كي تتوقفي عن الكلام في هذه

الساعة المتأخرة فلماذا لا تفعلين ذلك؟.)

-arretez de vous disputer !

(توقفا عن الشجار!)

جاء صوت (إيليك) دافئا من تحت الغطاء وحين سمعت (باتيل) صوت جدتها

هرعت إلى سريرها فضمتها (إيليك) إلى صدرها وهمست لها :

-couvrons-nous bien

(لنتغطى جيدا)

ثم نظرت إلى وجهها المتجهم

-Qu'est-ce que tu as ma belle ?

(ما بك يا حلوتي ؟)

فأحست باتيل بالشجاعة وأنّ أحدا يقف بجانبها

-pourquoi ma mère me parle en arabe que je ne comprends pas ?

(لماذا تكلمني أمي بالعربية التي لا أفهمها ؟)

اكتفت (إيليك) بالابتسامة، فغضبت باتيل أكثر

-et toi mamie tu me parles en arménien que je ne comprends pas pour que je dorme

(وأنت أيضا يا جدي تكلميني بالأرمنية التي لا أفهمها كي أنام)

ضحكت (إيليك) وقبلتها ثم قالت لها بالفرنسية

-tu dois dormir car papa noel ne passe pas chez les enfants qui ne dorment pas tot.

(يجب أن تنامي لأنّ بابا نويل لا يأتي إلى الأطفال الذين لا ينامون مبكرا)

أجابتها (باتيل) بخوف :

-vraiment !!!

حقا !!!

ثم دسّت رأسها بالفراش وهي تتمم

-je vais dormir tot chaque nuit

(سأنام كل ليلة مبكرا)

بعد أن نامت (باتيل) حملتها (تسوغيك) وأعادتها إلى سريرها

نهضت (إيليك) من السرير وتناولت شالها الصوفي بينما كانت قدماها اللتان تشيان

بعمرها الستيني تبحثان عن خفها الشتوي

همست لتسوغيك وهما تخرجان من الغرفة

- توقفي عن الشجار معها

جلستا في المطبخ

-أحب أن أشاكسها

فابتسمت إيليك:

-لم يكن لدي الوقت لأفعل الشيء ذاته معك

أرادت أن تغير تسوغيك الموضوع فسألت أمها

- أتحسّين الناسكافيه ؟

- لا بأس بذلك.. هل اتصل بك آوايس فقد حاولت الاتصال بالمرضة البارحة للإطمئنان على (آني) ولكنها لا تجيب، وضعت (تسويك) كوبي النسكافيه على الطاولة:

- وصحوا هاتفه مغلق أيضا.. لا تقلقي ستتصل بك الممرضة.
صمتا فجأة وهما تحدقان بالبخار المتصاعد من كوبي النسكافيه..
وحده ضوء السيارة التي توقف أمام البناية في الساعة الثالثة فجرا قد قطع الصمت البارد بينهما.

(٤)

باريس ٢٠١١

الموتى دى أفلتت من يد القدر والأحياء دى عمياء لا تهتدي إلى تلك اليد.
يتذكر أول مرة شاهد به القطار حين جاء إلى مرسيليا في الرابعة عشر من عمره.
كان يتسائل لماذا خلقت القطارات.... ألئن الناس ملت المكوث في نفس المكان
أكان الجميع بحاجة إلى ذلك الصغير كي يحملوا بأماكن أخرى ويقفون على محطات
تحتضن جميع الغرباء ؟

ذلك الصغير الذي تحول إلى منبه يوقظ كل دقة في عمره.
حين كان يسمع صفيره من بعيد أو أنه كان يحلم به قبل أن يأتي إلى مرسيليا.. كان
يذهب وحيدا ويقف أمام سكة الحديد متجاهلا ذلك الحارس الذي يشبه أولئك
الأموات الذين يذهبون إلى مقبرة القرية بلا عودة..وإننا لا نستطيع أن نجبر الموتى على
أن يتركوا أماكنهم المحجوزة لهم لمجرد رؤية قطار !

ذلك الحارس الذي يبقى صامتا لا يبالي حتى بعيون الغرباء المملوءة سفرا ولا بأيديهم
حين يمر القطار مسرعا ، أما هو فقد كان يحدق بعيونهم ليصاب بعدوى السفر ، وكان
يلوح لهم بكلتا يديه وكأنه كان يعرف جميع الركاب وليوهم نفسه أنه سيلحق بهم في
الرحلة القادمة.

ما كان يؤلمه أن جميع العيون كانت تحدق به بدون أن تدعوه للسفر ذلك أننا حين
 نسافر نصبح أنانيين والسفر يعلم إما الثروة لقتل الوقت أو الصمت للتأمل فيه.
 الآن بعد خمسين قطارا هو ممتليء غربة حد الموت ر وعمره مضبوط على مواعيد
 الرحيل! ألم يحلم ذلك الحارس مثله مرة بالرحيل !!!

ألا يحسد المسافرين وهو الذي اعتاد رؤيتهم حاملين عمرهم بحقائقهم...
 أكان يخاف حين تطأ قدمه القطار ويجلس بجانب النافذة أن لا يجد أحدا يلوح له
 بكلتا يديه فيفتضح يمه بقطار !!!

أكان يخاف أن يخرج القطار عن السكة ويهديه حتفه فأمزجة القطارات لا تتناسب
 دوما مع أمزجة الركاب اللامبالين بها !

أما هو فقد كان عكس الحارس فلم يخش يوما أمزجتها فقد كان يثق بقدر القطارات
 ولم يعلم أنه بعد خمسين قطارا سيصبح خارجا عن الحياة وعاطلا بتذكرة عمر مثقوبة.
 ذلك الحارس الذي لم يجرب السفر مرة ولكنه جرب الموت آلاف المرات.

لماذا علينا أن ندفع ثمن الحياة بالموت... نحن لم نختر أن نأتي إلى الحياة كآ معدين مسبقا
 للمجيء إليها كالوجبات الجاهزة في المطاعم الفاخرة التي صنعت كي لا يجرب الأغنياء
 ولو للحظة الجوع كالفقراء بانتظارهم دقائق معدودة.

هكذا جئنا إلى الحياة بأسماء معدة خصيصا لنا وبأجساد تخصنا وحدنا ولا يوجد غرفة
 كونية للقياس لنبدل أجسادنا وأنفسنا حين تكون أقدارنا فضفاضة أو ضيقة إلى الحد

الذي تظهر به عربنا ر ولكن يوجد دوما غرفة قياس للموت فعلى حد يقينه وعلى حد قول (ماركيز) : الناس لا يموتون حين ينبغي أن يموتوا وإنما حين يريدون ذلك. فأولئك الذين ينتقون موتهم هم الذين يختلفون مع مخرج القدر الذي وزع عليهم أدوارهم مسبقا ر هم يشكون دوما بسيناريو الحياة. ذلك الحارس الذي أنقذ حياته. حدث ذلك في منتصف ظهيرة.. وقف كعادته ينتظر مرور القطار... كان الحارس العجوز متواطئا مع قيلولة الموتي. جرب الوقوف على سكة الحديد ولأول مرة قد اقرب منها لهذا الحد. دقيقة... دقيقتان

سمع صفير القطار الذي يوقظ حتى الأموات من قيلولتهم. استيقظ الحارس على منبه القطار ر شاهد ذلك المشهد المتكرر في حياته.. تذكر حين اغتال القطار ابنه حين كان يلعب على سكة الحديد وكان هو يصنع فنجان قهوته. استدار فلم يجد إلا جثة مصلوبة على سكة الحديد فقد قفز ابنه في اللحظة التي مر فيها القطار مسرعا محملا بالمسافرين ذلك أن من عادة القطارات أن لا تتوقف في أي وقت كي لا تتأخر عن مواعيدها.

قفز الحارس العجوز من مكانه واحتضنه. صفعه كي يستعيد أبوته فلم يستطع أن يؤنب ابنه. حرمه الحارس من المجيء إلى هناك مرة أخرى لكنه سمع أن الحارس قد ألقي بنفسه أمام القطار.

ذلك الحارس الذي أنقذ حياته وحرمه من رؤية القطار.
يتذكر صحو تلك القصة على مقعد في مطار الملكة علياء الدولي في عمان بانتظار طائرة.
كانت الساعة السابعة صباحا.

أيامنا نقضيها على مقاعد انتظار , والانتظار نوع من الموت.
ونبقى طيلة عمرنا على قيد حقيبة نجرها خلفنا وندفن بها ذكرياتنا ووجوه من أحبينا..
الصور التذكارية.. رسائل لحب منسي كي نوهم أنفسنا أننا ما زلنا على قيد حياة.
وساعات الانتظار في صالات المطار الموحشة لا يقطع صمتها إلا الصوت الخارج من
مكبرات الموت وهي تهددنا بأنه النداء الأخير للمسافرين وكأنّ المسافرين هم موتى
قطعوا تذكرة للأبدية.

قطع تفكيره صوت المضيفة التي تأمره بالاستعداد للسفر. وكان يتجنب دوما سماع
صوتها لأنه كان دوما مستعدا للسفر.

يحمل حقيبته الصغيرة التي لا تحتوي إلا على دفتر صغير وبيجاما وبنطال وقيص صوفي
فقد كان مثقلا بذكريته. وقد كان يدهش من العامل حين لا يجبره على أن يدفع
ضريبة على زيادة وزن أمتعة ذاكرته.

كان يتسّم له ويسمح له بالمرور ولا يطلب منه ضريبة , فنحن وحدنا من يدفع ضريبة
على ذاكرتنا ووجدنا نبكي وتألّم في العتمة حين نصاب بوعكة حنين.
ونحن بالنهاية يتامى... يتامى حرب وحب وفقد !!

يصعد إلى الطائرة وكعادته يحدد في المقاعد وينتظر عامل القدر الذي سيختار له من سيجلس بجواره.

يتذكر سريعا وهو يحدد في المقاعد مقولة (موريس) : وبعض المسافرين ما يزالون يلجون في داخل الطائرة ويختارون مقاعدهم كمن يختار نهايته بخشية وحذر. كان يبحث عن مقعد يليق بثقل ذاكرته فالمقاعد قدر أيضا متحاشيا الرقم المكتوب على التذكرة.

جلس في الصف الأخير ليراقب جميع الركاب وكأنه يلعب دورا في مسرحية.. كان لا يحب أن يحجز في الدرجة الاولى فجميع الركاب هناك لا يتقاسمون الحديث مع أحد ولا مجال لخلق أي صلة حميمة أو أي تواطؤ إنساني يخفف ثقل الوقت. أما في الدرجة الثانية أو الثالثة فيمكنه أن يلقي التحية ويسمع صدى لها ويتبادل الحديث عن أي شيء غير الأحوال الجوية فهذا فقط من شأن الذين تظل نوافذهم الداخلية مغلقة ومتعفنة ولا يوجد فيها أي تجديد لهواء إنساني. أصحاب الدرجة الأولى أموات على قيد الحياة.

ها نحن في ٢٠١١ وقد استبدلت القطارات بالطائرات التي بدأ تاريخها بطائرة ورقية بين يدي طفل يحلم أن يحلق في السماء مع الطيور. كان يفضل القطارات لأن جناحيه مكسوران ولا يصلحان للحياة ولا يهبطان إلا بمطارات الوحشة والغربة والمدن النائية.

يأخذ جميع الركاب أماكنهم... كان يحدد بهم واحدا واحدا وهم يختارون جنازاتهم

مسبقا فالطيران نوع من الموت المؤجل. وحده المقعد الذي بجواره ما زال فارغا فبعضنا يتأخر عن الحياة بمقعد. كان يكره المقاعد الفارغة لأنها تذكر دوما بغياب أحد ما. مؤلة هي الأماكن حين لا يشغلها أصحابها !

على مقاعد الحياة لا ندرك أننا ننتظر الموت , وعلى مقاعد الطفولة لا ندرك أننا نكبر ببطء , وعلى مقاعد اللقاء لا ندرك أننا ننتظر الفراق.

لهذا كان يفضل الوقوف دوما كي لا تخونه الحياة بمقعد ؟!

جاء ذلك الشاب مسرعا وحين شغل مقعده طمأن جميع الركاب بالسفر مع أن مواعيد الطائرات كمواعيد الموت لا تمهل أبدا !

حين أقلت الطائرة كان (صحو) يصغي الى صوت عجوز فرنسية تتضرع إلى العذراء كي تصل بأمان.

كان يتعجب من قدرة الله على فهم جميع اللغات أم أن اللغة الوحيدة التي توحد جميع الناس هي لغة الخوف من الموت فهي لغة مباشرة تصل إلى الله سريعا حين تتضرع إليه. كانت العجوز تأمر حفيدها بأن يردد وراءها آمين لكن الصغير كان مجبرا على قولها فقد كان مشغولا بالغيوم ولأن قلوب الأطفال لا تعرف الفرق بين الحياة والموت عكسنا نحن الذين نواري الموت بكثرة الصلوات.

لم أكن بحاجة أن أرفع مع تلك العجوز الصلوات إلى العذراء كي أوارى خوفي من موت اضطراري , ما كان يخيفني ليس الموت بحد ذاته بل أن أموت مللا وأنا معلق

بالهواء بلا جنازة وليس الملل والخوف الذي تحدث عنهما (أورسون ويلز) : في الطائرة لا نحسّ إلا بشعورين الملل والخوف.

كنت أخاف أن أموت وأنتظر بملل موعد جنازتي.
كنت أدعو فقط لسائق الطائرة الذي يتوجب عليه أن يقود الطائرة حيث لا يوجد أماكن استراحة.

تذكرني تلك العجوز حينما كنت صغيرا حين كانت أمي (إيليك) تؤنّبني سرا إن لم أكل قبل الأكل:

(باسم الآب والابن والروح القدس) د وكان أبي (نديم) يفعل الشيء ذاته إن لم أكل : (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) وكنت أدهش من أبي حين يكثر هذه التفاصيل ولم أره مرة يصلي وكان شرب الخمر لديه كقهوة الصباح.
والتي كانت تؤنّبني علنا إن لم أأكلها هي جدتي (آني).

لم أكن أعرف الفرق بين الجملتين لكنني كنت أصغي إلى كلامهم وما كان يهمني فقط أن أتلذذ بالطعام الذي أأمي.

حين كنت أذهب مع جدتي (آني) إلى القديس كنت أبسمل متعمدا أمام الكاهن.
وبعد انتهاء القداس كان ينفرد الكاهن بجدتي (آني) ويؤنّبها لأني لن أصبح بتلك الطريقة كاليسوع.

لم أكن قد تعرفت بعد على ذلك المصلوب.. كان يشدني فقط صوت الأجراس فهي الوحيدة التي كانت تتناغم مع دقات قلبي كأصابع معلمة البيانو في المدرسة. وصوت

والد صديقي حين كنت أزوره في البيت حين كان يقرأ القرآن فليس للمآذن الحق أن تهدر بصوت عال في مرسيليا كأجراس الكنائس .
أذكر مرة أنني كنت أصغي لشريط يحتوي على سورة من القرآن قد أهداني إياه والد صديقي .. جاءت جدتي (آني) مسرعة من غرفتها.
قالت باندهاش :

-إن صوت هذا المغني جميل وبالرغم أنني لا افهم العربية، لدي رغبة أن أسمعه دوما.
لم أستطع أن أخبرها بأن ما سمعته هو سورة من القرآن مع أنها كانت تعرف أنني مسلم وكانت تتجاهل ذلك باختياري دوما للذهاب معها إلى القديس . هي التي تكره الإسلام كونهم المسلمون كما تقول من تسببوا بمذبحة الأرمن وتشريدهم.
ابتسمُ موتاً فقد ماتت جدتي (آني) البارحة وقد أخبرتنا جميعاً قبل أن اذهب إلى لبنان لحضور مؤتمر عن الأطفال اللاجئين ومن ثم لحضور مؤتمر آخر في الأردن وقبل أن تذهب أُمي (إيليك) وأختي (تسوغيك) إلى الأردن وكانت توجه كلامها إلى ابنتها (إيليك) وقد اختارت متعمدة الأرمنية وقد ترجمت لي تسوغيك كلامها.
-سأمت بعد شهر من رحيلك يا (إيليك) .

ضحكت وأنا أداعب خديها بأصابعي وهي جالسة ع الكرسي المتحرك
-ها أنت قد تجاوزت التاسعة والتسعين ألدك عقد دائم مع السماء ؟
قالت وهي ترتدي نظارتها :
-اصمت أيها الشيطان.

قالت (إيليك) برجاء :

-أنت من رفضت يا أمي المجيء معنا، سأطمئن فقط على تسوغيك وأعود بعد شهر.
قالت بعد أن أدارت ظهرها :

-لن تجدينني هنا حين تعودين.

اقتربت منها تسوغيك وأصلحت لها شعرها وزررت لها قيصها البني وهمست بأذنها
- جدتي ستعيشين طويلا وسأنتظرك في الاردن.

بقيت صامتة وسمعت صوت عجالات الحقائق وعرفت أنها لم تستطع أن تقنع أحدا
بالبقاء حين أرادت أن تحدد موعد موتها.

ولم يكثر أحد لكلامها فقد أرادت فقط أن تشعر (إيليك) بالذنب وتجبرها على البقاء
كي لا تستطيع (تسوغيك) السفر وتعود بذلك إلى ليفون.

ولأني أعرف أنّ جدتي (آني) لها تواصل مع كائنات لامرئية تعيش فقط في رأسها.
هي التي بالرغم من ثقل سنواتها لم تشكو من مرض ما سوى عدم قدرتها على المشي،
بقي شعرها كثيفا، وقد كانت تعتني بنفسها وجمالها فتدهن كل يوم شعرها وجسدها
بزيت الزيتون وقد اعتادت أمي (إيليك) أن تمشط لها شعرها كل صباح وتربطه على
شكل جديلة أظن أنها كانت تغار من (باتيل) حين كانت (تسوغيك) تمشط لها
شعرها أمامها.

حين اتصلت بي الممرضة الأرمنية التي بقيت عندها في البيت ضحكتُ كي لا أثبت
كلام جدتي

(آني) ر وظننت أنها هي من طلب منها الاتصال كي لا ننسى التاريخ الذي حددته.
فأجبها :

-إنها نائمة فقط وتحدث مع أصدقائها اللامريئين.

ولكنها أنهت مكالمتها بأسلوب فرنسي أنيق يليق بجنابة.

-ارتدي غدا السواد لتليق بجنابة جدتك.

قد أخبرت الممرضة قبل رحيلي إن حدث لآني شيء ما أن تتصل بي في البداية.

بكيت كطفل.. كنت لحظتها في الخيمة أعالج طفلا مصابا بقذيفة.

كانت تقبلي كل صباح قبل أن أذهب إلى العيادة كطفل لم يتجاوز عمره الثلاث سنوات.

كانت تغضب حين كنت أوصلها إلى القداس ولا أدخل معها ر كانت تصرخ أمام جميع المصلين

-قد تجاوزت الأربعين ولم تسدد بعد فواتيرك إلى الله !

كنت أبتسم حين أستثيرها وقد كنت أتعهد أن أرافقها إلى الكنيسة ولكن بدون أن ادخل معها وقبل أشهر من موتها قلت لها أنّ الشريط الذي تحب سماعه هو القرآن وأظن أنها بعد ذلك قد بدأت تتقبل أنّ الإسلام كعبة للمكوثها أيضا.

نظرت إلى الشاب الجالس بجواري في الطائرة حين أخرج كتابا من حقيبته الصغيرة..ولا أعرف لماذا أشعر دوما بقربة ورقية مع أولئك الذين يحتضنون بين أيديهم كتابا.

أحبيه ورقاً وأنا أنظر إلى الكتاب

-إنه أجمل ثمرة صامتة.

كان في أواخر العشرين... كان أبيضاً وطويلاً وله عينيْن دامتَين كعيني طفل وشعره

أشقر ووجهه مدور كوجه الأطفال البريئة.

كان يرتدي بنطال جينز أزرق وقيص أخضر مخطط على شكل مربعات وشعره

كثيف جداً ويحمل حقيبة صغيرة.

سألته :

-ماذا تعمل ؟

-ما زلت أدرس ؟

-أين ؟

-أدرس الصحافة في جامعة اليرموك.

-آه حقاً ؟

-وأنت ؟

-في البداية درست التمريض مجبراً ثم درست الإخراج السينمائي وهذا هو عملي الرئيسي

وأمارس مهنتي كممرض حين أستريح من فيلم ما كي أساعد الأطفال حول العالم.

توقفنا فجأة عن الكلام وكنت أريد أن نستمر في الحديث كي لا أفكر بجنازة جدتي

(آني).

-سألته :

-لماذا جئت إلى هنا ؟

-قد رشحتي الجامعة لحضور مؤتمر في فرنسا عن الأطفال اللاجئين.

-آه نسيت أن أسألك عن اسمك ؟

-عمار

-صحو

أصلح من جلسته حين سمع باسمي

-آه أنت المخرج صحو الذي أخرج قبل سنوات فيلم بالفرنسية عن الأرمن. أأنت أرميني

؟ إن وجهك مختلف عن الصور التي في الانترنت.

-لا فلسطيني وأسكن في باريس. ربما لأنني متعب لذلك لم تعرفني.

وقلت هذه الجملة بالفرنسية.

- ربما. إنك كالفرنسيين ولا تبدو فلسطينيا

-الفرنسية منفاي كما يقول (ألبير كامو) ولا أدري متى سأخرج منه كي أغير الحديث

عني سألته

-ألديك نسخة أخرى من الكتاب ؟

-بالطبع..... أنصحك بقرائته فهو قصة حقيقية عن راهبة تروي بعد سنوات حياتها

العاطفية. إنه ضجة إعلامية وقد حاولت الاتصال بدار النشر لأعرف عنوان الراهبة كي

أجري معها لقاء صحفيا ولكن مدير الدار قد رفض ذلك بدون أسباب.

طلبت منا المضيضة وضع الأخرمة.
حين هبطت الطائرة أعطيته كارتى وكتب لي رقم هاتفه على الصفحة الأولى من
الكتاب.

-أودّ أن أجري معك لقاء صحفيا إذا كان لديك متسع من الوقت. سأبقى هنا أسبوعا.
ابتسمت :

-باريس ستنسك كل شيء ولن تكثرث بإجراء حوار مع رجل خمسيني.
صالحني.

-المهم أن لا تنسى أنت ذلك فأنا من طلبت ذلك.
قبل أن نفترق قلت له :
-سأصل بك حالما.....

ولكني لم أزل أمامه بجنازة جدتي (آني).

طلبت من سائق التاكسي أن يتوقف كي أشتري بدلة سوداء كي أليق بجنازة فرنسية
فلم أكن بحاجة يوما لارتداء بدلة فأنا لا أحضر مهرجانات سينمائية وأكره ربطات
العنق التي تخنق وقتي والمجاملات الزائفة.
ولكني لأول مرة أشعر بهيبة الموت بعد أن كنت أحاول دوما أن أحوله إلى أمر
تافه وعادي.

كانت الساعة الثانية عشرة ظهرا.. قد بقي ساعتين على موعد الجنازة كما حددته أنا للممرضة وطلبت منها أن تخبر المقربين وأصدقائها من الأرمن.

أخبرتني الممرضة بأنها لم تضع جدتي (آني) في براد الموتى كما أوصت هي بذلك كي لا تصاب بالزكام ولم ترغب أن توضع في تلك الزنزانة كي لا تحتنق بردا وقد قالت لي يوما : أفضل أن أتعفن بعد موتي على سريري على أن أموت ثانية في براد الموتى.

لهذا بقيت يوما كاملا ممددة على السرير مغمضة عينيها بلا حراك.

أتخيلها وهي محاطة بالملات البيضاء صامئة تتعلم لغة الموتى.

أعطيت للسائق العنوان كي لا يسطو كل لحظة على ممراتي الداخلية.

أغاضبة هي الآن مني لأني لم أصدقها حين أخبرتني بموعد موتها ر ولماذا طلبت أنا من الممرضة أنه إذا حدث لها شيء أن تتصل بي وأن لا تتصل أولا ب (إيليك) أو (تسوغيك) .

لماذا أردت أن أخفي خبر موتها عن (إيليك) ألثنا ستشعر بالذنب طيلة حياتها وستعود إلى مارسيليا وستغضب أعواماً من (تسوغيك) ؟

وقد أخبرت الممرضة إذا اتصلت (إيليك) للاطمئنان عليها أن تقول لها بأنها نائمة أو لا تود الحديث معها لأنها لم تطعها بالبقاء في مرسيليا.

طلبت مني مليا أن أعود وأستقر في مرسيليا بعد أن ذهبت إلى باريس كانت تريد

أن أعود كي أفتح العيادة على الدوام وليس فقط في أيام العطل حين أزورها أو في نهاية كل أسبوع، وأن أعالج الأطفال بالمجان فكانت تردد لي دوما : الله لا يلتفت إلا للذين جوبهم مثقوبة حيث يستطيع الآخرون أن يأخذوا منها بدون أن يشعروا بالخجل . والمؤلم يا جدي أن جيوي كانت كلها مثقوبة ولكني لم أملك يوما ذاكرة مثقوبة . حين مارست مهنة الإخراج بعد أن درست التمريض لأجلها فهي من تكفلت بدراستي . لم تقتنع يوما بمجدوى تلك المهنة إلى أن فاجتتها يوما بعيد ميلادها حين أكلت التسعين عام ألفين كان الفيلم يروي قصتها وقصة عائلتها عام ١٩١٥ كيف هجروا وذبحوا ومثلت دورها الممثلة الأرمينية (فارتي) التي كانت تحبها .

جلست في الصف الاول في قاعة السينما وبجانبا (تسويك) و(إيليك) وفوجئت حين توقف التاكسي عند باب السينما .

-أيها الشيطان (آوايس) أهذه هي هدية عيد الميلاد التي وعدتني بها منذ أشهر أن تقطع لي تذكرة لحضور فيلم !!؟

اتصلت بها صباحا وطلبت منها أن ترتدي أجمل ما لديها فارتدت تنورة بنية قصيرة تصل إلى ركبتها وقيصاً أبيضاً وشالا صوفياً شغلته يديها واستعرت من مشابك (باتيل) مشبك شعر على شكل فراشة ووضعت على شعرها الأبيض القصير فبدت بعمرها التسعيني وبعكازها كأجمل طفلة فلم تكن بعد قد استعانت بكرسي متحرك . وظلت تشتمني إلى أن أطفأت الأضواء ورأت اسمها على الشاشة الذي يحمل عنوان الفيلم .

بعد أن انتهى الفيلم اقتربت أنا (وفارقي) من مقعدها سلمت عليها (فارقي) وحضنتها وهمست لها :

-إنك (آني) الحقيقية وأجمل مني بكثير.

ابتسمت وقبلتها

-أحببتك منذ أول ظهور لك على التلفزيون الفرنسي.

-وها أنا قد تجاوزت الخمسين وما زلت على الشاشة الفرنسية.

حين جلسنا جميعا بصحبة فارقي قالت لي جدتي (آني) :

-إنها أجمل هدية (آوديس) في ذكرى المذبحة الذي سيكون بعد أيام في ٢٤ / نيسان.

لأول مرة أشعر أنّ السينما أنصفت الأرمن بعد الفيلم الذي قام ببطولته (عمر الشريف).

سألت فارقي :

-أخبريني قصتك.

حين وضع العشاء على الطاولة بدأت (فارقي) بالحديث أمام إصغاء جدتي الشديد.

-سأروي قصة جدي فارتان الذي كان عمره خمس سنوات في عام ١٩١٥ أثناء

رحيل جدي فارتان وإخوته مع أبيه وأمه من أورفا باتجاه مدينة ماردين في جنوب

الأناضول كان الجنود العثمانيون يغتصبون النساء ثم يقتلونهم وكان ذلك أمام مرآى

التجار الأكراد فسلمته أمه إلى أحد الأكراد كي لا يقتله الأتراك. وأغلق له الكردي

أذنيه كي لا يسمع صوت الرصاص الذي اغتال عائلته.

لم يبق جدي في بيت الكردي كثيرا فحين جاء الجنود الأتراك للبحث عن الأطفال الأرمن خافت زوجة الكردي عليه فباعته لرجل آشوري ولكنه تعرض جدي فارتان لسوء المعاملة فقد أجبره الرجل على العمل معه في الحداة وكان يضربه وظل عنده أربعة أشهر إلى أن طرده الرجل ليتشرد أربعة أعوام ثم عاد إلى اورفا بمساعدة منظمات إغاثة ولم يكن يعرف اسما لعائلته فأعطوه اسما ثم تم توزيع الأطفال بين سوريا ولبنان فأرسل إلى لبنان وبقي هناك وتعلم مهنة التصوير وتزوج من فتاة أرمنية. أمام صمتنا المطبق قالت جدتي (آني) :

-إن لم ندافع نحن عن المليون أرمني وأكثر فن سيدافع عنهم سأظل أرمنية حتى الموت.

طلبت ويسكي فغمزتها :

-أيتها الصبية التسعينية

ضحكت بصوت عال أعلى من الحياة

طلبت من الجارسون أن يضع أغاني (لشارل ازنافور) كما اتفقت معه مسبقا كونه

مغنيا المفضل.. بدأت تدندن مع الاغنية (mourir d'aimer).

ونفضت عن الكرسي وسألني :

- أتراقصني أيها الأبله ؟

فنهضت عن الكرسي فرحاً

-ومن سيرفض الرقص مع أجمل صبية.

راقصتها وهي تردد كلمات الأغنية....

جدران حياتي ملساء

أتمسك بها بشدة ولكني أنزلق

بيبء نحو قدري

الموت حبا....

كانت ترقص بخفة كفراشة جريحة تقترب من الضوء وتعرف أنها ستختفي وكانت
جدتي (آني) تعبر سنواتها بخفة كانت تلعب مع الوقت تراقصه ولا تدعه يمضي من بين
أصابعها.

تموت حبا وحياة وفرحا بعامها التسعيني.

يصعد السائق الطريق الجبلية، يمر من سكة الحديد التي أصبحت أكثر أناقة.

إنها الحادية عشرة...

بقي ساعة ويبدأ القداس وقد طلبت أن يكون قداسها في البيت كما أوصت الممرضة
بذلك.

حين فتحت الباب كان البيت صامتا، بيتها مميز بطرازه الأرمني بجدران الخشبية التي
علق عليها النحاسيات المرسوم عليها الثوب الأرمني وصور لأرمينيا ولوحات لرموز
مسيحية دينية.

لم أذهب سريعا إلى غرفتها كما أشارت لي الممرضة.

اغتسلت وبدلت ثيابي كأني سأسمع صوتها وهي تناديني.

حين انتهيت من ارتداء سوادي طرقت الباب وكأنها ستجيبني، كانت ممددة على السرير بثوبها الأخضر.

حين كنت صغيرا كنت أتسائل لماذا يبكي الناس حول سرير شخص نائم. ها هي نائمة وكأنها ستستيقظ بعد قليل لأرافقها للقداس.

هي التي تجاوزت المئة وكانت توقن أنّ الله يطيل في عمرها كي تبقى شاهدة على مذبحة الأرمن.

وقع نظري على آلة التسجيل.. ضغطت أصابعي بشكل لا إرادي على زر التشغيل. شارل أرنافور مغنيها الأرمني يغني بالفرنسية أغنيته الشهيرة عن موت أمه (la mama) لماذا اختارت هذه الأغنية ؟

أكانت واثقة لهذا الحد من موعد موتها الذي لم نكتث به.. وكأنها أرادت أن تقول أنّ كل شيء سيكون جاهزا حتى أغنية وداعي.

أصغي إلى الأغنية التي اختارتها بنفسها وكأنها كانت تلك رسالتها لي حين أصل أن أضغط فقط على آلة التسجيل ونسمع معا الأغنية فرضخت لطلبها بالتزامي الصمت.

كان شارل في هذه الأغنية يبكي جميع الأمهات على هذه الأرض بصوته المليء بالموت.

كلهم جاؤوا

كلهم كانوا هنا

ما إن سمعوا تلك الصرخة

وعرفوا أنها ستموت

ماما.....

العدراء تقف في غرفتك منذ سنين منذ أن كنت صغيرا وأنا أراك من طرف الباب تجئين راحة عند قدميها تنذرين لها الصلوات وتعاتبينها حين لا تفعل ما تريدين. ها هي الآن وحيدة. من سيتكلم معها؟ فأنا لست بكامل الإيمان كي أتكلم معها ولم أفكر يوما ما تعنيه الثواب بالنسبة لي، وأذكر يوم تشاجر أبي مع أمي (إيليك) لأنها كانت تريد أن تعمدني حينها صرخ أبي بوجهها :

-صحو مسلم وسيبقى كذلك.

فقال له بسخرية :

-مسلم كأبيه الذي لا يشرب إلا الخمر ولا يسأل عنه إلا نادرا.

لم يقل أبي شيئا وحين خرج قال لها بحدة :

-لكن صحو سيبقى مسلما.

وبرغم إصرار أبي على أن أبقى مسلما واصطحاب جدتي (آني) وأمي (إيليك) لي إلى الكنيسة إلا أن الدين كان شيئا ثانويا في حياتي لربما لأنني لم أنتمي لدين واحد، ولكني كنت أشعر بالله في حياتي ولكنه لم يتجسد بممارسات أو تقاليد أو أيقونات كان الله بالنسبة لي هو الله وكفى.

انكشيت على السرير كطفل ولكني لم أجرؤ على لمسها لأن أيدي الموتى تبقى باردة

ولا مجال لتدفئتها في فصل ما زال صيفيا وكأنّ الشمس لا تؤثر بأجساد الموتى.
 ماذا سأبرر لأمي (إيليك) عن عدم إخباري لها بموت (آني)، فلو جاءت هنا لوداعها
 لن تعود أبداً إلى الأردن. أرجأت التفكير في ذلك الأمر إلى ما بعد الجنازة.
 خرجت إلى الصلاة كانت الممرضة بانتظاري سألتها :

-ماذا حدث لها ؟

بدأت تروي وكأنها تروي أحداثا عادية منوعة تقال في آخر الأخبار.
 -كعادتها جلست (آني) أمام العذراء وطلبت مني الخروج من الغرفة.
 منذ رحيلك قبل أسبوع رفضت أن تتكلم مع (إيليك) أو (تسوغيك) كانت تتصل
 بي (إيليك) مرارا لتطمئن عليها والبارحة حين توفيت أغلقت هاتفني كي لا تتصل بي
 لأنك قد طلبت مني أن لا أخبرها.

كنت جالسة في الصلاة كانت تسمع لشارل ازنافور وهي ممددة على السرير نادتي في
 الساعة الثانية عشر ليلا قالت بهمس : أريد أن أردي ثوبي الأخضر أول ثوب
 اشتريته من عملي وقت بتوسيعه. ساعدتها بارتدائه وهي تتمم : لم يصدقني أحد، لم
 يصدقني أحد.

وضعت شريطا آخر لأزنافور وقالت : لا تبدي الشريط، أعرف أن (آوديس)
 سيشتاق لي كثيرا وسيرتبك بموتي. هذه الأغنية ستعزيه ولأول مرة أسمعها تصلي
 بالأرمنية بصوت عال. ثم طلبت مني أن أنقلها إلى السرير وقبل أن أطفأ الضوء قالت
 لي : إن مت أريد أن يقام القداس هنا.

في الرابعة فجرا ذهبت لأناولها الدواء وكانت قد توفيت واتصلت بك حالا.

قطع صوت سيارة الموتى حديث الممرضة .

جاء الكاهن زهراب الذي تجاوز السبعين والذي شهد على زواج ليفون وتسوغيك، وقد جاء أيضا أصدقائها الأرمن والفرنسيين. كان الجميع يرتدي السواد حاملين زهور الموتى وهم يصحافونني ويرددون أمامي ذات الجمل الفرنسية : j'ai appris la nouvelle ou je suis de tout cœur avec vous علمت بانخبر أو أنا

معك بكل قلبي.

وعلى عكس الجمل العربية التي علمني إياها أبي (عظم الله أجركم أو الله ما أخذ وله ما أعطى).

فالله لا يتدخل أبداً بمجملنا الفرنسية هو دائماً على الحياد وتجنب وجوده الحاضر الغائب ونذكره فقط بكلمة معترضة !

حتى كلمة (الله) لا توجد إلا في العربية فبالفرنسية يوجد كلمتان لمعنى إله إما (Dieu) وتعني

(رب) أو (seigneur) أما كلمة (الله) فخروفها تحتوي على إيقاع يتناسب مع نفس الإنسان أي هو النفس وكأنا مع كل نفس نقول (الله). وقد كنت بحاجة لهذا النفس الإلهي.

أحضرتُ التابوت الذي صنعته لنفسها والذي وضعته في العلية منذ سنوات. لم يذهب الجميع إلى المقبرة ف (كامو) يقول : هناك أناس لم يخلقوا لفكرة أنه يتوجب

عليهم السير وراء عربة الموتى.

ربما كامو على حق كي لا يصدقوا أنهم في يوم ما سينامون إلى الأبد في تابوت صنع خصيصا على مقاسهم ، وأنهم سيحجزون رغما عنهم حيزا في مقبرة ذلك أنّ المقبرة هي الشيء الوحيد الذي يتوجب علينا زيارته بدون أن نملك الرغبة بذلك.

حجرت جدتي (آني) مكانا لها بين غرباء ستتعرف عليهم قريبا وسيصبحون أصدقائها الحقيقيون فالموت هو الدور الوحيد الذي يتقنه جميعنا أمام خشبة الحياة ، والأحياء مديعون صامتون سيكونون يوما جزءا من المسرحية في قاعة مقبرة. ستخبرهم جدتي عن مذبحّة الأرمن وعن قصتها وسأجلس في المقبرة لأسمعها وهي ترويها لأصدقائها الجدد.

أنا (آني نيرسيسيان) القادمة من أرمينيا التي رأت كل شيء ولم تنسى شيئا ذلك أنّا حين ننسى نموت ولم أرغب في الموت بلا ذاكرة وأنا ما زلت على قيد الحياة. أحفظ وجهه من سقطوا من الجوع، ومن قتلوا، ولم يغلق أحد أعينهم، عظامهم ما زالت في الصحراء.

وصوت أمي يأمرني بالهرب
ما زلت أسمع صوتها وكأنه البارحة.

(٥)

أربد ٢٠١١

-لا تفتحي.

قالت (إيليك) مترددة.

ولكن (تسوغيك) خرجت من المطبخ وتبعها (إيليك).

قالت (تسوغيك) بثقة من خلف الباب.

-من ؟

سمعت صوتاً أنثوياً متعباً :

- أبحث عن بيت للإيجار

تبادلت (إيليك) و(تسوغيك) النظرات.

فتحت (تسوغيك) الباب بحذر وجدت امرأة ترتدي حجاباً أبيض في العشرين من عمرها نحيلة ووجهها أبيض ومستدير، كان بعينها يريق يجذب الناظر إليها ولا يستطيع إلا التحديق بهما، وتمسك بيدها طفل أكله النعاس لا يتجاوز الخمس سنوات. كان يتشبث بعباتها راجياً منها أن تبحث له عن سرير.

نظرت (تسوغيك) سريعا إلى حقيبة السفر الوحيدة التي ملّت من الثأوب أيضا.

بدأت المرأة في الحديث وهي تهدد بيدها على رأس طفلها.

-قد سأل صاحب التاكسي السوبر ماركت القريب من هنا وقال أنه يوجد هنا شقة

فارغة. منذ ثلاث ساعات وأنا أبحث عن بيت للإيجار وها هي الساعة قد تجاوزت الثالثة فجرا.

وبدون أن تتظر (تسوغيك) إلى أمها ودعت المرأة للدخول بعد أن طلبت المرأة من سائق التاكسي الرحيل.

اقتربت تسوغيك من الطفل وسألته وهي تداعب وجنتيه :
-أأنت جائع ؟

هز رأسه موافقا وكأنه كان ينتظر ذلك السؤال منذ زمن. وأدركت تسوغيك بحسها ارتباط المرأة ونحجها فابتسمت ابتسامة عريضة كي تريحها والتي قالت سريعا :
-لا داعي لذلك أنا متأسفة جدا لإزعاجكم في هذا الوقت المتأخر.

فقال تسوغيك: وهي ذاهبة إلى المطبخ تاركة أمها مع المرأة الغريبة :

-لا لا سأصنع لك أنت أيضا شيئا تأكلينه فؤكد أنك كنت على سفر.

حين عادت (تسوغيك) حاملة ساندويتشات التوست بالجينة البيضاء وكأسين من العصير وجدت أن الطفل قد نام على الكنبه فقالت تسوغيك: وهي تضع الصينية على الطاولة.

-يبدو أنني تأخرت كثيرا في صنعها.

فقال المرأة بنجل وهي تنظر إلى (إيليك) التي لم تنفوه بكلمة منذ قدومها.

-لا ولكنه لم يمت طوال الطريق.

ذهبت تسوغيك وأحضرت غطاء ووضعته على جسد الطفل وحين جلست قالت وهي

تضم قيصها الصوفي إلى جسدها.

-أمي لا تتكلم العربية جيدا لذلك لا تستطيع الحديث معك.
ابتسمت المرأة.

قامت تسوغيك سريعا

-آه نسيت أن أشعل المدفأة قد أمطرت اليوم كثيرا وغدا متوقع تساقط ثلوج غزير
ولأول مرة سيحدث ذلك في اربد في شهر أكتوبر. مؤكد أنك مرهقة. لدينا غرفة
فارغة تستطيعان النوم فيها وغدا سأريك الشقة.
تململت المرأة :

-ولكني قد أثقلت عليكم.

-لا تقولي ذلك هيا معي.

حملت الأم طفلها وتبعت (تسوغيك) متحاشية النظر في عيني (إيليك) التي لم تستطع
أن تحدد ملامح وجهها وشعرها نحوها. نهضت (إيليك) وذهبت إلى غرفتها.
بعد أن أعطتها تسوغيك أغطية كافية تمت لها ليلة سعيدة وأغلقت عليها الباب.
ذهبت إلى فراشها بجانب (إيليك)، انزلت تسوغيك سريعا في الفراش ضامة الغطاء
إلى جسدها بشدة.

قالت (إيليك) :

-كيف سمحت لها بالدخول وأنت لا تعرفين حتى اسمها ؟!!!

-ماذا كان يتوجب علي أن أفعل في هذه الساعة والطفل قد تجمد من البرد.

- n'as-tu pas vu comment elle s'habille ? ses vêtements ?sa voile?

(ألم تري ثيابها وحجابها ؟!)

-بلى رأيت ثيابها وحجابها ولكنها لم تأتي إلى هنا لتفجر نفسها كما يفعلون بفرنسا ألم تري الحزن في عينيها !!؟

حل الصمت بينهما من جديد حين طغى صوت أذان الفجر على كل شيء آتيا من المسجد القريب.

حين استيقظت (تسوغيك) في التاسعة صباحا نهضت من السرير محاولة أن لا تصدر أي ضجيج.أغلقت باب الغرفة وقبل أن تذهب إلى الحمام أشعلت إبريق الماء الكهربائي.

ربطت شعرها على هيئة فرس وصبت القهوة في فنجانها الأزرق المفضل، ثم مدت يدها إلى الراديو باحثة عن صوت فيروز الذي كان يذممه أخوها صحو(آواديس) ودهشت حين جاءت إلى الأردن أنّ كل القنوات تبث أغانيها في الصباح وكأنها فرض يومي لا استغناء عنه.

كانت تدندن كلمات الاغنية بعد أن فتحت باب الشرفة وهي تتنشق رائحة الأرض بعد المطر وصوت فيروز يتسرب إلى مسامات قلبها ويذكرها بصحو الذي كان يفسر

لها الكلمات بشغف.

" يا حبيبي أنا عصفورة الساحات / أهلي ندروني للشمس وللطرقات / لسفر
الطرقات / لصوتك يندهني مع المسافات...".

ابتسمت وهي تتذكر أول مرة سمعت صوتها من هاتفه حين كان يأتي في عطلة نهاية
الأسبوع إلى مرسيليا وطلبت منه أن يفسر لها الكلمات بالفرنسية وضحكت لأن الكلمات
لا تعطي أي معنى بالفرنسية وحين تعلمت العربية جيدا صارت تحس معنى الكلمات
وعلمت أنّ الأحاسيس لا تفسر وفيروز تحس ولا تفسر.

تسمع صوت باب الغرفة التي تنام بها المرأة يفتح، ذهبت إليها
-صباح الخير آه نسيت أن أسالك البارحة عن اسمك أنا اسمي تسوغيك وأنت ؟
تفكر المرأة باسمها الغريب وفضلت أن لا تسألها عن شيء
-اسمي حنين..

-آه.. la nostalgique

تنظر تسوغيك إلى حنين بدون حجاب بشعرها الطويل الذي يظهر أنها تعتني به كثيرا
وإلى وجهها الأبيض المدور
-تعالى لشرب القهوة

تبسم تسوغيك وهي تدخل إلى المطبخ

-أحب الجلوس هنا وإذا لم يعجبك نستطيع الذهاب إلى الصالة

-لا لا أنستطيع الجلوس في الشرفة ؟

- بالتأكيد

أحضرت لها تسويك شالا لتضعه على كتفها.

تجلسان مواجهتان لبعضهما والهواء الشتائي يلفح وجهيهما بعدوبته فيتحول صوت فيروز إلى ترنمة صوفية تتناغم مع الطبيعة.

قالت تسويك: :

-قد اعتدت سماعها من أخي

تضم حنين ذراعيها إلى بعضهما وتحقق في الفراغ.

-في سوريا معظم المطاعم تضع أغانيها منذ الصباح وهناك الكثير من المحلات التي تحمل أسماء أغانيها.

-أنت سورية إذن ؟

-نعم قد جئت البارحة من هناك.

-ولماذا غادرت موطنك ؟

تبتسم حنين

-ألم تشاهدي ما حدث في سوريا ؟

-في الحقيقة لا، ففي فرنسا لسنا فضولين لنعرف الآخر. أعرف فقط قليلا عن

الثورة السورية.

-أأنت فرنسية ؟

-لا أرمينية تعيش في فرنسا.

-اسمك إذن أرميني ؟

-نعم ومعناه الندى. أنا متأسفة على جهلي جراء ما يحدث في بلدك.
-لا عليك

قالت حنين الجملة الأخيرة بحزن وكي تغير الموضوع سألتها
-أنستطيع رؤية الشقة الآن ؟
قالت تسوغيك: :

-بالتأكيد سأحضر المفاتيح.

صعدتا الدرج إلى الطابق الثاني قالت تسوغيك:

-هذه البناية لرجل اسمه أبو صالح صديق لأخي (صحو) قد سافر إلى أمريكا وأعطاني
المفاتيح كي أؤجر الشقة الفارغة ولا أعرف في الحقيقة ماذا أفعل.
فتحت الباب كانت الشقة تتكون من ثلاث غرف وصالة وحمام.
قالت لها تسوغيك وهما يتجولان في الغرفة.
-أتمنى أن تعجبك.

التزمت حنين الصمت وبعد برهة قالت :

-ليس المهم أن تعجبني المهم أن أشعر بالأمان.

حلّ الصمت بينهما الذي قطعته حنين.

-أتعيرني مكنسة ودلو لأنظفها.

-بالطبع سأساعدك لكن بعد أن نتناول وجبة الفطور.

نزلنا الدرج وحين فتحت الباب وجدت (باتيل) جالسة في الصالة ذهبت إليها
(تسوغيك) سريعا وضمتها بين ذراعيها وأشارت إلى حنين

-C'est madame Hanine، notre nouvelle voisine

(هذه مدام حنين جارتنا الجديدة)

تحقق باتيل بالمرأة التي تنظر إليها بحنو التي قالت أمها أنها جارتهم الجديدة سلمت عليها
وقبلتها حنين وعادت سريعا إلى أمها تسألها :

-maman je n'arrive pas à prononcer son prénom c'est :A N I
N E?

(ماما لا أستطيع أن أُلْفِظ اسمها، هل هو أنين ؟)

ضحكت تسوغيك

-تقول إنها لا تستطيع أن تلفظ اسمك فبالفرنسية يصبح اسمك (أنين).

ضحكت حنين وسألت تسوغيك عن اسم ابنتها

-باتيل أي قطرات الثلج.

مسكت باتيل وجنة أمها وهي تشير إلى الطفل الواقف في أول الصالة بشعره الأشقر.

فتحت حنين له ذراعيها فجلس في حضنها.

كانت باتيل تنظر إليه وهي تختبئ في صدر أمها قالت لها تسوغيك :

- n'aie pas peur، demande lui comment il s'appelle en

arabe، répète après moi : ما ؟ اسمك :

(لا تخافي أسأليه بالعربية ما اسمه رددني معي : ما اسمك ؟)

أصبحت تسوغيك تعيد الجملة أمام صمت باتيل التي وقفت ووضعت يديها على خصرها وهي غاضبة

- **maman je t'ai dit mille fois que je ne comprends pas l'arabe**

(ماما قد قلت لك آلاف المرات إني لا افهم العربية)

قالت تسوغيك: وهي تضحك

-**je sais ça mais lui aussi، il ne comprend pas l'arabe**

(أعرف أنك لا تفهمين العربية وهو لا يفهم أيضا الفرنسية)

وشوشوت باتيل أمها

-**je vais essayer**

(سأحاول)

هزت تسوغيك رأسها موافقة

-**essaie**

(حاولي)

اقتربت باتيل منه وسألته بالفرنسية

-**comment tu t'appelles ?**

احمرّ وجه باتيل أمام ضحكه.

عادت إلى أمها غاضبة فقالت لها تسوغيك :

-je t'ai dit que tu dois apprendre l'arabe,regarde je vais lui
poser la meme question et il va me répondre.

(قلت لك تعلبي العربية انظري سأسأله أنا وسيجيبني.)

دعته تسوغيك ليأتي إليها وقبلته على خده

-ما اسمك ؟

-آلان.

قالت لحنين :

-الآن جاء دورك لتفسري لي معنى الأسماء.

أجابت حنين بصوت يملؤه الشغف وكأنها تذكرت أول مرة اختارت به الاسم.

-آلان اسم كردي يعني حامل راية النصر في مقدمة الجيش.

قالت تسوغيك: بالفرنسية لتغيظ باتيل : اسم جميل جدا.

سألت باتيل تسوغيك :

-comment il s'appelle ?

(ما اسمه ؟)

-juste celui qui parle l'arabe peut prononcer son prénom

(فقط من يتكلم العربية يستطيع لفظه.)

قالت باتيل بحدة وهي تبعد غرتها عن عينيها

- je vais demander à mon oncle Awedis de m'apprendre l'arabe
et pas toi

(سأطلب من خالي آوادييس أن يعلمني العربية وليس أنت)
قالت تسوغيك: وهي تهض عن الكنبه

-d'accord، le plus important c'est que tu l'apprennes

(ليس لدي مانع المهم أن تتعلميها.)

ثم قالت للجميع :

-هيا لنحضر الفطور.

سمعت تسوغيك صوت رسالة نصية من هاتفها ر تناولت الهاتف عن الثلاثه.
كانت هناك مكالمتين من ليفون فتحت الرسالة التي كانت منه أيضا بيدن مثلجتين
ذلك أن ليفون يكره كتابة الرسائل عكسها التي كانت تفضل أن تبوح بمشاعرها ورقا
وأدركت متأخرا أن تلك إحدى التفاصيل الصغيرة التي أعدت انفصاهما على نار
فراق هادئة.

(٦)

باريس ٢٠١١

كانا عاريتين على سرير الرغبة في بيت لا يتسع إلا لعاشقين، تبادلنا القبل الصباحية عن خمر اعتادا عليه فحين كان يضمها كان يضم حنينه لجسد امرأة أخرى.

وقد كانت (راشيل) تدرك ذلك فنذ أن اصطدمت به كان يجذبها إليه وفاء جسده الأبدي لتلك المرأة، كانت تشعر بصقيع داخلي كلما ضاجعها وقد كانت تنتشي بذلك وتشم رائحة تلك المرأة العالقة في جسده منذ أكثر من عشرين عاما وكأنها استطاعت أن تتغلب عليها وتطفيء غيرتها على سرير.

مسكت يده وبدأت تقبل أصابعه واحدا واحدا وكأنها كانت تعد عمره سنة بعد أخرى.

كانت تحب حين يأتي إليها كطفل ولا يجد إلا صدرها ليغرز به رأسه. حين وصل البارحة من مارسيليا اتصل بها وقد اعتادا أن يمارسا الحب في أيام الأسبوع لأنه يعود في عطلة نهاية الأسبوع إلى مارسيليا.

-راشيل تعالي الآن.

كانت الواحدة صباحا، عرفت أنه قد حدث معه أمر ما. ارتدت على عجل ثوبها الأسود التي اعتادت على ارتدائه طيلة حياتها حين وصلت لم يقل لها شيئا كان جالسا على الكنبه بثيابه.

قبلت فبه وهي تهمس له

-آوادييس ما بك ؟

كانت تناديه آوادييس لأنه يسهل لفظه بالفرنسية عكس اسمه (صحو)

نهض ومسك يدها واتجه الى السرير. ولأول مرة قد مارس معها الحب لساعات

قال لها ورأسها على صدره

-جديتي قد ماتت

-اه لهذا أتيت إلى باريس في عطلة نهاية الأسبوع.

قبلت يده بحنو ولم تستطع أن تقول شيئاً لأنها تعودت أن كل شيء يقال في وجود

الموت لا معنى له وأفضل طريقة هي تجنبه، فنهضت وارتدت الروب دو شومبر

لتواري جسدها ذو الأربعين حزناً فقد كانت تخاف أن تتعري في الضوء وبقي هو

عار على السرير إلا من الحنين فهو لا يحجل من خمسين خيبة ونصف.

وضعت له السيجارة في فمه وأشعلتها وأشعلت لنفسها واحدة ثم تناولت من على ظهر

البيانو مخطوط فيلمه الجديد وصارت تقرأ بصوت عال المشهد الأول.

كان يصغي إلى صوتها الرتيب الذي يعزي ذاكرته وشوقه لكنه دهش حين التفتت

إليه بعد أن انتهت من القراءة بالفرنسية بعدها نفثت نفساً طويلاً من سيجارتها. ثم

قالت :

-لا يمكن استبدال هذا البيت الحقيقي الموجود هنا ببيت ولد للتو ببيت لم يتألم بعد

ولم يكسب بالحنين، فذاكرة البيوت أصدق من ذاكرة الإنسان.

البيوت لا تخونها ذاكرتها ولا تصاب بمرض النسيان بعكس ذاكرة الإنسان التي تشبه ذاكرة القطارات التي لا تتذكر ركابها فهي تبدهم كل يوم بلا حنين، والفارق بين ذاكرة البيوت وذاكرة الانسان أنّ الأخيرة تؤلم صاحبها أكثر لأنّ الإنسان يملك الحرية بالتذكر أو لا، عكس ذاكرة البيوت التي تحتفظ بذاكرة سكانها بفعل الزمن وبدون أي رتوش عاطفية.

البيوت لا تكتب مذكراتها تولد وتكبر وتهرم مع سكانها لكنها لا تموت حين يموتون بل تستقبل أي زائر جديد بعد أن تروي له شبايبها وأبوابها ذاكرة الذين سكنوها قبله، فالوفاء سمة فطرية في البيوت. لهذا عليك أن تعود إلى بيتك الحقيقي الذي ما زال ينتظر عودتك.

في كل أفلامك السابقة كان بإمكانك أن تخون الذاكرة وتختار البيت الذي تشاء وتؤثته بكثير من الكذب وتسيع على الشخص رتوشك العاطفية، أما في هذا الفيلم فأنت تكتب ذاتك وتحدث عن بيت وأشخاص قد عاشوا خارج دائرة الكاميرا فلا تستطيع أن تخدع الذاكرة ببيت وهمي.

قاطعها :

-ولكنني أخاف من العودة إلى هناك.

-نحن لا نعتاد على الغربة فالوطن قد عاش في جميع تفاصيل أفلامك وكنت طيلة هذه الأعوام تتعاطى مخدرا للذاكرة حين تخرج فيلما ر ولكنك في الحقيقة كنت تعود خائبا وأنت تتنفس خارج الكاميرا وطنك الذي لم تشبع منه فنحن نمرض بالوطن

حين نصبح خارجه.

-كنت أتوارى طيلة حياتي بأدوار تخلقها يداي خلف الكاميرا فهناك أكون شجاعا فأبقي على قيد الحياة من أشياء وأنهي بلحظة حياة شخص ما ، أما أمام كاميرا الحياة فأشعر بالخوف دوما لأنني لا أستطيع التحكم بدوري القدري المشكلة ليس بالعودة بل بمواجهة الذاكرة عن قرب.

نهضت (راشيل) وبدأت بارتداء ثيابها وسألته :

-هل علمت (إيليك) (وتسوغيك) بخبر وفاة (آني) ؟

-لا ولا أدري كيف سأخبر (إيليك).

-مؤكد أنّ (ليفون) أخبرها

-لا لأنني لم أخبره كي يأتي إلى الجنازة.

-ربما أحد المعزين الذين يترددون إلى الكنيسة سيخبره

-فليكن فبالنهاية ستعلم الخبر

حين انتهت من ارتداء ثيابها قبلته سريعا على خده بينما كانت يدها تلاعب شعره

الكثيف.

-إذا أخذت قرارا اتصل بي كي أتصل مع صديقتي التي تعمل في فلسطين سأكون

في بيت الموسيقى.. سأفتح لك آلة التسجيل علّ (فيروز) التي تدمنها تُعيدك إلى حيث

ولدت.

شيّعها بابتسامة حزينة.

نهض بكسل روتيني وهو يحمل على كتفيه خمسين حنينا.. ارتدى بنطاله وقيصه بكثير من اللامبالاة.

ذهب إلى المطبخ وأشعل إبريق الماء الكهربائي وسخر من أن القهوة أصبحت تعدّ بمزاج كهربائي سريع.

صبّ القهوة بالفنجان المخصص لمزاجه الصباحي وقد نقل هذه العادة إلى تسويقها فإنا نعتاد الأشياء كما نعتاد الناس وربما اعتيادنا الأشياء أكثر تواطئا وحميمية.

جلس على الشرفة وأشعل سيجارة للتأمل...

يحدّق في الغرباء الذين يسرون تحت سماء باريسية، هؤلاء الذين لا يشبهون خطواته ولا أحد في هذا الحي الباريسي يصغي إلى (فيروز) ليلقي تحية على ذاكرته.

وقد علم تسويق أن تسمع لفيروز ليتواطئا معا كل صباح. يرشف صوتها فتتحول الكلمات إلى صور تبدّل المشهد الباريسي الذي ملّه كلما جلس على الشرفة.

رغم الزهر الي متلي الحقول / شو ما تحكي وتشرجلي وتقول / حبيبي ت نرجع لأ مش معقول / عندي سنونو وفي عندي قرميد / وبعرف شوي يعني أذا أنت بعيد.....

أي أمل ذلك الذي سيعيده بعد ست وثلاثين عاما إلى وطن يخاف العودة إليه فليست

القضية تذكرة طائرة وحجز مقعد والذهاب إلى المطار ففكرة العودة أعمق من ذلك فهي

أن تمسح الغبار المتراكم عن الذاكرة ويمرّ بهاله قول (كونديرا) : كي تقوم الذاكرة

بعملها جيدا تحتاج إلى تمرين دائم، وإذا لم تذكر الذكريات في نقاشات الأصدقاء

ستمضي حتما.

قد جاء إلى فرنسا وعمره أربعة عشرة عاما، وتعلّم في مدارس فرنسية لكن في داخله لم يقطع ذلك الجذر الذي يربطه بذلك المكان الذي قطع فيه حبله السري فالبلد الذي لم نولد فيه لا يعتبر موطننا لنا حتى لو مكثنا فيه سنوات وأصبح لنا بيت فيه وأصدقاء، ولم يكن له أصدقاء من نفس المكان كي تُمارس ذاكرته عملها بنشاط وتمتلي بوقود الحنين أو لم يكن له حقا سوى ذاكرة الست سنوات التي كانت كافية ليبقى يتشبث بمكان ما.

عليه أن يتدرب من جديد على التذكر وأن يمتليء بذاك الأمل الخائب كما في أغنية فيروز وهو الذي اعتاد على الحنين فإذا عاد إلى المكان الحقيقي فستنطفئ تلك الجذوة التي دفعته أن يقف خلف الكاميرا ليشتبع حرمانه من وطنه بوطن وهمي في فيلم لا يتعدى الساعتين، وقد تعثر وهو طالب في الجامعة بمقولة في بداية فيلم فرنسي التي كونت شخصيته كمخرج : الحياة تخيب أملنا إلى حد الاعتقاد أنّ السينما لا علاقة لها بها.

لا، لا يستطيع فعل ذلك حتى لو كذب على عدسته، هو الذي أسس عمره خلف عدسة كاميرة.

اتصل (براشيل) كي يعلن لها عدم موافقته.

فتح إيميله ليجد رسالة من (تسوغيك) كما عودها أن تكتب إليه كل خميس رسالة بالعربية.

لم تستطع (تسوغيك) أن تخفي ارتباكها حين وجدت (إيليك) أمامها حين سألتها:
 -هل اتصل بك (آواديس) فهو لا يجيبني وهاتف الممرضة مغلق.
 -أمي... جدتي قد ماتت قبل يومين وقد بعث لي ليفون رسالة اليوم (فصحو) لم يخبره
 كي لا ينقل لنا الخبر وقد عرف من إحدى الجارات التي تتردد على الكنيسة.
 ذهبت (إيليك) إلى غرفتها ولحقها تسوغيك تاركة حنين بدون أن تفسر لها شيئاً.
 جلست (إيليك) على السرير
 -منذ يومين أي التاريخ الذي حددته لموعد موتها وأنا لم أصدقها.
 -أمي.....

-ولماذا لم يخبرني آواديس حتى أنه لم يخبر ليفون ؟
 انهارت إيليك بالبكاء
 -ماتت وهي غاضبة مني ومؤكد أنها لم ترغب برؤيتي.
 -أمي ربما لم يخبرك آواديس كي يخفف من ألمك ولا تحملين نفسك عبء موتها.
 -وحين لا أراها لآخر مرة سأسامح نفسي بهذه الطريقة ؟ أنت من جاء بي إلى هنا
 فلولاك ما تركتها
 قالت لها تسوغيك غاضبة :

-ولماذا تحمليني هذا الذنب لماذا لم تبقي بجوارها ؟ كان بمقدوري أن آتي إلى هنا
 بمفردي فلطالما كنت ابنتها المطيعة في كل شيء حتى حين زوجتني بليفون.
 قالت تسوغيك: غاضبة وهي خارجة من الغرفة :

-يمكنك الذهاب إليها الآن.

حين دخلت المطبخ كانت حنين تطعم الطفلين.. أصبحت تفتح الخزائن بغضب
أحضرت الدلو والمكنسة
قالت لحنين :

-هيا ننظف الشقة

لم تقل حنين شيئاً ولم تسألها عن شيء..

فتحت (تسوغيك) التلفاز للطفلين.

توقفت حنين عن التنظيف وقالت لتسوغيك التي كانت تفرغ غضبها وهي تسحب
الماء عن الأرض

-آسفة لأنني قد تسببت في خلق مشكلة بينك وبينك أمك

جلست (تسوغيك) على الأرض المبيلة وبدأت بالبكاء

جلست (حنين) بجوارها.

قالت تسوغيك: وهي تمسح دموعها :

-الأمر لا يتعلق بك، جدتي قد توفيت قبل يومين وأخي (صحو) لم يخبرنا بذلك وأمي
تجملني ذنب مجيئها إلى هنا وتركها لجدتي التي حددت موعد موتها ولكن لم يصدقها
أحد منا.

وأمام دهشة حنين كانت (باتيل) تنادي على (تسوغيك)

-viens

(تعالى)

جاءت باتيل ويدها هاتف أمها
قالت وهي تبعد شعرها عن عينيها

-mon oncle t'a téléphoné

(خالى قد اتصل بك)

أخذت تسوغيك الهاتف سريعا من يد باتيل حين سمعت أن صحو قد اتصل بها.
ذهبت تسوغيك إلى الغرفة المجاورة ولحقتها باتيل.
فتحت برنامج السكايب وبحث عن اسم صحو، حين رأت وجهه على الشاشة عادت
للبيكاء مجدداً.

قال صحو: الذي ما زال جالسا على الشرفة.

-قد اتصل بي ليفون وأخبرني أنه قد أعلمك بموت (آني)

-ولكن لماذا لم تخبرني بموتها ؟

-لأنها أوصت الممرضة بأن لا تحضر (إيليك) جنازتها وكنت أوقن أنها لو علمت
ستعود إلى فرنسا ولن تبقى معك.

-إنها تحملني سبب مجيئها إلى هنا.

كانت (باتيل) تلعب بشعر تسوغيك.. صرخت تسوغيك بوجهها.

-arrete de faire ça !

(كفي باتيل عن فعل ذلك.)

فقال باتيل بحدة

-tu parles en arabe et je ne comprends rien

(إنك تتكلمين بالعربية ولا أفهم شيئاً)

-mademoiselle Batile، est-ce que je dois t'expliquer chaque mot quand on parle en arabe ?!

(وهل يتوجب عليّ أن أفسر لك كل كلمة أقولها حين نتكلم بالعربية مادموزيل باتيل؟)
قالت باتيل بثقة

-pourquoi pas، c'est une bonne idée.je veux parler avec mon oncle

(لم لا. إنها فكرة جيدة، أريد التحدث مع خالي)
ابتسم صحو وطلب من تسوغيك أن تعطي الهاتف لباتيل
قرصتها تسوغيك :
-خذي !.

قالت باتيل برهوه مما أثار ضحك صحو وتسوغيك

-d'accord

حسنًا

حين أخذت الهاتف حياها صحو :

-coucou

(مرحبا)

بدأت باتيل بالضحك

-pourquoi tu ris ?

(لماذا تضحكين ؟)

قالها وهو يتصنع الغضب.

قالت باتيل :

-parce que tu ressembles au père Noël

(لأنك تشبه بابا نويل)

-oui، j'aime ça

(أحب أن أشبهه)

-awedis، tu m'a dit que papa Noël va prendre l'avion pour
venir chez moi

(آواديس قد قلت لي أن بابا نويل سيركب الطائرة ليأتي إلي)

-surement

(بالطبع)

قالت تسوغيك: هازئة :

- كم أنت كاذب ستجن باتيل بسببك.

- قد قرأت رسالتك إنك الآن تجيدن العربية، لا تقلقي بشأن (إيليك) سأتكلم معها..ربما سأذهب باجازه إلى إيطاليا عند صديقي (أدامو).

-حقاً.. أما زال يصنع الساجتي بنكهته الخاصة...ممم أريد طبقاً ضحك صحو ثم قال لها

-سأبعث لك واحدا لكن لا تقطعي عني رسالتك

وبعث لها قبلة.

أغلقت تسوغيك الهاتف ووجدت أنّ حنين قد أنهت تنظيف البيت

قالت حنين :

-يلزمي فقط بعض الأثاث.

قالت تسوغيك: :

-نستطيع أن نذهب إلى السوق مع أي لا أعرف المكان كثيراً لا تقلقي سنسأل التاكسي

قالت حنين :

-شكراً على كل شيء

ابتسمت تسوغيك بدون أن تقول شيئاً

حين نزلت كان (الآن) ما زال يتفرج على التلفاز. طرقت باب الغرفة ثم فتحت الباب لتجد (إيليك) ممدّة على الأرض.

(٧)

باريس ٢٠١١

فتح (صحو) حقيبته الصغيرة وأخذ الكتاب الذي أعطاه إياه الصحفي الشاب.
على الصفحة الخلفية كلمة للناشر: راهبة تجاوزت الخمسين لم تفصح عن هويتها تعترف
لأول مرة بمحادثة عاطفية وقد أرادت أن يكون الورق هو الشاهد الوحيد على
اعترافاتها.

يتأمل العنوان (كأني عشت) يتسائل ما الذي يجعل هذه الراهبة تفضح نفسها بعد
كل هذه السنين ؟!!!!

هل الورقة تكفير عن أخطائنا حين نقرأها جميع العيون ؟
حين بدأ بالقراءة شدّه الكتاب من الجملة الأولى التي ظلت عالقة بذهنه وقد بدأ شريط
عمره منذ الصفحة الأولى أو الجملة الأولى، فبعض الكتب انعكاس لحياتنا وتجعلنا
نرى أنفسنا بوضوح.

دوّن الجملة الأولى في دفتره الصغير :
أردت أن أكتب قبل أن أنسى لأنّ الرب لا ينسى إلا حين نكفر عن خطايانا
وأردت أن أكفر عن خطيئتي بورقة.

رن هاتفه :

-آلو المخرج صحو ؟

-نعم

-أنا الصحفي عمار الذي التقيت بك في الطائرة.

-آه تذكرتك.

-بقي لي يوم هنا فقط وسأعود إلى الأردن. هل نستطيع أن نجري الحوار اليوم ؟

-هل يناسبك في الرابعة مساء ؟

-نعم

-أعطني عنوان الأوتيل وسأتي لأصطحبك إلى مقهى.. إلى اللقاء..

يضع صحو شاله الصوفي على رقبته الذي صنعته جدته (آني) بيديها.

كان (عمار) بانتظاره أمام باب الفندق.

قال عمار: حين جلس في السيارة ليدد الصمت الذي يأتي عادة بعد التحية :

-الطقس بارد هنا.

قال صحو: بدون أن ينظر إليه

-في هذه المدينة الطقس ليس له معنى، دائماً هو غائم ورمادي كوجوه المارين الذين

لا يبذرون وقتهم ولكنهم يبذرون الحب في كل مكان. طقس الحب هو الطقس

الوحيد الذي لا يغادر هذه المدينة.

وحين قال هذه الجملة التفت إليه وابتسم.

-قد وصلنا. دائماً أخيء يتي خلف زجاج هذا المقهى.

ينظر إليه عمار وهو يسير بخطى ثابتة ودقيقة تتناسب مع إيقاع هذه المدينة.

أجابه (عمار) وهما يسيران :

-اليتم في النهاية ليس إلا حالة فردية لا شأن للآخرين بها، فاليتمى يشبهون الثياب الباذخة المعروضة في واجهات المحلات. ينظر إليها الجميع بشغف بدون أن يقتنوها واليتامى كذلك يغرون الناس بمظهرهم ولكنهم لا يقتربون منهم، فالجمال بقدر ما هو فاتن فهو مخيف أيضا.

حين جلسا على الطاولة وطلب (صحو) فتجاني قهوة...علق على كلام عمار :

-إنك تتحدث عن اليتم وكأنك عشته.

-ليس بالضرورة أن أعيشه كي أتحدث عنه، يكفي أن أكون صحفيا لأتذوق طعمه من خلال الأشخاص الذين ألتقي بهم، واليتامى متشابهون إذ ييكون لذات السبب ويأكلون الطعام نفسه ويستيقظون في الساعة نفسها وينامون في الساعة نفسها ويرتبون أسرّتهم بالطريقة نفسها ويقرؤون الكتب نفسها ويأتون بلا أسماء.

يبتسم (صحو).

-إنك محق لهذا قد أجبرتني جدتي على أن أدرس في البداية التمريض حين أعلنت لها عن رغبتى بدراسة الإخراج. قالت لي عليك أن تختار شيئا يجعلك قريبا من الناس تلمس جراحتهم، لا أنكر دور الفن في ذلك لكن أن تخلص طفلا من ألم ما، أجمل من أن تمثل هذا الألم أمام الكاميرا.

-ربما لأني فلسطيني أتحدث عن اليتم وكأنني عشته. حين كبرت تملكنتي الرغبة بأن أدرس الصحافة كي ألمس وجع اللاجئين، فهم يتامى بشكل ما والذين يناقشون قضيتهم

لا يرسم على وجوههم سوى تعبير عن الأسى فليس بمقدور أحد أن يعيش نهار طفل يتيم أو طفل يعيش في خيمة.

إن قضيتهم هي وجبة زائدة عن الطبق الرئيسي لقضايا الآخرين.

غدا سينتهي المؤتمر وسيبقى أطفال الخيام في الخيام وكل اليتامى سيلعبون ذات الدور. أحضر النادل القهوة.

سأله عمار :

-أبدأت بقراءة الكتاب ؟

-بالطبع وأتمنى أن تعثر عليها وتجري معها حوارا.

حين انتهى الحوار أوصله (صحو) إلى الفندق وقال له :

-قد سعدت بلقاءك، أرسل لي الحوار علي الإيميل حين تنشره في الجريدة.

-بالطبع وأظن أنه من أجمل الحوارات التي يمتناه أي طالب صحفي.

صاحفه (صحو)

-شكراً...

حين عادت (راشيل) مساء، كان (صحو) جالسا بجانب المدفأة.

طبعت قبلة على خده :

-هل خرجت من البيت ؟

-ذهبت للقاء شاب فلسطيني يدرس في الأردن.

بينما كانت تبدل ثيابها ، قالت له بفرح :

-لماذا لا تريد العودة ؟

قال لها بلا اكتراث وهو ينكمش على الكنبه ويقترب من المدفأة :

-لماذا علي ان أعود فأنا أبحث فقط عن (سما) فهي بيتي ووطني.

وقفت عارية أمامه تعرض له جسدها الأربعيني الحزين.

-عشرون سنة ولم أستطع أن أنسيك إياها، ربما هي الآن في مقبرة وحيدة وتنتظر

خميس الأموات لتضع الزهور على قبرها.

وقف غاضبا :

-لا أستطيع تقبل موتها.

-إنها تشعرني بالغيرة بغيابها، والغيرة من الأموات هي أصعب أنواع الغيرة لأننا لا

نستطيع أن نطفأها.

قبلها بهم، كان جسده يخرس غيرتها ويبقى جسده باردا كالموتى بانتظار جسد امرأة

أخرى.

جلست على السرير بعد أن وضعت غطاء على جسدها ثم ضمته إلى صدرها.

-لا يمكننا الكذب على أجسادنا فإنها تتسم بالصدق. منذ عشرين سنة وأنت تضاجع

بجسدي جسد امرأة أخرى. إني أحب وفاؤك لها وخيانتك لي في نفس اللحظة.

وضع يده على فها وبه رغبة بالبكاء

-راشيل.....

داعبت بيدها وجهه التي بدأت التجاعيد تكتب مذكراته عليه.

-أحبك حتى بتجاعيدك.

ناما على السرير. قبل يدها.

-التجاعيد هي سيرتنا الذاتية وحياتنا السرية التي نخفيها عن الآخرين، هي الأحلام

التي عجزنا عن لمسها، هي الحب الاول الذي ملّ انتظارنا ومواعيدنا المؤجلة.

-أعرف جيدا أنّ حبك لي مشروع فراق، وفراقها الحتمي مشروع وفاء لن ينتهي.

وكي تجدها عليك أن تبدأ الفيلم من أول مشهد، من ذلك البيت الذي ولدت فيه

واتكأت على ياسمينه حيث هناك اختاروا لك اسمك...

-لأول مرة اكتب فيلما لا أعرف نهايته.

-لأنك خائف أن لا تجدها، فقد كان بوسعك أن تميتها ولكن الحياة أكثر غموضا

وتشويقا وستلعب معك لعبة الغمضة فحين تجدها ستضع النهاية لفيلمك.

داعب شعرها النائم على كتفيه.

-أتذكرين أول مرة التقينا فيها ؟

-وكيف سأنسى ذلك، في جنازة (سعيد).

-قد نجا من الحرب في لبنان فمات هنا بميتة عادية كباقي الناس وهو في الرابعة والعشرين

من عمره..

قالت راشيل :

-أتذكر حين جاء إلى باريس كانت حقائبه محملة بنوتات موسيقاه، وبقبر لبيانو مكسور

في بيته في لبنان. وقد اعتدت على مزاج أصابعه وحين جاء ليسجل في قسم الموسيقى كان حزينا فلم تستطع أصابعه أن تتعود سريعا على بيانو آخر.

- كان يحفظ القرآن، وهو من كان يعطيني أشرطة عليها تسجيل للقرآن والتي كانت جدتي تعجب بأصوات القراء. كان سعيد ردّا على ما يحدث الآن في فرنسا من إرهاب بأنّ المسلم يحب الحياة ويحب الله أيضا.

أتذكرين جنازته كنت يوما ترتدين السواد وكنت سيدة الإغراء الوحيدة في المقبرة. اقتربت مني بعد أن فرغت المقبرة وقالت لي : الذين يقفون أمام قبر بعد أن يذهب الجميع مؤكّد أن هذا القبر يعني لهم الكثير ولا يختصر بجنازة.

فسألتكِ : هل هذا القبر يعني لك الكثير ؟

تململت (راشيل) في الفراش لتحسن التذكر :

-أجبتكِ : سأشتاق إلى أصابعه حين كانت تداعب البيانو , كان يتعامل معه كأنه جسد امرأة، لكنه لم يحدثني عنك من قبل.

-قلت لك يوما بأنه لا يجب أن يتقاسم أشياءه مع أحد.

-سألتكِ : وهل أنت مجرد شيء بالنسبة له ؟

-فأجبتكِ : كان يسعدني أن يحبني كما يحب لبيانو فبذلك أضمن وفاءه لي.

-دعوتكِ بعدها للذهاب إلى حانة.

التفت (صحو) إليها وبدأ يداعب شعرها

- كانت دعوتكِ هي الخطوة الأولى لفهم مزاج هذه المدينة ومزاجك أيضا، فعلى

الأموات أن يكملوا حياتهم وعلى الأحياء أن يفعلوا الشيء ذاته بأن يصير الحزن لديهم عادة يومية حين يفرحون وحين يمارسون الحب ويشربون الخمر.

قالت (راشيل) بنبرة وهي تنظر بالفراغ :

- كانت تلك الحانة التي أعمل بها، لم أجلس معك على الطاولة بل همست في أذنك : سنستعيد معا ذكرى (سعيد).

جلستُ أمام البيانو في زاوية الحانة واخترت أغنية قد كتبها (سعيد) قبل أن يموت بأسبوع.

والتقينا تحت هذه السماء الحزينة

تلتهمنا الأرصفة والقطارات السريعة

كنا غريبين بلا أسماء

كيتيمين في زاوية ملجأ

كانت تجرنا عربات الوقت والانتظار

كنا شاجين كتذكرو مترو مهترئة

في هذه المدينة

كنا نموت بفرح

مع زينة عيد الميلاد

ومع المعاطف الفاخرة

خلف واجهات المحلات

نموت ببطء

بلا وطن

سوى عش صغير

يجمع قلبينا

على غصن حب مكسور.

-و حين انتهيت جئت إلي، كنتُ ثملاً بحزني وعرفت لماذا جئت بي إلى حانة لأتذكر
حزني دوماً، فكلمنا كلاً باذخين بالفرح اعترفنا بسطوة حدادنا. دعوتك يومها إلى بيتي
وقلتُ لك أنني لم أضاجع سوى فتاة واحدة كنت يومها في العشرين.
-قلتُ لك : ضاجعني بحزن هذا يكفي لصبية مثلي.

-وسألتك ونحن عاريين من الفرحة : لماذا تعملين في هذه الحانة مع أنك تحترفين
العزف؟

-قلت لك بنجل وأنت تفك أزرار قميصي : كي أبقى على قيد الحياة، فقد توفي والدي
السنة الماضية وبقيت أنا وأمي وجدي لديه مطعم صغير في إيطاليا والمال الذي يبعثه
لي لا يغطي جميع احتياجاتي.
-أستطيع مساعدتك.

-ستساعدني فقط لأنني كنت قريبة من (سعيد) أم لأجل جسدي ؟
-لأنك أنت أنت وقد كنت ودية له بقبره. أليس لديك صديق ؟
-كان لدي عشيق إيطالي... أحبيته حد الادمان...

كان يحترف الرسم وقد قرر الانتحار فجأة.

-قبلتكِ يوماً بشدة.

قالت له راشيل ورأسيهما تحت الغطاء بعد وضعته كاملاً على جسديهما.

-كم أدمنك!!

-لا أعرف لماذا أشعر دوماً أنني لن أموت ميتة عادية كأن أجرب الطيران بجناحين

من ورق وأسقط وأموت

ضحكت راشيل من قلبها.

-أفضل من أن تموت في بيت العجزة.

قال صحو: :

سأذهب في اجازة إلى إيطاليا عند صديقي أدامو

-مؤكد أن جدي أدامو سيفرح بقدمك...إنك كالثور لم تنفع حيلي لا قناعك بالذهاب

إلى حيفا

ضحكا وناما متعانقين وهو يفكر بحنينه الأبدي.

استيقظ (صحو) مبكراً، ارتدى ثيابه وخرج.

تعود وهو يسير أن لا يحدّق في وجوه الغرباء التي لا تظهر مشاعرهما. وضع سماعات

الهاتف في أذنيه، كان البرد يدخل في الشال الصوفي الذي كان يلفه حول رقبته وفي

الطاقة الصوف كان يشبه في عمره الخمسين طالب مدرسة يشعر بمتعة صباحية وهو

يسير ببطء حاملاً أحلامه وحبه الأول في حقيقته.

كان (Gilbert Becaud) يعبر بصوته كل ذاكرته فيغدو قلبه ناراً في كل هذا البرد الذي يثلج أصابعه بأغنيته 'Et maintenant que vais-je faire وماذا سأفعل الآن ؟

والآن ماذا أفعل

بكل هذا الوقت الذي سيكون حياتي

بكل هؤلاء الذين لا أبالي بوجودهم

الآن وقد رحلت ؟!!

يركب (صحو) التاكسي بعد أن سار لأكثر من ساعة وقد عشش البرد في جسده.
-أريد الذهاب الى المقبرة.

دهش السائق وقال له بفضول غير اعتيادي في هذه المدينة

-ولكن يا سيدي ليس هذا هو اليوم المخصص للأموات.

فأجابه دون أن يلتفت اليه :

- الأموات بانتظارنا في كل لحظة.

دخل المقبرة وقف أمام قبر (سعيد) وقرأ الفاتحة في مكان يثرثر فيه معظم الأموات بالفرنسية ومؤكد أنه أثار دهشتهم ودهشة (سعيد) ولكنه يعتقد أنّ جميع الصلوات تصل إلى الله الذي يجمعها في صلاة واحدة عكس البشر فدورنا نحن أن نصلي لا أن نفسر الصلاة فتلك شؤون سماوية.

تحدث (صحو) معه بصوت منخفض كي لا يزعج القبور الأخرى.
 حين سأعود يوما ستبقى أنت في مكانك فلا يوجد تذكرة للقبور كي تسافر وكي تستقر
 في بلد آخر، وربما أنت الآن أفضل مني لأنك تخلصت حيث أنت من الذاكرة، ومن
 الإنتماء لمكان ما وليت ما ولشخص ما.
 ولكن (سعيد) لم يستوقفه ليقول له شيئا فالأموات يخفضون أصواتهم أكثر مما يجب.

(٨)

أربد ٢٠١١

الكتابة تخيفني إنها نوع من الحب لذلك أخاف منها.
ترتعث يداي منذ أن طلب مني الطبيب أن أبدأ بالكتابة حين قال لي اكتب كي لا تنسي.

لم يأمرني أحد من قبل بالكتابة كنت أمارسها بكامل إرادتي، ألجأ إليها كي أتخلص من آلامي وهواجسي كراهقة تتألم من حبها الأول فتكتب مذكراتها كي يخفف الورق آلامها.

أما الآن وأنا قابعة في هذا السرير، جاءت الممرضة وأهدتني دفترا عاديا لا يغري بشيء فطلبت منها أن تأخذني إلى المكتبة القريبة من المستشفى فأعود فجأة طفلة يدهشها منظر الدفاتر بألوانها المختلفة.

ينظر البائع إلى شعري الأبيض ويضحك سرا، كان يحرق بملاحى الطفولية ويده تضعان أمامي جميع أنواع الدفاتر والأقلام فغرقت بسحر الألوان وعدت طفلة صغيرة تدهشها الأشياء الصغيرة.

كانت الشمس تميل إلى الغروب على ما أظن وقد كانت الساعة تعلن لجميع الناس في أربد أنها الخامسة مساء.

كانت الممرضة رنيم تمسك بيدي، طلبت منها أن تأخذني إلى الحديقة.

منذ أن تجاوزت الخمسين أصبح الوقت بالنسبة لي هو المعنى الآخر للتنفس.
 الخمسون ذلك العمر الذي عدت به طفلة بكامل تكويني الجسدي، أسرح شعري
 الأبيض كالفتيات وأفرقه من المنتصف وأضع ملقط شعر صغير.
 جلسنا على مقعد، كنت أرتمي ثياب الراهبة فهو ثوبي الوحيد بعد أن ارتديت الرب.
 أنفَس بعمق الهواء البارد، وأصغي إلى ضجيج المارة وأخبئه في أذني قبل أن أعود إلى
 الصمت القابع في بيت الراهبات.
 تلعب أصابعي بالبطاقة المعلقة على صدري التي كتب عليها اسمي ومكان إقامتي فحين
 أنسى نفسي يتذكرني الغرباء ويعيدونني إلي.
 أسأل الممرضة (رنيم) :

-لماذا نحن هنا ؟

-أنت من طلبت ذلك حين خرجنا من المكتبة واشترينا دفترا.

-إني أشعر بالبرد فلنعد.

جلست في السرير وأخرجت الدفتر وكتبت عليه اسمي (سما) بخط كبير ووضعت
 بجانب الكتاب الذي قالت لي الممرضة (رنيم) سرا بأنه كتابي وعليه اسم مستعار.
 ألمس بأصابعي الكتاب ووجه الراهبة التي تنظر إلى الخلف فلا يظهر وجهها.
 أخرج دفترا قديما وبدأت بنسخ ما به في دفتري الجديد.
 البارحة ماتت أخت لنا ، ولأننا نعرف جميعا في هذا البيت أننا ننتظر دورنا في الموت
 لهذا ذهبنا جميعا إلى صانع التوايت كي يكون كل شيء معدّا لهذا اليوم السماوي.

ماتت (جوليت) ولم تنتهي يداها من الكنزة الصوفية التي صنعتها لابنها الذي استشهد في الحرب الأهلية، ونسيت أنه مات وأظن أنها في التسعين قد أحبت ذلك المرض الذي يجعلها تنسى أن من تحبهم قد ماتوا وقد توارى ألم فقدانهم في جارور الذاكرة. وكانت تنسى حتى ابنتها التي كانت تزورها.

أنا في الحقيقة لا أتذكر هذه المشاهد التي حدثت قبل يومين بل اتخذت العادة كما قال لي الطبيب بأن أكتب كل ما يحدث أمامي وحين أقرأه مرة أخرى كأني أقرأ أحداثاً حصلت لامرأة أخرى.

وقد استبدلت الصنارة التي تقتل بها الراهبات الوقت والذاكرة بتدوين يوميات أعرف مسبقاً أنني سأنساها.

كانت (جوليت) أكبر سناً وهذا يعني أكبرنا ألماً ونسياناً، فحين علمت باسم مرضها الذي يسمى (الزهايمر) ضحكت فقد أحبت أن تتذكر طفولتها والناس الذين كانوا حولها أكثر من أن تتذكر تفاصيل يوم رتيبة وهي جالسة على ذات السرير تصنع ثياباً من الصوف لأشخاص وهميين.

حين تكّأ نذهب كما في كل مساء إلى الكنيسة كانت الممرضة تأمرنا أن نسير على شكل طابور أما اللواتي لا يستطعن الحركة فقد كانت الراهبة الأم تذهب إليهن في الليل. كانت (جوليت) تضحك في كل مرة نقف فيها بالطابور، كانت تتوقف عن السير وتصرخ :

(يعني وحياة العدرالي يشوفنا ماشيين هيك.. ما بيفتكر إنا رايمين نصلي.. بيفتكر إنا رايمين ع الحرب.)

كانت تتوجه بجدتها إلى الممرضة ريم : (دخلك وين السلاح ؟ هلا بيوصلوا ويمحطوكي بالحبس. انا أبي كان ينجي سلاحو تحت المخدي. كنت مفتكرة إنو بابا نويل يجبلو هدية متلنا.. تاري بابا نويل هوي جارنا أبو أسعد... يلا خيلنا نجعل قبل ما يقصفو البيت.)

كانت ذاكرة (جوليت) تقف عند مشاهدة الحرب الأهلية بكامل خرابها فالحرب تبقى في الذاكرة كأكفوس لا يمل من الحركة، ولا تذكر إلا حين جاءت من لبنان إلى اربد هربا من الحرب.

كما نضحك ألما فهي الوحيدة التي كانت تجعلنا نهضم الألم حين نصاب بعسر الفرح. وحين كما ندخل الكنيسة كانت تجلس بقربي لأني لا أملك من تكرار أسئلتها وأجيبها مرات عدة على نفس السؤال.

كانت تنظر إلى الراهبة الأم وتهمس لي : (دخلك ليش هيدي بتضل تعيد أبانا أبانا طول الوقت... أنا أبي مات من زمان... وليش بس هي واقفة هنك أمام الصليب.. أنا بدّي روح مطرحها.. وصلي للعدرا.. هي دايمًا بتيجي حدّي لما ينام الكل.. ومنصير نضحك.... هي بتجني كتير لأن ابني راح من بين ايدي مثلا)

كانت الراهبة الأم تسمح لها بأن ترتل فقد كان صوتها يملأ المكان خشوعاً، وكما نردد وراءها.

يا مريم أنتي أمي	جيتي من السما هدية
جيتي تشيلي همي	وتحي كل الخطية
يا أمي لا تنسيني	قلبي ما يحمل أسية
يا أمي ويا أم الكل	ضوي العتمة إلي في

كانت تحفظ تلك الترتيلة لكثرة تكرارها لها.

قبل أن تموت بيوم جاءت إلى سريري.. خلعت سلسلة العذراء والبستني إياها وقالت لي : (سما... قومي بدّي أعطيكي صورة العذرات ما تبقي وحيدي لما فل.)

قبل أن نذهب إلى الكنيسة دوّنت تاريخ موتها كي لا أباغت بنزلة نسيان، وقد اشترت لنا الراهبة الأم أكاليل زهور.

كانت المقبرة صامتة وكنا ننتظر جميعا ضحكات (جوليت) النائمة في التابوت كي نبدد هذا المشهد الصامت.

وضعنا الأكاليل الفاخرة على قبرها وعدنا إلى الطابور. انتظرت قليلا فقد افتقدت إلى يدها حين كانت تمسك بيدي كي لا تضيع والآن أنا الخائفة والوحيدة بدونها.

حدقتُ في وجه العذراء الحزين، وأكملت السير مخلفة ضحكات (جوليت) في هذا المكان الصامت.

توقفت إحداهن وسألت :

-لماذا نحن هنا ؟

أخفضنا رؤوسنا فجميعنا بعد أيام سننسى أننا جئنا إلى هنا.
حين عدنا كانت الممرضة تلم أغراض جوليت قلت لها أنني أريد الاحتفاظ بها
وجدت ورقة كانت قد كتبتها لابنتها ولم تذكر التاريخ.

ابنتي العزيزة...

حين أنظر في عينيك حين تأتين لزيارتي أتألم لأني لا أتذكرك، ولكني لا أستطيع فعل
شيء لتلك الممحة التي تأكل كل شيء في رأسي.
أتعرفين معنى أن تصبحي عبئا على كل أحد، أن تحتاجي لشخص يلازمك في كل
دقيقة حين تذهبين إلى الحمام وحين تنظفين أسنانك، حين تتحدثين، وحين تأكلين حتى
حين تريدن أن تتذكري.

قد تعبْتُ مني.

أريد أن أموت.

(٩)

اربذ ٢٠١١

قال الطيب (لتسويك) :

-إنّ على (إيليك) أن تبقى في الفراش لترتاح فقد تعرضت لضغوط نفسية وحاولي أن

تبقى بجانبها.. ماذا تعمل والدتك ؟

-دكتورة في الجامعة في فرنسا متخصصة بتاريخ الحضارات.

قالت إيليك: وهي في الفراش :

-وخصوصا تاريخ الأرمن

قالت حنين بدهشة لتسويك

-إنها تتكلم العربية !!!!

ضحكت تسويك :

-لم أجد كذبة أخرى أقولها لك في أول لقاء لنا أمام جمود أمي، فاضطرت أن أكذب

وأقول لك إنها لا تجيد العربية رهي هكذا دوما مع الغرباء حيادية. إنها تتحدث العربية

على الطريقة الأرمنية فتقلب المذكر مؤنثا والمؤنث مذكرا.

حين خرج الطيب، كانت الساعة العاشرة ليلا. بعد أن وضعت (حنين) الطفلين في

فراشهما، صنعت ثلاثة فناجين نسكافيه وعادت إلى الغرفة.

قالت (إيليك) ل (حنين) وهي متمددة على السرير :

-آسفة يا ابنتي لأني لم أرحب بك في أول يوم جئت به إلينا.
 -لا تتأسفي يا خالتي أنا من تطفلت عليكم إنك تتحدثين العربية بطريقة مضحكة.
 ضحكنا جميعا ثم قالت (إيليك)...

-نديم من علمني العربية ولكني لم أستطع من أن أنخلص من تأثير الأرمينية.
 قالت تسوغيك: :

-نديم هو والدي.

قالت تسوغيك: :

-قد اتصل بريفير

ابتسمت إيليك

-لماذا لم توقظيني ؟

-لن يهرب عشيقك.

ضحكت إيليك

-بلى.

حين نامت (إيليك) من أثر المهديء، أطفأت تسوغيك النور وجلست هي وحنين في
 المطبخ.

قالت (تسوغيك) :

-قد أحب أبي (نديم) أمي كثيرا لكن جدتي (آني) من فرق حبهما لأن أبي مسلم
 ولأن جدتي أرادت أن تزوجها من أرمني كما فعلت بي، والآن لها عشيق اسمه بريفير.

-وأين زوجك ؟

-ليفون إنه غبي.

ضحكت حنين :

-لماذا ؟

-إنه يشبه الأطفال المجتهدون والذين يسمعون كلام آبائهم بالضبط ولكثرة برائته تحسبينه أبله. أتعلمين أنه حين يتكلم مع (باتيل) على السكايب يحدثها عن تاريخ الأرمن، وحين جئت إلى هنا وقد طلبت الطلاق قال لي أنّ ما يجمعه الله لا يفرقه إنسان، وأنا كآ جسدتين وأصبحنا واحدا حين تزوجنا.إنه يحفظ الكتاب المقدس كلمة بكلمة، وطلب أن نعطي أنفسنا وقتا كافيا لكني مصممة على الطلاق.

وَأنتِ أين زوجك ؟

صمتت (حنين) لتبدد ضحكها ولتعيد الحزن إلى مكانه الطبيعي في قلبها.

-قد قتل في حلب قبل شهرين.

صمتت (تسوغيك) لحظات باحثة عن خيط فرح.

-أعتقد أنه كان يعني لك الكثير.

-كان كل شيء في حياتي ربما تكون هذه الجملة مكررة ويردها جميع العشاق. أتعلمين

أنه لم يقل لي يوما أنه يحبني لكني كنت أحس في كل لحظة بحبه لي. لم يصرخ يوما

بوجهي وحين يغضب كان يدخل إلى الغرفة ويبقى صامتا. كان يعمل بالبناء ولا

يرجع إلا مساء وبرغم قلة المال الذي لدينا لم يسمح لي بالعمل.

حين مات لم يبق لي أحد فأبي قد تزوج من امرأة أخرى لأن أُمي لم تنجب سواي،
 وحين توفي أبي لم يعترف بي أحد من إخوتي وبعد سنة توفيت أُمي وتزوجني (سليم)
 وأصبح كل شيء في حياتي.

نهضت (حنين) ..

-تصبحين على خير

-متأسفة لأنني جعلتك تتحدثين عن آلامك.

ابتسمت حنين دون أن تقول شيئاً، حملت (آلان) بين ذراعيها وصعدت الدرج.

استيقظ (آلان) حين وضعته في السرير وبدأ بالبكاء والسعال بشكل متقطع.

اقتربت منه (حنين) وداعبت خده بأنفها وهي تهمس له :

-تعال ننظر إلى المطر كما كنا نفعل في بيتنا في حلب ونغني.

فتحت حنين الستارة واتكأت مع آلان على حفة الشباك.

صارت تغني له وهو ينظر إلى المطر الذي يدق على النافذة بلا ملل.

دق الشقيع الشباك

فتحنالو وقلنالو شوبك

فات بإيدو كمشة مي

طرطشنا بالمى شوي

تركنا وسكرنا الشباك.....

-هيا يا آلان فلنغني معا : دق الشقي ع الشباك

-ماما

-نعم يا فستقة قلبي.

ضحك آلان

-قلبك يشبه الفستق ؟

-آلان...

بأسته على خده.

-من يصنع للعصافير شالها كما في الأغنية ؟

-أهمهم العصفورة.

-ألديها صنارة مثلك ؟

-نعم.

-ماما لماذا تركنا بابا في حلب ؟

-كي يعمل ويجلب لك الهدايا.

-هيا سنغني في السرير ومؤكد أنه سيسمعنا.

مسحت (حنين) الدمعة التي كادت أن تسقط من عينيها فمسحتها سريعا بكمها

وابتسمت في عيني آلان اللتان لا تفارقان وجهها.

نامت حنين بقربه وحضنته بين ذراعيها، كانت أصابعه تلعب بخصلات شعرها.

قال آلان :

-هيا نغني كي يسمعنا بابا.

استمرا بالغناء والشتاء يدق على الشباك ،

أغمض آلان عينيه منتظرا أن يسمع أبوه صوته. نظرت حنين إلى السقف مصغية إلى
صوت المطر كانت تنتظر مثل (آلان) أن يسمع (سليم) صوتها ويأتي من خلف
الشتاء.

(١٠)

أربد ٢٠١١

-آلوه. الآنسة تسوغيك من فضلك

-نعم أنا هي

-أنا موظف من جامعة اليرموك وأود أن أخبرك بأنه تم قبول طلبك للعمل في الجامعة.

-حقا؟ أشكرك

-هل يمكنك المجيء غدا إلى الجامعة لاستكمال الوثائق؟

-بالطبع.

أغلقت تسوغيك السماعة فرحة وذهبت إلى غرفة (إيليك)

-وأخيرا سأعمل في الجامعة

-مبارك

جلست تسوغيك على السرير

-ولماذا تقولينها بهذه النبرة الباهتة

-تسوغيك...

-ماذا يا أمي إني أحاول أن أرمم حياتي من جديد في مكان آخر مع أناس جدد

-لكني أنا أملك ذاكرة ومكان.

-وهل يتوجب عليّ أن أحمل ذاكرة شعب بأكمله طيلة حياتي ألا يكفي جدتي وليفون وأنت ؟

-حمدا لله أنك تذكرت ليفون الذي يتصل بك مرارا ولا تجيبين على مكالماته.
-سنتطلق عما قريب.

-وباتيل ؟

-ما بها ؟

-أستبقى بعيدة عن أبيها ؟

-كثيرون قد عاشوا بلا آباء فالآباء ليسوا حاجة ضرورية دوما ر ألم تقولي لي ذلك حين طلبوا مني في المدرسة أن أحضر أبي (نديم) ر ألم ترسخي لجدتي وتركته.
-الآن جدتك من الأموات وليس من المفترض أن نستغيها.

-يا إلهي ربما هي الآن تستغيينا ر لم تسامحك على سفرك حتى بموتها ر لم تتوقعي أن أبقى هنا أكثر من شهر وبعدها سنرجع لهذا لم تفرحي بقبولي بالجامعة.
-تسوغيك إني أختق هنا.

-وأنا اختلفت سنوات في فرنسا.

كانت باتيل واقفة على الباب

-pourquoi vous vous disputez ? est-ce que papa noel a refusé de venir chez nous ?

(لماذا تتشاجران أرفض بابا نويل المجيء إلينا ؟)

قالت تسوغيك: ضاحكة :

-يا إلهي أكنتِ تحلمين به ؟

مدت إيليك ذراعها لباتيل فذهبت راکضة إلى سريرها ونامت على صدرها.

-non ma chérie، nous ne nous disputons pas، ta mère ne m'obéit pas،c'est le problème

(لا يا حبيبتى نحن لا نتشاجر وبابا نويل لم يرفض المجيء إلينا، المشكلة أنّ أمك لا

تسمع كلامي

نظرت باتيل إلى تسوغيك وهي تخرج لسانها.)

-méchante

اقتربت منها تسوغيك وهي تدغدها

-tu l'es

أنت كذلك.

قالت باتيل

-je veux jouer avec Alain

-أتريدن اللعب مع آلان هيا فلنذهب إليه.

دقت (تسوغيك) الباب

-peut-etre ils dorment encore

(ربما ما زالوا نائمان)

ظلت (باتيل) صامئة وحين فتحت (حنين) الباب نظرت باتيل إلى تسوغيك وكأنها قد فازت بالجولة.

قالت (تسوغيك) لحنين :

-صباح الخير متأسفة لكن باتيل أرادت أن تلعب مع آلان.

-صباح النور، وآلان أيضا يرغب بذلك لا داعي للاعتذار فهو وحيد أيضا.

حين جاء آلان كان يسعل

قالت تسوغيك:

-ما به ؟

-لا داعي للقلق هذا من أثر الطقس المتقلب سأذهب للصيدلية وأشتري له دواء.

-كنت أودّ أن أذهب للسوق لأشتري أدوات الزينة للتحضير لعيد الميلاد فباتيل منذ

شهر وهي تطلب مني أن أزين البيت. أترافقيني؟ وكي تتعرف على المدينة أيضا.

وأمام صمت حنين ضحكت تسوغيك:

-أعرف بماذا تفكرين فقد رأيت في بيتنا الإنجيل والقرآن فأنا نصف مسيحية ونصف

مسلمة. لا أدري هكذا ما يفعله الآباء بنا، وقد تعبت من الانتماء لدين ما فاخترت أن

أبقى في المنتصف كما علمني أخي صمو.

ابتسمت (حنين) نجلا

-سأرافقك

نظرت إليها تسوغيك

-وجودك قد أضفى على حياتي شيئا من الحميمة

-وأنت أيضا

قالت تسوغيك: مسرعة

-هيا فلنذهب لنبدل ثيابنا.

كانت تسوغيك تنظر من شباك التاكسي فرحة.. قالت لحنين :

-هذا الشارع اسمه شارع الجامعة لأنّ فيه جامعة اليرموك سأعمل بها، قد اتصلوا بي وسأذهب غدا لإحضار الوثائق المطلوبة. نظرت حنين إلى الطلاب العشاق الذين يجلسون على المقاعد لا يهمهم أحد. يهتمون اللحظة لأنّ الفرح لا يتكرر. تذكرت ماذا كتبت هي وسلم مع باقي الأزواج على جدران حلب قبل وداعهم لها... تتذكر حنين حين أجبرت على الخروج من حلب تلك الكلمات المكتوبة على الجدران فقد أصبحت حلب هي المعشوقة والحبيبة. المدن هي الحب الأول والموعد الأول والفرح الأول. هناك حيث التقينا على أرصفتها بمن نحب. تنتهد حنين، أوقفت التاكسي عند دوار الجامعة حين رأت صيدلية لتشتري لآلان الدواء. سألت تسوغيك السائق حين عادت

حنين

-هل تعرف محلا يبيع أدوات الزينة لعيد الميلاد؟

-هناك دكان صغير في شارع البارحة.

كان المحل صغيرا والمارة لا يكثرثون بجسمات العذراء والقديسين الواقفين خلف

زجاج المحل وهم يتضرعون إلى السماء.

اشترت (تسوغيك) مجسما للعدراء كما طلبت منها أمها ذلك لتضعه في الصالون كي تجلب البركة للبيت. نظرت إليها (باتيل)

-et les guirlandes?

ابتسم البائع وعلى وجهه علامة استفهام

سألته (تسوغيك) :

-هل لديك شرائط زينة لشجرة الميلاد؟

-بالطبع.

نظرت (باتيل) إلى الخلف ومسكت بينطال (تسوغيك)

-maman regarde comme ils sont beaux

نظرت (تسوغيك) إلى هؤلاء الذين وصفتهم باتيل بالجميلين فرأت موكبا من الأطفال يرتدون لباس القسيسين، وقفوا جميعهم خارج المحل ليروا موكب الأطفال الواقف أمام المدرسة.

كانوا يرددون جميعهم : (ولد المسيح هلوليا / ولد المسيح هلوليا....)

التقت عيناها، لم تستطع تسوغيك أن تبعد عينيها عن ذلك الشاب الذي كان يحمل كاميرا، ويصور الأطفال وهو كذلك لم يستطع أن يمنع نفسه من التحديق بها. لم يعلمها كم من الزمن قد مرّ وهما يحقدان ببعضهما.

رنين الأجراس هو الذي أعاد تسوغيك إلى الحياة من جديد، وصوت سائق تاكسي الذي كان يسألها إذا كانت تريد الذهاب إلى مكان ما وظلت عينا ذلك الشاب معلقتين برأسها.

(١١)

إيطاليا ٢٠١١

أول علاج للاكتئاب هو أن تغلق حقيبتك وتسافر حيث جميع المدن تفتح لك ذراعيها
ولكن ليس كإيطاليا

تلك المدينة المضرجة بالفن وكأنها تتحمم به...

ادندن أغنية ادامو المفضلة Buongiorno Italia (صباح الخير يا إيطاليا) واسمعتها
من مطعمه الصغير والمطر لا يتوقف ويبللني بالحب.

صباح الخير إيطاليا، بالسباحي بالكاد مستويةن وعضو المقاومة كرئيس

بمذيع السيارة الذي يكون دائماً على الجهة اليمنى

وطائر الكاري الصغير فوق النافذة

صباح الخير إيطاليا بفنانينك

بالشعارات الأمريكية الكثيرة على الملصقات الاعلانية

بأغاني الحب، بالقلب

وكل يوم تقل النساء التي بأخلاق الراهبات

صباح الخير إيطاليا

صباح الخير مريم العذراء

بعيونك المليئة بالحزن

صباح الخير أيها الرب.

كان أدامو حقا إيطاليا حقيقيا فهو لم يغادر إيطاليا منذ ولد، وورث مطعمه الصغير من جده ولم يغير به شيئا منذ خمسين عاما، هذا المطعم الذي يحتوي على أربع طاولات فقط ويصنع ادامو نوا واحدا من السباجتي قد تعلم صنعه من جده، لن تتخيل عدد الزبائن الذين يأتون إليه بالاضافة إلى السياح.

قد وقع بحب امرأة فرنسية كجده وابو راشيل أيضا الذي لم يستطع ادامو اقناعها بأن تبقى معه في المطعم وأن تغرق برائحة السباجتي أو أن تسمى اسما إيطاليا.

قد تجاوز ادامو الثمانين وما زال كما هو بمطعمه الذي تفوح منه رائحة السباجتي من بعيد وأغنية (صباح الخير إيطاليا)

لم يعرفني إلا عندما اقتربت منه، قبلت يده ...

قال لي بالايطالة التي لا أعرف منها إلا بضع كلمات قد علمتني إياها راشيل

-non sei cambiato con i tuoi occhi tristi

إنك لم تتغير بعينيك الحزینتين. ضحكت وأجبت بكلمة واحدة : Si (نعم).

وأكلنا بالفرنسية التي أتقنها من زوجته

-اتصلت بي راشيل وطلبت مني أن أعطني بك جيداً

-آه من راشيل

-ولماذا لم تأتي معك

-وحددي من يعاني من الحزن والاكتئاب

ابتسم ادامو

-ليس هذا الوقت لتحدث عن ذلك هيا اذهب إلى الكوخ فسأفتح المحل الآن
كانت تلك طريقة أدامو حين لا يريد أن يتحدث عن الحزن فهو سريع العطب مثلي.
كان الهواء يلفح وجهي أمام المحطة بانتظار القطار الذي سيأخذني إلى الريف حيث
يسكن أدامو في كوخ صغير، كنت آتي مع راشيل لنقضي شهراً معه، فلم يرغب أن
يسكن المدينة التي تحنقه على حد قوله فلا يستطيع أن يبدد حزنه في الملاهي، كان
يؤمن أن الطبيعة هي الكفيلة بذلك.

حين دخلت الكوخ شعرت بالسكينة، كان أدامو يحب التأمل كثيراً لذلك حين
أصيب بالاكتئاب كنت آتي إليه، فيعلمني أن أجلس ساعات بلا حراك وأن أراقب
أفكاري وأعرف مصدرها، فتصبح الأفكار كالغيوم ولا شأن لي أنا بها، كنت أضحج
من ذلك فلا أستطيع أن أمنع نفسي من أشد عاداتي السيئة وهي التفكير.
كان الضوء خافتاً في الكوخ فأدامو ما زال يستخدم القنديل الذي يعبأ بالزيت كي
يساعده ذلك على التأمل.

يقول لي دائما أدامو حين كان يعلمني التأمل، أنّه لا يتوجب عليّ أن أحمل أحزاني
معي وأنا في التأمل.

كيف يمكنني فعل ذلك وأنا الذي أقتات على خسائري وأحزاني.
أشعل المدفأة واجلس بالقرب منها ووجه من رحلو أمامي وسؤال راشيل معلق في
ذاكرتي (لماذا لا تستطيع العودة؟).
أتذكر ضاربا تعاليم أدامو عرض الحنين.

(١٢)

اربذ ٢٠١١

أتذكر حين بدأت أشك في قدرتي على التذكر.....

ذهبت إلى الطبيب قبل ستة أشهر، حين صرت أنسى مواعيد حصصي فقد كنت أعلم مادة الدين المسيحي للأطفال.

صرت أتفوه بالليل بكلمات لا معنى لها كما كانت تقول لي الراهبة..

سألني :

-هل أنت متعبة في هذه المدة ؟

-لا، أنا م مبكرا وأنت تعرف مواعيد الراهبات.

-هل أحد والدك أصيب بمرض الزهايمر أو أحد جديك ؟

-جدي.

-لا تخافي آتسة (سما) سأجري الفحوصات والرب معك.

ناولني عدة أوراق وهو يتسم.

-هذا الاختبار بسيط يحدد لك فيما إذا كنت عرضة للاصابة بمرض الزهايمر أم لا

من فضلك يجب الإجابة عن الأسئلة بسرعة وبدون تفكير لتتأج أفضل.

لا أدري لماذا شعرت بالخوف حين أخبرني الطبيب بأنّ عليّ أن أجيب عن الأسئلة بسرعة ، كانت الأسئلة بسيطة جدا وعرفت بأنّي أخفقت في الامتحان حين أخذت وقتا ليس بقصير على إجابة أسئلة كهذه :

١- هل تعرف في أي عام نحن الآن ؟

٢- هل تعرف في أي شهر نحن ؟

٣- من دون النظر إلى الساعة، هل تعرف كم هو الوقت الآن ؟

٤- حاول أن تعد عكسيا من ٢٠ إلى صفر.

٥- بسرعة وبدون تفكير ، هل تتذكر ماذا كان غداك يوم أمس ؟

تهد الطبيب محاولا أن يخفي ارتباكّه بابتسامة أخرى بعد أن أخذ الأوراق وأجرى لي بعض الفحوصات وأعطاني موعدا بعد أسبوع بدون أن يقول شيئا. عدت إليه بعد أسبوع، أجلسني بلطف، ثم سألني سؤالا وعرفت مسبقا أنني لن أجيب عن السؤال حين طلب مني أن أجيبه بسرعة.

-متى جئت إلى العيادة في المرة السابقة ؟

-أظن الخميس الماضي.

-ألا تذكرين أنك جئت إلي الأحد الماضي بعد القداس ؟

قفزت كطفلة قد تداركت خطأها أمام معلمتها وقد عثرت على الإجابة.

- صحيح.

-آسة (سما) لن أخفي عليك شيئا، قد اكتشفنا المرض مبكرا ولا داعي للقلق ولكن لا يمكنك بعد الآن أن تقومي بنشاطاتك الجسدية كالسابق لأنك تعبت كثيرا في حياتك وعليك أن تستريحي وتنشغلي بالرب فقط. شعرت أنه يتصل من قول الحقيقة. -ولكني مشغولة بالرب منذ سنين، قل لي الحقيقة.

- آنتي إنك مصابة بالنسيان المبكر، وبما أن جدك قد أصيب بهذا المرض من قبل هذا قد ساعد على تأكيد شكوكي، ولكن مع العلاج المبكر سنؤخر أعراضه المزمنة عليك أن تستمري بالقراءة والكتابة مهما حدث والعزف.

حين أخبر الطبيب الراهبة الرئيسة بمرضي، جهزت لي سريرا وممرضة ترافقني وقالت: -إيمانك سيشفيك. قد قضينا سنوات طويلة معا والرب لم يتركنا لحظة واحدة وربما يريد منك أن تفكري بالسماء أكثر من الأرض.

أتذكر حين كنت في الثالثة عشر حين زارتنا راهبة كبيرة في السن، كانت تحدثنا عن يسوع وعن محبته للأطفال وعن قصة المرأة التي لمست ثوبه فشفيت فقال لها : إيمانك قد شفاك. ظلت تلك القصة عالقة في رأسي وأحببت يسوع. قبل أن تذهب الراهبة سألتنا إن كان لدينا سؤال. رفعت يدي وسألتها :

-لماذا أنت متدينة؟

صمت قليلا ثم ابتسمت

-الرب دعاني ولبيت دعوته.

رحلت قبل أن أسألهما : وهل يدعو الرب جميع الناس ؟

قاطعتني الممرضة فالآن هو وقت العشاء. في السرير الذي بجواري امرأة عجوز تسأل الممرضة وهي تطعمها:

-لماذا يتوجب عليّ أنا وحدي أن أتحمّل كل هذا الألم؟

-لأن يسوع يحبك فاختارك أن تتألّم مثله.

تتلعثم وهي تتكلم وتفكر ملياً حتى تجد الكلمة المناسبة:

-ولكنّ يسوع أعظم مني.

تبسم الراهبة وتقول لها كأنها تخاطب طفلة :

-لهذا علينا الآن كما في كل مرة أن ندعوه قبل أن نأكل هيّا.

تبدأ الراهبة بالصلاة وتعيد العجوز وراءها كلمة بكلمة وإذا نسيت تعيد الراهبة الجملة من البداية -هيا فلنصلي معا..

يا أبانا، ليتقدّس اسمك، ليأت ملكوتك، أعطنا خبزنا كفاف يومنا، واغفر لنا خطايانا،

كما تغفر نحن أيضاً للذين يسيئون إلينا، ولا تدخلنا في تجربة.

فتسألها العجوز :

-ومريم ؟ ستغضب إذا نسيتها.

-هياّ قولي لها ما تشائين.

صارت العجوز تصلي لمريم أمام صمتنا : يا مريم يا أمي يا والدة الإله صلي لأجلي كي

لا أنساك.. أريد أن أذكرك دوما.

لم أصل بعد إلى ذلك الوقت الذي أحتاج به أحد ليطعمني، ولكني كنت أعرف أنني سأمرّ بهذا المشهد الذي تمرّ به أخواتي.

حين سأصل إلى ذلك الوقت سأكتفي بالابتسام فقط كي أعبر عما بداخلي حين أنسى الكلمات وأبذل جهدا كي أنتقي الكلمة التي أريدها وخصوصا حين أصلي ولكن لن أجد صعوبة في ذلك فقد اعتدت على الصلاة بصمت.

في الليل تخفّ الأقدام، أسمع صوت الراهبة وهي تتحدث مع الحارس كي يغلق الباب جيدا، وأنين أخواتي. أخرجت الورقة التي أعطاني إياها الطبيب، طويتها من جديد لأنني لا أستطيع أن أطبق أيا منها، وكنت أوقن أنني سأنسى كل شيء إلا وجهها واحدا واحدا فقط وخطيئة واحدة.

أضع رأسي ع المخذة ولا أتوقف عن سماع صوت أمي وهي تمسّط لي شعري في ساحة بيتنا.

شعرك يا سما بين المخذة دَمَاني

شعري يابا ما سبته

تحت المخذة رميته

عريها ع باب الدار.

حين ماتت أمي نسيت الأغنية وتبادلنا الأدوار، غنيت لها كي تستيقظ لا كي تنام. صوت العجوز ما زال يبتهل للعدراء في منتصف الليل الذي يختلط مع أنينها وصوت أمي لا يتوقف عن الغناء في رأسي.

(١٣)

أربد ٢٠١١

أول يوم في الجامعة...

وقفت (تسويك) أمام المرأة ومنذ زمن لم تقف أمامها.

منذ زمن لم تضع المساحيق على وجهها كما تفعل الفتيات كي يخبن ملامهن فلم ترغب يوما أن تمثل على ذاتها، وحتى بانتقاء ثيابها كانت تفضل الخداء الرياضي على الكعب العالي والبنطال الجينز على التنورة القصيرة ولم تلحق يوما الموضة كانت دوما غارقة في الروايات حتى تحولت إلى فأرة تلتهم جميع الكتب.

ارتدت بنطالا أزرقا وكنزة صوف زرقاء، وتركت شعرها مسدولا على كتفها. كانت كلما ترتدي ثيابها ببساطة كانت تشعر بالحرية. وارتدت أخيرا حقيبتها الظهر فلم تحمل يوما حقيبة كباقي الفتيات فقد كانت تفضل حقيبة الظهر لأنها من الممكن أن تملأ بها ما تشاء من الكتب ولم تكن بحاجة إلى حقيبة تتسع فقط لقلم حمر.

حين تزوجت من ليفون قد أعدت جدتها مسبقا كل شيء للزفاف من الفستان الأرميني إلى حد اختيار الزوج الأرميني بالطبع.

لم يعترض مرة ليفون على ارتدائها البيجامة التي يقبع في وسطها ميكي ماوس وكانت قد سألت صديقتها قبل زفافها بشهر.

-هل عليّ حين أتزوج أن أتخلّى عن بيجامتي المفضلة؟

-بالطبع فلن يكون لديك الوقت لارتداء شيء.

ضحكت بجنث وهامي ظلت قابعة في بيجامتها المفضلة لديها والتي تشعرها بالأمان، وحين كان يراها ليفون تقرأ كان يجلس على الطاولة ويبدأ بتحضير دروس مدارس الأحد. مع ليفون لم تكن مجبرة على تغيير أي شيء من عاداتها عكس ما قالت لها جدتها وأما ولكنه كان يغيظها بذلك لأنها أرادت أن تبدد وحدتها المزمنة به.

رن هاتفها. كان ليفون. تجاهلت مكالمته وهي تقف أمام البوابة الجنوبية للجامعة اليرموك.

أصدر هاتفها صوتا ينبيء برسالة ماء، وعرفت أنه ليفون فهو لا يتعب أبدا. قرأت رسالته على عجل : يقول الرب : ما جمعه الله لا يفرقه إنسان.

أغلقت الهاتف بسرعة كانت دوما رسائله تغيظها فلم يبعث لها يوما رسالة يقول فيها أنه اشتاق لها أو يحبها كان دوما يبعث لها جملا من الإنجيل.

ردت عليه بجمل مقتضبة : أنا لست في البيت، حين أعود سأخبر (باتيل) بأن تهاتفك وفي المرة القادمة اتصل بأمي للتحدث مع باتيل.

كان يقهرها باصراره على التشبث بها رغم طلبها للطلاق منه، ورغم أنها لم تستشره حين أخذت باتيل معها إلى الأردن، كانت تعرف أنه لن يعترض على أي شيء تقوم به وهذا ما كان يغيظها فقد كان مسلما إلى حد البلاهة.

أعادت الهاتف إلى حقيبتها وكأنها تعيد ليفون إلى جارور قلبها المنسي، وعادت لتجدد عهدا مع نفسها بأنها يجب أن تمزق الصفحة من حياتها لا أن تطويها كما يقول مالك حداد.

سارت بخطى واثقة وهي تدخل من البوابة الجنوبية للجامعة.
 مرت من سكن هيئة التدريس ثم عبرت الحاجز وسألت الشرطي عن مبنى شؤون الموظفين. التفتت في طريقها إلى الطلبة الأجانب الواقفين أمام مركز الملكة رانيا، وأحست ببعض الطمأنينة حين وجدت أناس أيضا قادمون مثلها من بلد غريب.
 كان يستهويها النظر في عيون الطلبة وأحست بأنها طالبة مثلهم فلم تشعر يوما بأنها قد أنهت بامتياز درجة الماجستير في الأدب الفرنسي ... كانت تشعر دوما أنها طالبة لا تنتمي إلا لدقي رواية حيث جميع الأشخاص النائمون في الكتب هم أصدقائها. كانت تسوغيك طالبة مجدة وكانها كانت ترتق نقصها باحتياجها لأن تنتمي لفريق ما، لصديق ما بحصولها على درجات عالية.

حياها الموظف.

-تفضلي آنسة.

-تسوغيك ديرهارتيونيان ؟

نظر إلى الطلب.

-أه إنك فرنسية من أصل أرمني.

-نعم.

-آه.. تنتمين إلى تلك القضية الأرمنية التي ما زالت عالقة، ولم تعترف بعد بها تركيا.
 نهضت تسوغيك وسألته عن كلية الآداب حيث ستعمل.

كانت تتحاشى تسوغيك النقاش في قضية الأرمن عكس أمها وجدتها وليفونر كانت لا تريد أن يرمز لها دوما بالمليون والنصف أرمني الذين سقطوا في مسيرات الموت. كانت تود أن تظهر كفتاة طبيعية لا تحمل عبء تاريخ أمة شردت وقتلت، تريد أن تكون هي وكفى مع أن كل ما فيها يوحي بأنها أرمنية اسمها وتقاطيع وجهها. صعدت إلى الطابق الرابع حيث قسم اللغة الفرنسية ودخلت إلى مكتب رئيس القسم وقد اعتادت تسوغيك على أن تعيد اسمها مرات عدة. أعطائها جدول محاضراتها واصطحبها لرؤية مكتبها الذي كان مقابلا لمكتبه. نزلت الدرج بثقة...

جلست على كرسي فارغ متحاشية ضجيج الطلبة الجدد فتحت جدول محاضرتها، كان لديها مساقين الأول مدخل الى اللغة الفرنسية، و الثاني الرواية في العصر الحديث. رن هاتفها، ظنت أنه ليفون فلم تمد يدها لإخراجه من الحقيبة إلا بعد أن رن مرة أخرى.

-maman

(ماما)

-oui ma chérie

(نعم عزيزتي)

-maman je suis avec madame Hanine.mamie est partie

(ماما أنا مع مدام حنين وجدتي رحلت.)

-je reviens tout de suite

(سأعود حالا)

عادت تسوغيك سريعا إلى البيت فأما لا تعرف المنطقة ولم تخرج من البيت منذ وصولها. سألت حنين فور وصولها :

-هل قالت لك شيئا ؟

-لا قد احضرت فقط باتيل وقالت أنها لن تتأخر.

سمعت تسوغيك خطوات على الدرج، نزلت بسرعة وصلبت على وجهها حين رأت أمها.

-أووہ أي أين ذهبت ؟

-سنتحدث في الداخل.

خلعت (إيليك) معطفها الصوف وجلست على الكنب، كانت تسوغيك تحديق بها.

ابتسمت إيليك :

-ما بك ؟

-كيف خرجت وحدك وأنت لا تعرفين شيئا هنا؟

-إنه لأمر سهل، أوقفت تاكسي ودلني إلى أقرب محل إنترنت. قد حجزت تذكرة إلى فرنسا بعد يومين.

-ماذا ؟!!!!!!!

-كما سمعت قد حلت بجدتك آني منذ يومين، كانت تشير لي بالعودة.

جلست تسوغيك متعبة

-أمي هل أورتك آني كائناتها اللامرئية ؟

قالت إيليك: وهي تخلع حذاءها وتشعل المدفأة

-لا الأمر أبسط من ذلك، إني أشعر بالذنب لأنني لم أبقى معها حين طلبت مني ذلك.

عليّ أن أَلْمَ أشياءها، وأحس أنها تريد مني العودة لشيء ما.

صمتت تسوغيك. وقد اقتربت منها إيليك وجلست بجوارها.

-لا تخافي يا ابنتي سأعود ولن أتركك وحيدة. أريد فقط أن أزورها فقد جاءني

بالحلم أكثر من مرة.

ضممتها تسوغيك.

-أم أنك ستعودين لأجل بريفير ؟

-كفي عن ذلك تسوغيك.

-سنتظرك أنا وباتيل.

-وليفون ؟

نهضت تسوغيك ذاهبة إلى المطبخ

-ما به يا أمي ؟

-قد اتصل كثيرا.

-أعلم ذلك كي يتحدث مع باتيل وطلبت منه في المرة القادمة أن يتصل بك.

لحقها إيليك إلى المطبخ.

-لكنه يريد الحديث معك.

التفتت إليها تسوغيك.

-بم يا أمي سنحدث ؟ ألم نجهز أوراق الطلاق واتفقنا على أني سأعيش هنا؟

-وباتيل أليست ابنته أيضا ؟

-بالطبع ولكنك تعرفين أني لا أستطيع العيش بدونها.

-ومن حقه أيضا أن يعيش معها

-ماذا تريدن يا أمي أن أعود إليه ؟ قلت لك أني لا أطيق ذلك الأبله... آه الآن

فهمت تريدن الرجوع كي تنفقي معه.

ضحكت إيليك

-أيتها الغبية لا أريد الشجار معك مجددا. هل اتصل آواديس ؟

-نعم سيذهب إلى إيطاليا عند أدامو.

-إذا لن ألقاه حينما اصل .

-سيمكث هناك أسبوعا فقط.

- لطالما كان هو وأبوه محط فضولي هو مثل أبيه مليء بالأسرار.

قالت تسوغيك: بسخرية بعد انتهت من صنع فئجان النسكافيه

-أظن أنهما أكثر وضوحا من كائنات جدتي آني.

ضحكًا بصوت عال وقد كانت كائنات الجدة آني بانتظار إيليك.

(١٤)

إيطاليا ٢٠١١

أتذكر وأنا بجانب المدفأة صوت جدتي حين كانت تحمّني هناك في الصيف في ساحة
الدار أراني عاريا وجدتي تجلسني في الطشت وهي تدندن كي أنسى الصابون الذي
دخل في عيني :

طالع من الحمام وعينه مكحله من فوق الكحلة غرة مقرونة
سموا على صحو أبو خاتم بنور طالع من الحمام ومحوط بالرسول
كنت أسألها :

-وين راحت أمي.. يعني هي ما بتعرف إني بخاف أنام لحالي ؟
كانت تدير وجهها وتمسح بطرف مندبها دموعها، ثم تنظر إليّ من جديد
-يا عيون ستك وأنا شو بسوي هون ؟!!!
أتجول في ذلك البيت القابع في حيفا وأنا جالس في كوخ أدامو فقد أتيت إلى هنا
هربا من أحزاني وها أنا أجلبها معي.
هذه الغرفة التي احتفظت جدرانها بهذه الأغنية التي كانت ترددها لي جدتي بلا تعب
حتى أتوقف عن السؤال عن أمي.

طير الحمام ما تخاف صحو تحت اللحاف
وبدو ينام حتى يكبر ع خده شامة عنبر

وع المدرسة توديه

وتوصي لمعلم فيه

تحاشيت الدخول إلى الغرفة التي بجانب غرفة جدتي، فكل شيء يحدث في الحياة هو من الغرف، فالغرف هي التي تحدّد مصيرنا. هناك غرف للحب وغرف سرية للقتل والتعذيب. وتذكرت قول أندريه جيد : لا شيء أشد خطرا عليك من عائلتك وغرفتك وماضيك، ذلك أنّ للغرف سطوة على أحلامنا وأسرارنا وماضيها.

تناول من حقيبته الصغيرة دفترا كان لعمة الصغير (نديم) والذي علم متأخرا أنه أبوه الحقيقي وأنّ أبوه (مصطفى) هو عمه فقط.. جلس على الأرض بثقل سنينه وذاكته. وجد ذلك الدفتري بين أغراض جدته حين توفيت ترك الجميع وتسلسل إلى غرفتها وعثر على الدفتري وبدأ بينما صوت القرآن يختلط مع صوت الغرباء القادم من الصلاة. ولكن القصة يجب أن تروى منذ البداية كي يمتص رحيق ذاكته رويدا رويدا.. كان عمي (مصطفى) يعمل في سكة الحديد في وادي الصليب، فقد أصبح مسؤولا عن جدتي وعن أبي (نديم) الذي لم يتجاوز السابعة عشر عاما بعد موت جدي. جاء مرة أبي (نديم) متأخرا على غير عادته. غضب عمي (مصطفى) كثيرا ولكن جدتي كانت تدافع دوما عن أبي (نديم).. وكانت تلك الليلة التي أصبحت فيها ابنا لرجلين.. حين كان يذهب عمي للعمل، كان أبي (نديم) يذهب معه، ولكن جدتي كانت توصي عمي (مصطفى) أن لا يجبره على العمل بل أن يذهب للتسلية فقط، فقد كان أبي وسيعا وأشقر، فكان جدي يمازح جدتي حين ينظر إليه : (لو ما بعرفك يا أم مصطفى فرجك نظيف، جبتي أجني ونمت معو).

كان يثير أبي إعجاب الفتيات.. وكان هو مزهوا بنفسه ومن دلال جدتي له.
 في وقت الظهيرة حين يستريح العمال كانت تأتي فتاة من حي النصارى لتجلب الأكل
 لأبيها اسمها (ساميا)، كان عمرها ثلاثة وعشرين عاما، كانت تتلهف للمجيء لرؤية
 أبي (نديم)، وكان أبوها يأمرها بالعودة سريعا إلى البيت ، ولم يعلم أحد أنّ عمي
 (مصطفى) كان معجبا بها..

أشارت خلسة لأبي (نديم) بالحاق بها، واتفقا على أن يلتقيا ليلا عند سكة الحديد،
 ذهب أبي (نديم) إلى هناك.. كانت تنتظره بلهفة.
 قال لها أبي :

-ماذا تريدن ؟

ضحكت سرا.

-ألا تعرف ماذا أريد سترى ؟

بدأت تفك أزرار بنطاله، ولكنه أبعد يديها ورحل، ولكنها أوقفته

-سأخبر أبي بأنك أجبرتني على ذلك، وأخوك لن يصمت.

عاد إلى مكانه.. وتركها تفعل ما تشاء.

حين عاد. بكى كالأطفال في سريرته، ولكن المصيبة حين سمع (مصطفى) يتكلم مع

أمه لتخطب له (ساميا).

تنحنت جدتي :

-هذول المسيحية شايفين حالهم، بعدن ما حدا من عيلتنا تجوز منهم.

-خلص يّا أنا عاجيتني.

صمتت جدتي فقد أصبح عمي هو رجل البيت ولن تعانده.

كان أبي (نديم) يوقن أنّ (ساميا) لن توافق، ولكنها وافقت. وكانت أم (ساميا) كجدتي ليست موافقة على هذا الزواج.

حاول أبي (نديم) رؤيتها ليقنعها بعدم الزواج من أخيه. حدّث به بمكر -بتلك الطريقة يمكنني رؤيتك كل يوم .

-تزوجيني إذن.

-أبي لن يوافق وأمك أيضا لأنني أكبر منك.

وفي ليلة العرس بدأت المباراة بين جدتي وأم (ساميا).

كانت كلاتهما تتعمدان ذكر الملة التي تنتمي كل واحدة إليها كي يعترفان بأنّ هذا الزواج باطل كما تنبأتا. بدأت جدتي بالغناء :

ومن شافت عريسنا تصلي على النبي . بشروا بيه أبو الخط القوي.

وترد أم (ساميا) :

ومن شافت حلوتنا تصلي على المسيح . بشروا بيها أبو الخط المليح.

ولكن عمي (مصطفى) و (ساميا) قد جمعتما غرفة واحدة بالرغم من عنادهما. لم تعر (ساميا) أبي أيّ اهتمام وكانت تتجنب أن تلتقي به وحده كي لا تسمح له بالحديث معها، وظن أبي (نديم) أنّ الحكاية قد انتهت. ومنذ أن أعلنت (ساميا) حملها، بدأت جدتي تحبها ولم تسمح لها أن تساعد في عمل البيت.

جئتُ إلى الدنيا في ليلة ممطرة. حين أصبح عمري سنة صرتُ أشبه أبي الحقيقي (نديم)، ولا أشبه عمي مصطفى، وكنت أحب (نديم) أكثر فقد كان يحملني على كتفيه ويدور بي في ساحة الدار، ولم يفكر يوماً في ابنه.

كان يجلب لي الهدايا والسكاكر وكان يقول لي أنّ رجلاً اسمه رمضان جلبها لي، وحين أرجوه أن أرى رمضان.. كان يقول لي أنّ هو فقط الذي يرى رمضان. وكنت أظنّ أنّ رمضان هو العم (جميل) الذي كان يدور الحّيّ حافياً، وكان أهل الحي يطعمونه، وحين يعطيه أحد مال، كان يشتري به سكاكر ويوزع على الأطفال، وعرفت من جدتي أنه قد جنّ حين ذهب مرة مع ابنه إلى البحر غفا قليلاً، وفي تلك الأثناء ذهب ابنه الصغير إلى البحر وغاص ملياً حتى أغمض عينيه ونام في البحر إلى الأبد وبقي وحيداً فقد ماتت زوجته مبكراً وتركت له هذا الصغير.

حين أصبح عمري خمس سنوات، كانت جدتي تحب أن أنام بجوارها، استيقظت ليلاً أبحث عن أمي لم أجدها في غرفتها. كان عمي مصطفى نائماً، ذهبت إلى غرفة (نديم) حين وجدتها مفتوحة.. وقفت عند الباب كان (نديم) نائماً بلا ثياب ويضع غطاء خفيفاً على جسده، جلست أمي بقربه وهي تداعب شعره. استيقظ فجأة:

-ماذا تفعلين هنا ؟

وغطى جسده.

-اشتقت إليك.

-اخرجي من هنا.

- لن أخرج، قد مللت من أخيك، وقد جئت إليك قليلا.
-أنا لا أريدك.
-رغما عنك وإلا سأخبره.
نزعت ثيابها، وبدأت تقبله وهو يبعدها عنه.
لا أعرف لماذا تسمرت كل هذا الوقت هناك. ذهبت إلى غرفة عمي (مصطفى).
-بابا.. بابا
استيقظ وتعجب حين رأي، ولم يجد (ساميا) بقربه
-بابا. ماما ونديم يشعران بالبرد بلا ثياب.
نهض سريعا وأمرني أن أبقى في الغرفة. تسلل على أطراف أصابعه، ووقف كما وقفت
قبل قليل عند الباب. بقيت واقفا في الغرفة.
كانت (ساميا) تقول له :
-صحو هو ابنك.. ألم تلاحظ كم يشبهك ؟!
-أنت كاذبة ؟
-وتلك الليلة ؟
-أنت قد أجبرتني على فعل ذلك.
دخل وجرها من شعرها. استيقظت جدتي على صراخه. بحثت عني ووجدتني
وضعتني في غرفتها وأغلقت الباب بالمفتاح، وحين رأت عمي (مصطفى) يجرّ ساميا
من شعرها وهي نصف عارية ركضت نحوه.

-شو صار؟

-روحي اسألي ابنك العاهر..

كنت أسمع صرخات أُمي..

لم يتفوه أبي (نديم) بحرف واحد، حين سمعنا الصرخة الأخيرة (لساميا) ركضت

جدتي ورجته أن يفتح الباب وهي تلطم على خديها.

خرج من الغرفة حاملا السكين متجها إلى غرفة أبي (نديم)، لكن جدتي وقفت

أمامه وقالت:

-والله العظيم إذا بتمسّو لأموت حالي وأفضحك بالحي.

-بتعرفي إنو صحو ابنو، لأنو نام معها قبل ما تتزوجني؟

جلس عند العتبة، وروى لجدتي ماذا حدث، دخلت جدتي إلى غرفة (نديم) وقبل

أن تنفوه بكلمة بدأ هو بالحديث كالأطفال.

-بهديك الليلة لما تأخرت، كنت معها، حكلها ما بيصير هيك بس حكلي إنو رح تخبر

أبوها.

أذن الفجر..

صمت الجميع...

في الصباح خرجت جنازة (ساميا)، ولم يسجن عمي (مصطفى)، فحين علم أبوها نكتم

على القصة، وقفت جدتي وقالت:

-إلي بيتعرض لنديم لأفضح القصة وأقول إنو هاي زانية بنت زانية.

ولم تؤنبه أبداً، فقد كان هو الملاك الذي لا يخطئ أبداً.
 دفنت (ساميا) سرا كما التقت بأبي (نديم) سرا.
 كانت تعرف جدتي أنّ وجود (نديم) في الحي وفي البيت سيثير المشاكل، أمرته أن
 يذهب للجيش مدة سنتين.
 قبل الذهاب حلق شعره الأشقر وذهبت مع جدتي لأودعه. همست جدتي بأذنه
 -هس صار عندك ولد. بعد اليوم أخوك ما رح يدير بالو عليه صار مسؤوليتك.
 نظر إليّ وحملني بين ذراعيه
 -بتوعدي اتدير بالك ع حالك حتى أرجع.
 أغمضت عيني بدل كلمة نعم.
 أغلقت الدفتر وخبأته في حقيبي.

(١٥)

أربد ٢٠١١

-Batile، donne moi mon monteau

(باتيل أعطني معطفي.) أحضرت باتيل ما طلبته منها جدتها إليك وسألتها

-où vas-tu mamie ?

(أين ستذهبن يا جدتي ؟)

- Je vais à Marseille pour peu de temps et je reviens

(سأعود إلى مرسيليا قليلا)

- Papa noel va surement venir avec toi

(مؤكد أنّ بابا نويل سيأتي معك)

- Si tu restes sage

(إن بقيت عاقلة)

جاءت تسوغيك إلى الغرفة حاملة كوب النسكافيه، ووقفت عند الباب وقد أشارت

لها إليك بالجلوس على السرير بعد أن انتهت من ترتيب حقيبتها ووضعها عند الباب.

سألتها إليك بعد أن جلست باتيل في حضن تسوغيك

-مؤكد أنّ ليفون سيكون بانتظاري وسيسألني عنك... قاطعتها تسوغيك:

-ومؤكد أنك ستقولين له بأنّ تسوغيك قد قبلت في الجامعة، ولن تعود إلى مرسيليا
وتنتظر طلاقها منك.

-إنك حادة بكذتك، لا تنسي أنّ باتيل في المنتصف.

-لا ليست في المنتصف إنها معي في طرفي أنا

-ولماذا أراك واثقة لهذا الحد، وكأنك أنجبتها بلا أب كالعذراء

-آه يا أمي قد أجبرت على الزواج منه، ولكني لست مجبرة أن أفكر به الآن.

نهضت إيليك فقد وصل التاكسي، عانقتها وهمست لها:

-من حقنا في هذه الحياة أن نكره أو نحب من نشاء، ولكننا في النهاية لا نعرف ما

هو خير لنا. احتضنتها إيليك بقوة. قالت لها تسوغيك

-حتما ستعودين.

غمرتها إيليك وهي تحتضن باتيل

-سأقبل ليفون عنك.

عند الباب قالت إيليك: لتسوغيك هيا لنردد معا قصيدة (هوفهانيس كريكوريان).

رددتها معا بالأرمنية. هذه الأسطر المحفور في أعماق إيليك، والتي ستنحفر في وقت

متأخر في أعماق تسوغيك أيضا.

هذا هو وطني

وهو بحجم يمكنني اصطحابه

عند ذهابي إلى أمكنة عديدة

إذ أنه صغير كالأم العجوز

كالمولود الجديد

وأما على الخارطة

فهو دمة واحدة فحسب

هذا هو وطني

بحجم يمكنني أن

أحفظه في قلبي

كي لا أفقده فجأة.

لوّحت لها من الشرفة وهي تحمل باتيل بين ذراعيها، وتذكرت يوم كانت ابنة الست سنوات لحظة كانت تكرر الجدة آني على مسمعها تلك القصيدة بالأرمنية و كانت آني لا تملّ من تكرارها، فعلى تسوغيك الصغيرة أن تحضر أرمينيا في قلبها، وما زالت وصية آني في رأسها أنّ كل الناس لهم وطن يذهبون إليه كلما اشتاقوا إليه إلا الأرميني فوطنه في قلبه.

تهتت تسوغيك وهي ترى التاكسي يتلاشى من أمامها فقد تعبت من حمل وطنها منذ ولدت، وطن لا تعرف ملامحه لكنه رضع معها وأكل معها، وطن لم تكتب على جدرانها حبها الأول لكنه استوطن قلبها رغما عنها. أصعب شيء أن نحل المكان فينا أينما ذهبنا.

(١٦)

أربد ٢٠١١

بقيت حنين جالسة ع الأرض بعد أن صلت صلاة الضحى، فند أن كانت في سن الثامنة لم تقطع فرضاً، فقد اعتادت بدون أن يعلمها أحد ذلك إذا شعرت بالحزن أن تصلي ركعتين وتطيل سجودها وتشكو لله كأنها تشكو لرفيقتها، فالجميع يقول (الله بيعين) فتسألت إذا كان الله هو الذي سيعينني لماذا لا أشكوه ما بي. كانتا يداها مشغولتين بصنع كنزة لآلان.

نهضت وأخرجت من تحت السرير قطعة قماش مربوطة بأحكام. أخرجت قطع الذهب التي خاطتها مكان أزرار قميص فستانها بعد أن نزعها وأخاطتها مجدداً عند خروجها من حلب كي لا يسرقها الجنود. أعادت القطع الذهبية الثمانية إلى مكانها بعد أن كانوا عشرة، فقد استأجرت الشقة واشترت أثاثاً. حين كان ينقص الكيس قطعة كان يزداد خوفها من المستقبل. تلك القطع الذهبية التي أعطتها أمها نصفها قبل أن تموت والباقي قد اشترتها من المال الذي كان يجنيه زوجها قبل الحرب وكأنها كانت تتنبؤ بهذه الأيام التي ستلجأ بها إلى هذا الكيس.

فكرت بالآن الذي يتوجب عليه الدخول إلى المدرسة، ولا تستطيع أن تسجله في المدرسة قبل أن تجد عملاً، فالقطع ستختفي ذات يوم وأرادت أن تحبأها لأيام سوداء، وكأن تلك الأيام السوداء لم تأت بعد التي يخفيها بها المرء قرشه الأبيض ليومه

الأسود. تنهدت وسجدت طويلا وهي تردد : (إني توكلت على الله ربي وربكم، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم).
حين رفعت رأسها كان آلان يقف بجوارها
-أكنت تتحدثين مع الله ؟

-نعم.

-ولكنه لم يزرنا مرة، أظن أنه دائما مشغول، وأظن أنه يملّ سماعك.
ابتسمت حنين وأجلسته في حضنها.
-الله يحب الجميع ولا يملّ من سماع أحد بالعكس بل هو يحب من يتحدث معه كثيرا
ويطلب منه كثيرا
-حقا سأطلب منه أن يهتم بأبي، ألم تقولي لي أن الله قد أخذه.
سألته حنين كي تغير الموضوع.
-ما رأيك أن نضع الكبة ثم نبعث بصحن إلى تسوغيك وباتيل.
-أريد أن أساعدك

-تسلمي هالأيدين الناعمين... إن شا الله ريتني ما إعد من
وضعت صحن العجين في أرض المطبخ وبدأت بالغناء
القراصية منين منين / يلي سقوها بدمع العين / والقلب ما يهوى لتنين / بدو وحدة
حلبية. لم ينتبه أحد وهو يتناول الكبة إلى الدمعة التي سقطت في صحن العجين، فقد
كانت تعجن حنين حنينها وألمها وخوفها من غد لا تعرفه.

(١٧)

أربد ٢٠١١

- Batile، tu dois te laver

(باتيل يجب أن تستحمي.)

كانت تسويك بالحمام بانتظار باتيل كي تحمها، ولأنّ باتيل كانت تكره الاستحمام كانت تغريها تسويك بالحكايا.

- Batile، regarde.c'est un savon d'Arménie، ta grand-mère Annie l'utilisait pour rester jeune. il fait d'huile d'olive.

(انظري يا باتيل هذا الصابون من أرمينيا كانت تستخدمه الجدة آني كي تبقى صبية فهو مصنوع من زيت الزيتون.)

قالت باتيل مندهشة بعد أن خلعت ملابسها بانتظار أن تفتح تسويك الماء الساخن.

- Mamie Annie était comme la sirène qui ne vieillit jamais

(جدتي آني كانت كالخورية لا تكبر أبداً.)

أحضرت تسويك دلوا وملأته بالماء

- je vais maintenant verser de l'eau sur ton corps quarante fois

(الآن سأصبّ عليك الماء أربعين مرة)

فتسائلت باتيل كعادتها

- et pourquoi quarante fois ?

(ولماذا أربعين مرة ؟)

- Je vais te répondre ma blonde،comme le dit Annie،le Christ a jeuné quarante jours puis il a parlé avec les gens.Donc،le chiffre quarante est sacré،et que la bénédiction du seigneur Jésus sera avec toi،je vais verser de l'eau sur ton corps quarante fois pour que tu restes comme la sirène belle et blonde.

(سأجيبك أيتها الشقراء، فكما تقول الجدة آني إنّ المسيح قد صام أربعين يوماً ثم تكلم مع الناس،وكي تحل البركة عليك من الرب يسوع سأصبّ الماء عليك أربعين مرة كي تبقي حورية جميلة شقراء.)

- Belle comme mamie Annie ?

(جميلة مثل جدتي آني ؟)

- surement، compte maintenant jusqu'à quarante

(بالطبع الآن عدّي حتى الأربعين.)

بدأت باتيل بالعد، كانت تسوغيك تتأملها، كل ما فيها ينبض بالحياة لم تكن يوما كباتيل طفلة واضحة حدّ الغموض، تردي أنوثتها بلا خوف وتجذب الآخرين بفتنة. تسوغيك تلك الطفلة الخجولة التي تخجل من أن تفكّ شعرها أمام المرأة، ولم تكثرث يوما أن تظهر أنوثتها أمامها عكس باتيل ذات الست سنوات التي تهتم بمظهرها وتختار هي فساتينها بدقة وتسريحة شعرها. كان كل هم الطفلة تسوغيك أن تكس الكتب وتقرأ، وأن تتعلم لغة جديدة من آني، ومن إيليك، ومن صحو الذي كان يعتمد أن يتكلم معها بالعربية ويصطحبها إلى الحي العربي، وقد سجلها في معهد لتعلم العربية.

قطع صوت باتيل حبل أفكارها

maman j'ai fini.Jésus comptait peut etre avec moi-

(أمي قد انتهت، ربما كان يسوع يعدّ معي.)

ضحكت تسوغيك من قلبها، وقطع ضحكتها رنين الهاتف والباب.

(١٨)

مارسيلييا ٢٠١١

حين وصلت إليك اتصلت بالمرضة التي كانت مسؤولة عن آني، وطلبت منها المجيء..
سألتها فور مجيئها :

-ألم تقل لك شيئاً قبل أن تموت، ولماذا لم تتصلي بي حين ماتت ؟
-هي من طلب مني ذلك.

-أكانت غاضبة مني لهذا الحد ؟

-كانت غاضبة لأنك سافرت، وأرادت عقابك بأن لا تخبرك حين تموت، وقالت
أنها ستبقى تزورك في أحلامك وتحكي لك القصص.

صمتت إليك قليلاً، ثم أخرجت من حقيبتها مغلفاً وأعطته للممرضة
-هذا لك شكراً على بقاءك معها للنهاية.

قبل أن ترحل توقفت عند الباب

-آه نسيت أن أقول لك شيئاً، قبل أن تموت تركت لكل واحد منكم شيئاً ووضعتها
جميعها في حقيبة واحدة، وأوصتني أن يفتح كل واحد هديته بيده، وقد نسيت أن

أخبر صحو بذلك. ستجدينها تحت السرير فقد كُنا مشغولين بالجنازة وحين اتصلت به قالت لي راشيل بأنه ذهب إلى فلسطين.

حين ذهبت الممرضة وأصبحت إيليك وحدها مجدداً تذكرت ما قالته آني للممرضة بأنها ستزورها بأحلامها، وفي الحقيقة لم تكفّ آني عن زيارة إيليك في الحلم، لكنها لم تجرؤ أن تخبر تسوغيك بأن آني قد طلبت منها في الحلم العودة إلى مارسيليا.

حين دخلت غرفة آني وجدت على السرير فستانها الأخضر الذي خاطته بيدها حين كانت تخطط الفساتين للنساء ببراعة، فلم تكف عن قول أنّ الأرميني أينما وجد يبرع بعمله حد التطرف، وكي لا يمدّ يده لأحد. وأكثر ما كان يزيد من عنفوانها حين تتكلم عن الأرمن أمامها أنه لا يوجد أرميني يمد يده لأحد لذلك يجب أن يتقن أيّ عمل يقوم به.

نظرت إلى كرسيها الفارغ وإلى الطاولة الصغيرة التي كانت تحتوي على أشرطة شارل أزنافور وإلى تمثال العذراء التي كانت تحديق بسرير آني الفارغ. أخرجت الحقيبة من تحت السرير.

كانت يداها ترتجفان وشعرت أنّ آني موجودة في الغرفة، وتراقبها ألم تظهر لها في الحلم وأمرتها بالعودة ؟!!!!

فتحت الحقيبة كانت اللعب مغلفة ومكتوب على كل علة اسم الشخص الذي ستسلم له. أخرجت إيليك علبتها وعادت طفلة تفرح بالهدايا وتنتشي بفتحها.

فتحتها سريعا كهدية عيد الميلاد. وجدت دفترا أسودا فتحت إيليك الصفحة الأولى.
كان كل شيء مكتوب بالأرمنية إلا فقرة واحدة بالفرنسية.

- Je vais vous dire quelque chose.

Vous allez toujours garder le contact avec vos enfants، avec votre famille، avec vos proches.

Les morts ne sont pas morts.

Les morts ne sont pas sur la terre، ils sont dans l'air qu'on respire.

Ils sont dans l'eau qui coule du robinet de la cuisine.

Ils sont peut-être sur le lit avec nous.

(la dernière leçon).

" سأقول لك شيئا :

ستبقين دوما على اتصال مع أبنائك مع عائلتك، ع أقربائك.

الموتى لا يموتون

الموتى ليسوا على الأرض، هم في الهواء الذي تتنفسه

الموتى في الماء الذي يسيل من صنبور المطبخ

ربما يكونون معنا الآن على هذا السرير ". (الدرس الاخير)

هذا مقطع من فيلم (الدرس الأخير) طلبت من ليفون أن يأخذني إلى السينما في أول عرض له، فقد صرت أعشق السينما بفضل آوديس.

قصة الفيلم أنّ عجوزاً قد تجاوزت الثمانين وفي يوم ميلادها أعلنت موعد موتها أمام أبناءها. في البداية اعترضت ابنتها، وحاولت إقناعها لكنها أرادت أن تموت بكرامة بدون أن تصل إلى اليوم الذي ستبدّل لها فيه ابنتها الحفاضة، أو ينتهي بها المطاف إلى سرير في دار المسنين، تشكو دوما من البرد والحنين.

وفي النهاية قد تقبلت الفتاة قرار أمها وساعدتها في ذلك وأمضت معها الشهرين الأخيرين بفرح. أرادت العجوز أن تموت بفرح.

ستساءلين يا إيليك لماذا أكتب لك كل هذا، فأنا لست كملك العجوز التي تخاف العجز فقد بقيت قوية حتى حين تجاوزت المائة. أتعرفين لماذا لأني اخترت الموت ورأيت وأنا صغيرة، فلم أعد أخافه أصبح بالنسبة لي شيئاً عادياً حين رأيت عمي تغرق نفسها في النهر، وحين كان أحد طفلها يرفع رأسه كانت تعيده إلى الماء، كانت تفضل أن تقتل طفلها بيديها على أن يقتلهم الجنود أمامها.

قد رافقتني طيلة أيام حياتي، ولم تخذلني حتى عندما تزوجت نديم سرا، أكثر شيء خذلني به حين ذهبت مع تسوغيك ولم تكثرني بموعد موتي لأن العجائز بنظرك حين يكبرون لا يفكرون إلا بالموت.

اخترت لك هذا المقطع لأني سابقي معك دوما وسأبقى حية وأتنفس معك.

كتبت كل شيء هنا وبدأت بالموت لأنه بالنسبة لي هو سر الحياة لأنه كان أول اختبار لي.

قد كبرت لكن ذاكرتي ظلت حية.

سأموت وستبقى ذاكرتي حية.

(١٩)

أربد ٢٠١١

-الأخت سما قد تأخرت اليوم في الاستيقاظ.

كان ذلك صوت الممرضة رنيم

-حقا كم الساعة ؟

-إنها التاسعة أخبرت الراهبة الرئيسة وأخبرتني أن لا أزجحك

-أيقظتني حقاً عند الفجر ؟

-نعم وطلبت مني أن أحضر لك كتاب (خبزنا اليومي).

-آه تذكرت

لكن في الحقيقة لم تذكر سما ذلك مع أنها وجدت الكتاب بجانب سريرها.

كتبت في دفترها كما أوصاها الطبيب أن تكتب كل شيء.

فكتبت أول جملة قبل أن تنهض من السرير : الرب معي فلن ينساني.

بعد ان ارتدت ثيابها وذهبت للصف بانتظار الطلاب فالיום لمدارس الأحد فقد كانت تلك الحصة الأخيرة، فقد نصحتها الطبيب بالراحة. تذكرت حلمها الذي جعلها تمكث في السرير بدون أن تسمع نداء أحد، قد حلت به، بملامحه بشكل أصابعه التي أدمنتها، كانت تفكر به دوما ولكنها لم تحلم به إلا بالراحة.

حين جاء الطلاب فتحت الكّاب وبدأت بالقراءة :
(اجمعوا أولا الزوان واحزموه ليحرق، وأما الحنطة فاجمعوها إلى مخزني)
إنّ الله يتيح لنا فرصة الاختيار لنكون إما حنطة أو زوانا.
الزوان لا يخضع لقواعد الزراعة بل بذوره تنتشر بواسطة الريح، وفي أيّ مكان تسقط فيه بذرة تنمو ثانية، وقد يبدو الزوان جميل المنظر، ويجذب كثيرا من الزوار.
والنبات يدعى زوانا حين يعوق نمو النباتات الجيدة والتي تستخدم كطعام، أما القمح فيبقى في المكان الذي غرسه فيه الزارع، ولا يعطي محصوله إلا لزارعه فقط حتى يستخدم لإطعام الآخرين.

لكم أن تختاروا إما أن تكونوا الزوان الذي قد يكون جميل المنظر من الخارج وتسلكوا حسب رغباتكم الشخصية بعيدا عن الله، أو تكونوا كالقمح تطيعون وصايا الله وتخدمونه ويستفيد منكم الآخرون. لكن لا تنسوا أنّ الزوان في النهاية يُحرق أما الحنطة فتجمع إلى المخازن.

قبل أن تطلب منهم الخروج طلبت منهم أن يصلّوا معا : آبانا السماوي من فضلك
ساعدنا أن نكون كالخنة نطيع أوامرك، ونفيد الآخرين.
آمين.

بقيت سما في الصف وفتحت الدفتر وكتبت : كي لا أنسى اليوم كانت موعظتي عن
الزوان والحنة مع أن الجميع يظن أنني كالحنة أردتي ثياب الراهبة كي أردتي الله
طريقا لكنني أعرف أي زوانة منذ ذلك اليوم منذ أن أصبح عمري سبعة عشر عاما،
ونضجت رغبتني وعرفته وأدمنته أنا الزوانة التي يعجب الناس بمظهرها قد ارتدت
خطيئتها مبكرا ولم يكن هناك مسيحيا ليقول لها : من كان منكم بلا خطيئة فليرحمها.
وكأن الزهايمر كان عقابا لي كي أنسى تفاصيل حياتي اليومية وأذكر خطيئتي، فريض
الزهايمر ينسى ما يحدث معه ولكنه لا ينسى ما حدث معه في طفولته.

عادت سما إلى غرفتها وكانت الراهبة الرئيسة بانتظارها.

-سما.. عليك أن لا ترهقي نفسك. قد تعبت كثيرا حين جئت إلى هنا منذ زمن كان
عمرك عشرين عاما. كنت تعملين للرب بجد بدون تعب أو ملل واليوم عليك أن
تستريح قد خدمت الرب بكلك.

-وكيف أستطيع أن أستريح من الرب ؟

-أعرف أن ما أطلبه منك ليس بالسهل، ولكنك الآن مصابة بالنسيان المبكر، ويجب
أن تحتفظي بذكرياتك. تستطيعين أن تساعدي الأطفال بدعائك لهم من قلبك.

حين ذهبت الراهبة الرئيسة اقتربت الممرضة ريم من سما وهمسست لها

- قد اتصل بي الناشر وقال لي أنّ كتابك هو الأكثر مبيعا.
- أيّ ناشر؟
- ابتسمت رنيم وأعادت عليها القصة كي تذكرها كما قال الطبيب لرنيم إذا نسيت سما أمرا ما بأن تذكرها في كل مرة وأن تروي لها ما حدث بالتفصيل.
- فتحت سما دفترها وتذكرت اسم الناشر.
- حقا؟
- نعم ويريد أن يتعرف عليك.
- لا يا رنيم هكذا كان اتفاقنا منذ البداية بأن لا يعرفني أحد.
- بالطبع وقد سألني عن الجزء الثاني.
- قد بدأت بكتابته ولكن ليس هذا هو الوقت لنشره،قولي لي هل بعثت المال لعمار؟
- نعم
- قال إنه سيذهب لفرنسا لمدة أسبوع ويعود
- سأتصل به مساء
- سأنزّل إلى الحديقة مساء وأكله.
- كُتبت سما في دفترها : الآن جميع الناس قد أصبحت شاهدة على خطيئتي.
- سأكتب سأكتب كي لا أنسى.
- أستضع يد الرب كتابي في يده ؟

بقي السؤال معلقا في الدفتر بلا إجابة.

(٢٠)

إيطاليا ٢٠١١

-وجود هذا الطفل يخنقني في هذا البيت ولا أستطيع الزواج بوجوده
كان ذلك صوت عمي مصطفى.

نهضت جدتي

-لا تخف سنذهب إلى الأردن عند أبيه.

-ولماذا لا تبقين أنت ويذهب هو عند أبيه ؟

-لا لن أتركه وحده

-تقصدين أنك لن تتركي نديم وحده، طالما أحببته أكثر مني وغفرت كل أخطاه.

-يّمى لا تعيد نفس الأسطوانة ما بكفي إلو الولد بعيد عن أبوه سنة.. خلص بدّي

أروح أصلي المغرب.

كانت تلك عادة جدتي عندما تريد أن تنهي حديثاً ما بأن تنهض للصلاة أو هكذا هي دوماً عندما يتحدث أحد عن أبي نديم فلم تناديه يوماً إلا (فستقة قلبي).
لم أكره عمي مصطفى يوماً، فلم يكن لي أي ذنب بشعري الأشقر وعياني الزرقاوان اللتان تذكراهما بأبي نديم.

جهزت جدتي الحقائق في نفس اليوم ولم توقفها توسلات عمي -انتظري كي تحضري زفافي.

- تنهى إن شا الله بس أنت قلت ما بدك هالولد ولك يصحلك تجيب مثلو
- ما إني عارفة كل القصة.
- آه، ولا مهّي هديك يلي ما بتسمى شافتو أشقر وعيوني ملونة لعبت يراسو..
- خلص تزوج وانبسط هيني تاركك البيت كلو.
- كنت بانتظارها عند الباب.

-هات إيدك يمي تعال اس منروح عند أبوك نديم.
حدقت بعيني عمي مصطفى الذي لم يتفوه بحرف ولم يكثر لوجودي.. لوحته له بيدي الصغيرة وقلت له بصوت منخفض

-مع السلامة بابا مصطفى

نهرتني جدتي

-هاد يمي مش أبوك.. أبوك نديم وبس.

رأيت دمة في عيني عمي مصطفى

-حرام عليكى يى هاد ولد صغير

-اس عرفت !!؟

اقترب عمي مصطفى مني ووضع يده على رأسي فاحتضنته بشدة، لكنه ظل صامتا فلم تستطع يداي الصغيرتان أن تجعلانه يبادلني الحنو نفسه.
لم أصدق ما قالته جدتي لي وظننت أنها قالت لي أن نديم أبي لأنها كانت غاضبة من عمي مصطفى.

حين تحركت السيارة همست لجدتي

-لماذا قلت لي بأن أبي مصطفى ليس أبي، وأن عمي نديم هو أبي؟

تهددت جدتي

-اسمع يا روحي كل الأولاد عندهن أبو واحد وانت عندك اثنين... أنا بس قتلتك هيك لأني كنت زعلانة منو.

لم أفكر كثيرا بكلامها بل نظرت من الشباك وفرحت لأني لي أبوان ليس بكافي أطفال العالم، فإذا يعني ذلك لطفل لم يتجاوز الخمس سنوات وحين كبرت وعرفت متأخرا تمنيت لو كنت بكافي الأطفال الذين لديهم فقط أب واحد لا أكثر.

لم يزغني أدامو بوجوده حين يعود كان يحضر الشوربة ثم يفرش سجادة التأمل ويبقى لساعات صامتا. سألته:

-جدي أدامو كيف نستطيع التخلص من الماضي ؟

نظر إلي وقال لي بالايطالية

- Devo farmi le ossa

ومعناها الحرفي : عليّ أن أرمم عظامي، أي أن أغير جلدي وأولد من جديد
ظلت جملة أدامو في رأسي وأنا عائد إلى فرنسا بخفي ذكريات وبحمولة أحزاني.

(٢١)

اربد ٢٠١١

ذهبت رنيم وسما إلى ساحة المدرسة. قالت سما :

-هيا اتصلي

بحث رنيم عن اسم عمار، وحين سمعت سما صوته، أخذت الهاتف بسرعة من يد رنيم

-لماذا لم تتصل بي عندما وصلت ؟

-قد اتصلت بك عندما وصلت.

-آه كان الهاتف مع رنيم. كيف كانت رحلتك إلى فرنسا ؟

-كما وصفتها لي مدينة الحب وقد أجريت حوارا مع مخرج مهم، وأعطيته كتاب الراهبة
الغامضة.

-هل أكلت جيدا ؟

-لا تخافي علي يا معلتي أحبك كثيرا.
جلست سما على الرصيف وبدأت بالبكاء فقد تظاهرت بأنها تذكرت بأنّ عمار اتصل
بها ولكنها لم تتذكر شيئا.
قالت له رنيم :

-إنّ سما تنسى كثيرا وقد ذهبت إلى الطبيب، لا تخبرها بأنك عرفت إلا عندما تأتي
لزيارتها.

-أتقصدين الزهايمر ؟

-نعم إنه الآن في مرحلة مبكرة.

-سأتي غدا لزيارتها.

حين انتهى عمار من المكالمة جلس في سريره صامتا فاقترب منه صديقه (يوسف)
الذي يشاركه السكن نفسه والغرفة نفسها منذ ثلاث سنوات ونصف الذي جاء من
فلسطين للدراسة.

-ما بها معلتك الخونة ؟

-يوسف كفّ عن مزاحك.

-ما بك أيها الشاب الأشقر ؟

-إنها مصابة بالزهايمر المبكر ولا أظن أنّ له علاج.

رَنَ هاتفه مرة أخرى

-آلو عمار الحوار الذي أجرته مع المخرج في فرنسا يجب أن يكون جاهزا غدا.

-إني على وشك الانتهاء منه.

أخرج عمار الحوار من حقييته، فقال له يوسف حين تمدد في سريره.

-يا لك من محظوظ تذهب إلى فرنسا وتجري حوارا مع أشهر المخرجين هناك وحوارك سينشر في أول صفحة من الجريدة.

قال عمار: متهمكا :

-وماذا بعد ؟

-شاب أشقر كالفرنسيين تعجب به جميع الفتيات.

-ألا ترغب بالنوم يا يوسف ؟

-حسننا لا تنس أن توقظني في السابعة، فبقي لدي مادة لم أسجلها أظن أنني سأخذ مساق اللغة الفرنسية. مكره أخاك لا بطل وأنت ؟

أجابه عمار بعد أن أزاح سماعة الأذن

-مدخل إلى اللغة الفرنسية ؟

-ماذا ؟!!!!

-إن لم أسجل في تلك المادة سيتأخر تخرجي فصلا كاملا.

وضع عمار السماعة مجددا في أذنه كان يصغي إلى ترتيلة وهو يفتح الحوار ولم يكف عن التفكير في سما التي علمته إياها حين كان في الصف الرابع، كان ذلك في عيد الأم حين قال لها أنّ ليس له أم فكانت إجابتها : كيف ذلك وأمك مريم العذراء، رتل لها دوما ستصغي إليك وتحميك. ومنذ ذلك اليوم تعلق بمريم العذراء.

اطفاً النور وانكش على نفسه في السرير، وهو يردد مع سما ويناجي أمه كما اعتاد أن
 يفعل ذلك قبل أن ينام.
 يا أمنا يا أمنا يا مريم العذراء
 شريكة أنت في الفداء
 شفيعة لنا يا أمنا في اليسر والصعاب
 يا أمنا.

(٢٢)

اربذ ٢٠١١

-مم ما أطيب طعمها.
 قالت ذلك تسوغيك وهي تتلذذ بطعم الكبة في فها.
 -صحّة وهنا
 قالت تسوغيك: لحنين وهي تلم الصحون
 -لم يعلمني صحو هذه الكلمات الجميلة
 ضحكت حنين من قلبها وبدأت بالغناء حين سألتها تسوغيك من المطبخ إذا كانت
 تريد تفاحاً
 ع الروزاناع الروزانا كل الهنا فيها
 شو عملت الروزانا الله يجازيها

يا رايجين ع حلب حي معاكن راح
يا محملين العنب تحت العنب تفاح
جاءت تسوغيك فرحة ويدها صحن التفاح:
-أعيديها حنين أرجوك أريد أن أحفظها
-لهذه الأغنية قصة.

-حقاً؟ كم أحب الأغاني العربية فلكل أغنية حكاية.

-تقول الرواية أنّ ولايات بلاد الشام تعرضت لمجاعة كبرى خلال فترة الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨ وذلك بسبب الحصار الاقتصادي الكبير الذي فرضه الحلفاء على شواطئ الولايات العثمانية في سوريا، وكانت الدولة العثمانية قد منعت مسبقاً تلك الولايات من استيراد أو تصدير أيّ من السلع والمنتجات الغذائية وسخّرت جميع موارد تلك الولايات في خدمة الجيش العثماني، وبسبب ندرة القمح في جبل لبنان فقد عانى أهله من مجاعة حقيقية لعدم توفر الخبز كما عانوا من كساد لبضائعهم من العنب والتفاح. ويذكر أنّ سفينة إيطالية تدعى (الروزانا) حاولت كسر هذا الحصار وحملت القمح لأخذه إلى جبل لبنان إلا أنّ الباخرة لم تصل إلى الشواطئ اللبنانية بسبب تحولها إلى سفينة للحلفاء الرابضين على الشواطئ الشامية.

ورغم القحط الذي كانت تعانيه حلب في تلك الفترة إلا أنّ التجار الحلبيين قرروا نصرة إخوانهم في لبنان وقاموا بهريب القمح بشكل كبير إليهم، وشراء سلعهم من التفاح والعنب قبل كسادها وهذا قد أنقذ اللبنانيون من مجاعة كبيرة.

أما الرواية الثانية أنّ السفينة هي سفينة عثمانية اسمها روزانا وقد كانت محملة عنباً وتفاحاً، وحيء بها إلى بيروت لتبيع كل إنتاجها بدل إنتاج المزارعين اللبنانيين وهو ما حصل أفسد الانتاج اللبناني ليأتي تجار حلب ويتضامنوا مع اللبنانيين ويشتروا كل محصولهم وينقذوهم من المجاعة وقد أرسلت صناديق التفاح لحلب مغطاة بالعنب للتمويه.

ضحكت تسوغيك وهي تقشر التفاح.

-لو أنّ جدتي آني سمعتك الآن لفضلت الرواية الثانية.
-كونكم أرمن؟

-بالطبع ليس كل الأرمن بكجدي آني، فقد قتلوا أمها أمام عينيها لذلك لم تستطع النوم لسنوات عدة.

-عن ماذا تتحدثين بالضبط؟

-عن مذبحّة الأرمن التي جرت على يد العثمانيين.

-آه ولم تعترف بها إلى الآن.

-كنت دوماً على خلاف مع جدتي آني، ولم ألمها يوماً، فقد شهدت المذبحة أمام عينيها لهذا كان موقفها حاداً لا يقبل التبرير فلم أنس مقولتها: عيون الأطفال لا تكذب وصوت أمي لا يموت في رأسي.

-إنها قصة حزينة

- سيأتي يوم وأروي لك ما حدث. أودّ أن أطلب منك شيئاً، قد بدأ دوامي في الجامعة وقد فاجأتني أُمي بسفرها. هل أستطيع أن أضع باتيل عندك ريثما أجد حضانة ؟
- من عيوني.

ضحكت تسوغيك وهي تعيد ذات الجملة.

قالت حنين :

-وأنا أريد أن أبحث عن عمل.

-ما هي مؤهلاتك ؟

-ثانوية عامة.

-اصبري قليلا ريثما أكوّن بعض الصداقات في الجامعة كي يساعدونا.

جاءت باتيل مسرعة

- je suis en train de parler avec papa sur Skype

(إني أكلم أبي عبر السكايب)

- d'ccord

- Il me lit des passages de la bible

(إنه يقرأ لي من الانجيل.)

قالت تسوغيك ساخرة

- il va lui lire toute la bible

(سيقرأ لها الآن الإنجيل كله.)

حين سمعت تسوغيك صوت آلان وهو يسعل سألت رنيم.

-ألم يشفى بعد؟

-لم ينتهِ بعد من الدواء الذي اشتريناه.

جاءت باتيل مع آلان عندما انتهت من الحديث مع ليفون، ركض آلان سريعا إلى حضن حنين، أما باتيل فوقفت في منتصف الصالة وكأنها تمثل دورا في مسرحية.

- Maman، tu sais ce que papa m'a raconté ?

(ماما هل عرفت ماذا روى لي أبي؟)

قالت تسوغيك: بلا اكتراث

-je m'en fou

(لا أكرث بذلك)

لكن باتيل استمرت بالحديث.

-l'histoire de Jonas et le gros poisson

(قصة يوناان والسمكة الكبيرة)

بدأت باتيل تمثل القصة.

-Quand Jonas s'est jeté dans la mer، un gros poisson avait trop faim il l'avalait mais Jonas est resté vivant pendant trois jours dans le ventre du gros poisson

(عندما رمى يونس نفسه في البحر جاءت سمكة كبيرة وابتلعتة لأنها كانت جائعة، لكن يونان لم يميت وظل في بطن السمكة ثلاثة أيام. إنه قوي.)
قالت تسوغيك: :

-إنها تروي قصة النبي يونان أو يونس.

قالت رنيم

-حين بقي في بطن الحوت ثلاثة أيام
أكملت باتيل .

-papa m'a dit que Jésus est comme Jonas, il est resté sous la terre pendant trois jours.

(قال لي بابا أنّ المسيح مثل يونان بقي تحت الأرض ثلاثة أيام.)

قالت تسوغيك: بسخرية وكأن ليفون الذي أمامها.

-Dis à ton papa si Jésus est comme Jonas, pourquoi donc Jésus était mort pour trois jours sous la terre et Jonas était vivant pendant trois jours dans le ventre du gros poisson. comme ton papa est idiot !

(قولي لأبيك إذا كان المسيح مثل يونان لماذا إذن كان المسيح ميتا تحت الأرض لثلاثة أيام، ويونان كان حيا في بطن الحوت. كم هو أبله !!!!)

تداركت تسوغيك نفسها حين نظرت إلى وجه باتيل التي لم تفهم ما قالته، وأنّ التي أمامها باتيل وليس ليفون، وكان النقاش في الإنجيل من أكثر الأسباب التي كانت تسبب خلافا بينهما فحين كانت تطلب منه تفسيراً لأسئلتها فيعيد عليها الآية نفسها بدون أيّ تفسير.

قالت حنين:

-إنّ سيدنا يونس عليه السلام بقي في بطن الحوت حيّاً وكان الحوت أرحم به من الناس، وكان يردد وهو في بطن الحوت دعاء واحداً: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. وفسرت لتسوغيك معنى الدعاء.

فسألت تسوغيك بدهشة :

-أيقول عن نفسه ظالم ويلوم نفسه وهو في بطن الحوت؟ ما أجمله من تواضع فليأت ليفون ويسمع ذلك. ابتسمت حنين :

-أظن أنّ ليفون يحبك كثيراً

-آه...رباه... وكيف عرفت ذلك؟

-الذين يحبوننا لا يملكون القدرة عن التعبير عن عواطفهم كما يفعل الغرباء، إنّ ليفون يعرف طباعك جيداً وهو على ما أظن كالأطفال، أقصد يتصرف على طبيعته ويظن أنك تفهمين تصرفاته ووجه لك.

-آه كفي عن ذلك يا حنين، أظن أنك تتحدثين عن شخص آخر غير ليفون، قلت لك مرارا إنه أبله، إنه يشبه الأول على صفه لا يطيع إلا كلام أمه، ويجب أن يفعل الصواب دوماً، سأقول لك شيئاً إنّ لديّ أصدقاء شاذين ما يسمونهم هنا بـ gay. قالت حنين بدهشة :

-أتقصدين من يحبون نفس الجنس ؟

-نعم أنا لا يهمني من يحبون، وكيف يتصرفون يكفي أنهم أصدقاء أوفياء، ولا يحكمون عليّ كـ "ليفون" وقد كُنا نتشاجر حين أخرج معهم بقوله : إنّ هؤلاء سيدخلون النار ولا يستطيعون أن يعدّوا طريق الرب وكأنه هو وحده من يستطيع أن يعدّ طريقه. قالت حنين وهي تستغفر:

-يبتلعن حمى معو حق جوزك... شوفي الله نزل فيهن عقاب.. بيي ولي ع قامي.
-أعرف رأيك مسبقاً بهم، ولست هنا للدفاع عنهم، ولكنني أكره من يضعهم حجة كليفون كي يحكم عليهم ويدخلهم النار، ويدخل هو الجنة وحده.
فرنسا ليست كسوريا أو هنا، هناك نستطيع أن نناقش أيّ شيء..

واحد من أصدقائي قد اغتصبه أباه وهو صغير ويرغب أن يتغير. ما أريد قوله أنّ علينا ما دمنّا نحن الأصحاء والمستقيمين كما يقولون أن نقف بجانبهم كي يخرجوا من محتهم لا أن نشتمهم ونبذهم.

-معك حق الله يهدينا جميعاً.

كانت حنين تسمع هذا الكلام لأول مرة ولم تفكر يوماً أن تكون مثل تسوغيك
وتعاطف مع فئة كهذه وأن تتقبل وجهة نظرها.
وحده سعال آلان من أوقف دهشتها وذكرها بموعد دواءه.

(٢٣)

أربد ٢٠١١

-في أي يوم نحن ؟

-الأثنين.

بعد خمس دقائق أعدتُ السؤال على رنيم مرة أخرى، أظن أنني لم أعد أكرث بالزمن
وصار الزمن بالنسبة لي هو الله.

ذاكرتي تصبح قوية حين أستعيد ذكرياتي وأنا صغيرة.
أتذكر حين جاءت الراهبة (رفقا) إلى بيتنا في لبنان، كان عمري عشر سنوات كنت
مفتونة بثوبها الذي يميزها عن النساء الأخريات، كانت تأتي كل خميس لتلمّ التبرعات
من أهل الحي.

سألت أمي :

-هل يمكن للراهبة أن تتزوج ؟

-لا لأنها قد تزوجت من يسوع.

-وهل يسوع متزوج من جميع الراهبات ؟

-اسمعي يا ابنتي هذا زواج روحي وليس جسدي، إنهن ينشغلن فقط بيسوع.

-الراهبة تقول أنّ الرب هو الذي ناداها لتصبح راهبة، ولماذا لا يناديني ؟

-وهل ستلي النداء ؟

أجبت بلهفة نعم.

أظن أنّ أمي قد نسيت الحوار الذي بيننا ولكنني لم أنسى أردت الزواج بيسوع.

حين أصبح عمري اثني عشر عاما طلبت من أمي أن نذهب للدير، وأن أخضع لفترة

اختبار لمدة ثلاث سنوات كي يختبروا قدرتي على الصبر وتحمل العيش في الدير.

كانت أكثر الأماكن إثارة وغموضا هو سكن الراهبات الذي يفصله عن العالم

الخارجي وباقي الأماكن بالدير، بوابتان الأولى صغيرة تفصل حرم الدير عن باقي

الملحقات به يليها بوابة هي مدخل الدير ويتم إغلاقها بشكل محكم يمنع دخول أو خروج أحد من الدير.

كان يوجد تسعين راهبة وستين يخضعن مثلي تحت الإختبار، ولم يكن يسمح لأحد بالدخول إلى سكن الراهبات إلا بإذن الراهبة الأم.

قالت الأم الرئيسة :

-إنّ الهدف الروحي الأساسي لكل الرهبان هو خلاص نفوسهم، وكي يكون الفرد راهبا عليه أن يقوم بعملين :

١- يأخذ عهدا على نفسه بأن يقول : (في حضور الله، في هذا المكان المقدس، أنا أوثق ما أقوله، وأشهد بقمي بأني لن أدنس جسدي بأيّ طريقة، ولن أسرق ولن أنطق بشهادة كاذبة، ولن أقوم بعمل أي شيء مخادع سرا، وإذا تجاوزت ما تعهدت به فأنا سوف لن أرى ملكوت السماوات، ولكني لن أدخله بسبب أنّ الله الذي قررت هذا العهد في حضوره سوف يهلك روحي وجسدي في نار متقدة لأنني نقضت العهد الذي قررته.

٢-ترك المقتنيات : على الرهبان أن يتركوا مقتنياتهم عند دخول الدير، ويستردونها إذا أنهوا علاقتهم بالدير أو طردوا منه.

رفعت يدي :

-ومن يطرد من الدير ؟

نظرت إلى الراهبة

-من لا يحب الله من كل قلبه، ولكي نحب الله من كل قلوبنا، علينا أن نؤمن بأنه يبادلنا الحب ذاته، وأنه يحبنا كما نحن.

سألت الراهبة الأم :

-ما هي الرهينة ؟

رفعت يدي بشوق وبشغف لكنها كانت تتعمد أن تبقيني إلى النهاية، وكأنها تتجاهلني، وبالنهاية قد أشارت لي بالحديث.

-الرهينة هي الموت عن العالم، والحياة الدنيوية تشبه قبضة الريح والإنسان الذي هو من يتركها سعيًا لنيل الحياة الأبدية مع المسيح. أظن أنّ هذا القول لإحدى راهبات دير دميانة.

تهددت الراهبة الأم وظننت أنّ جوابي لم يعجبها وحين انتهى الدرس طلبت الراهبة الأم من أمي البقاء.

قالت لها :

-إنّ ابنتك لديها الشغف الكافي كي تصبح راهبة.

صمتت أمي لأنها لم تكن تحب أن تسمع ذلك لأنّ خالتي قد أصبحت راهبة، فلم تكن تهاتفها أو تراها إلا مرة بالسنة أو أكثر من ذلك، فالراهبة تنفصل كليًا عن العالم الخارجي، وكانت أمي تخشى أن لا تراني مثل خالتي وقد كنت ابنتها الوحيدة.

لو أنّ أُمّي لم تذهب بي إلى فرنسا، لو أنّ الراهبة الأم حبستني في الدير وبقيت هناك إلى أن أعجز عن الحركة ويُبَيِّض شعري الأشقر، ويهرم جسدي وأذوب كلياً في الرب.

لو أنّ أُمّي

لكن أُمّي أرادت أن تقصيني بعيداً عن الدير، عن خالتي الراهبة وعن الراهبة رفقا. أرادت أن أذوق الخطيئة، وأن أحب أحداً غير يسوع. لم ترد أن تدبل أنوثتي خلف جدران الدير، وأن تدبل هي من الوحدة خلف جدران بيتنا.

(٢٤)

أربد ٢٠١١

-ma belle

(حلوتي)

وضعت تسوغيك أنفها على خد باتيل. تمللت باتيل في السرير فرحة.
 فتحت تسوغيك الخزانة واختارت لباتيل فستانا ووضعت على السرير.
 نظرت الى الساعة كانت تشير إلى الثامنة صباحا، ذهبت إلى المطبخ، وأشعلت إبريق
 الماء الكهربائي ... صنعت الكورنفلكس لباتيل، ووضعت الصحن على الطاولة،
 وصنعت لنفسها النسكافيه وصبته في كوبها المعتاد.
 جاءت باتيل

-il est tot pour se lever، les oiseaux sont encore endormis

(إنّ الوقت ما زال مبكرا، والعضاير ما زالت نائمة.)

-mange vite، tu vas passer la journée chez tante Hanine

(كلي سريعا، ستقضي اليوم عند الخالة حنين.)

-tu vas t'amuser et moi je vais rester à la maison، ce n'est pas
 juste

(ستذهبن وتسلين، وسأبقى أنا في البيت. هذا ليس عدلا)

ابتسمت تسوغيك

-d'acc، allons nous brosser les dents

(حسننا هيا لتنظف أسناننا.)

كانت باتيل تضحك، وهي تنظف أسنانها وهي تغني

Frère Jacques frère Jacques

Dormez vous dormez vous

رسمت بالمعجون على خد تسوغيك وضحكتك معا.
ألبستها تسوغيك، ومشطت لها شعرها

-prpmets moi d'etre sage

(عديني أن تكوني عاقلة.)

-d'acc

(حسنا)

ارتدت تسوغيك ثيابها بينما كانت باتيل تلعب على آيادها.

كانت حنين مستيقظة

-لا أدري كيف سنتفاهم معا ؟

ابتسمت تسوغيك

-لا تقولي ذلك إنها كالشيطان حين تجوع، تذهب إلى المطبخ سريعا أو إلى الحمام،

وضعت لها في الحقيبة السندويشات..

مسكت تسوغيك يد حنين

-شكراً من قلبي.

-وأنا أيضا.

نزلت تسوغيك الدرج بعد أن ارتدت الحقيبة على ظهرها، ووضعت سماعة الأذن كي تسمع فيروز، فقد كانت فيروز أجمل تمرين كي تعتاد على اللهجة المحكية. كانت تتنشق الهواء البارد بفرح.

إنها الآن حرة، لا أحد يثقل عليها بالأسئلة، والأوامر أو يتتبع خطواتها وتصرفاتها. كانت تردد مع فيروز (يا أنا يا أنا وياك... صرنا القصص الغريب) كان بيتها قريبا جدا من الجامعة، ولأنه كان أول يوم دراسي بعد أسبوع السحب والإضافة، أرادت أن تصل مبكرا إلى الجامعة كي تعتاد على جو الجامعة. اجتازت البوابة الجنوبية، ولم تكن بحاجة لسماعات الأذن، فقد كان صوت فيروز يملأ المكان من الكافتيريا أو من هواتف الطلبة الجالسين على الأرضية. قد أعطاهما رئيس القسم مفتاحا للمصعد، فلم يكن يسمح إلا لأعضاء الهيئة التدريسية باستخدام المصعد، ولكن تسوغيك كانت تفضل صعود الدرج إلى قسم الآداب في الطابق الرابع كما كانت تفعل في فرنسا، فقد كانت تشعر بأنها حرة وطيقة عندما تستخدم الدرج.

وجدت إعلانا بوجود اجتماع لأعضاء الهيئة التدريسية في الرابعة عصرا. كان القسم يعجّ بالطلبة وقد أعادها ذلك المشهد إلى أول يوم لها في الجامعة في مارسيليا، كانت خائفة من الطلبة الجدد كما في أول يوم لها في المدرسة، كانت تشد الكاب الذي بيدها إلى صدرها كي تشعر بالثقة، وفعلت الآن الشيء ذاته.

شدّت الكّاب بقوة إلى صدرها، فقد كانت تخيفها دوما الحشود، وكانت الشخصيات التي في الكتب هم أصدقائها اللامرئيين الذي يسندونها ويحمونها كلملائكة التي لا تفارق الأطفال.

حين تزوجت ليفون كانت حقائبها مليئة بالكتب بدل الثياب وأمام دهشة آني التي قالت لها : أول مرة أرى حقائب عروس لا تحتوي على قيص نوم واحد بل على بيجامة ميكي ماوس، وعلى أحذية رياضية وكتب.

لم يدهش ذلك ليفون بل أفرغ لها غرفة كي ترتب كتبها، فلم يكن هو بحاجة إلا للإنجيل ولم يمانع ارتدائها تلك البيجامة.

دخلت إلى المكتب، فلم ترد في هذا الوقت أن تشغل عقلها بليفون. كان المكتب يحتوي على طاولة أخرى، وعرفت من الكتب أنها لمعلم أو معلبة إسبانية. نظرت إلى الساعة بقي عشر دقائق، وتبدأ المحاضرة .

كانت تتعجب من نفسها كيف تخاف من الناس، وتتوارى بالكتب لكنها في العمل لا تخشى أحدا ولديها القدرة على أن تعطي محاضرة لمئة طالب، فتختفي تلك الفتاة النجولة، وتظهر فتاة أخرى تدهش منها تسوغيك نفسها، فتاة بكامل ثقتها تنظر إلى عيون الطلبة حين تتحدث معهم.

أخذت الكّاب وقلم الصبورة وأغلقت المكتب.

كانت المحاضرة في الطابق الثالث في قسم الصحافة والإعلام.

أخرجت الورقة التي أعطاها إياها رئيس القسم بحثت عن رقم القاعة انها ٣٠٧.

كان الطلاب في انتظارها أمام باب القاعة.
 إنه هو بعينه العسلتين، وشعره الاشقر ولحيته الخفيفة.
 إنه هو نفس الشاب الذي رآته قبل شهر أمام مدرسة الراهبات الوردية.
 عادت تلك الفتاة المحجولة بارتباكها، شدّت الكّاب إلى صدرها وتوقف الكون مجدداً.

(٢٥)

باريس ٢٠١١

أتذكر حين جاء أبي نديم لاستقبالنا أنا وجدتي، كان فاتحا لي ذراعيه ركضت إليه مسرعا، ولم أتعرف عليه في البداية، فقد حلق شعره الأشقر، واسمر قليلا فانتبهت جدتي لذلك.

- ييببي يما ليش مسمّر شوي، وشعرك يلي مثل خيوط الشمس وين راح ؟
وضع أبي يده على كتفها.

- ما تعتلي الهم يمي البركة بصحو أشقر وعيونو خضر

حين سمعت اسمي التفتت إلي

- جدتي قالت لي بأني لي أبوين ليس ككل الأطفال.

التفت أبي إلى جدتي، وكأنه يؤنبها، وقال لها بصوت منخفض

- يمي حرام ليش قتللو مش وقتو ؟

- لا وقتو ونص سويت هيك جكر بمصطفى... خليه يتزوج وأصلا فكرني بمزح.

رأيت الدمعة في عيني أبي الذي كان جالسا في الكرسي الأمامي، فقد جاء مع صديقه

في العمل أشار إلي بأن آتي من الكرسي الخلفي وأن أجلس بحضنه.

سألته جدتي :

- شو بتشتغل يمي ؟

- بمحل طوب

- أه وبقول ليش مسمّر، ما تخاف كل لفلوس من بعد المرحوم خيبتهم، وإجا

وقتهم بدي أحط صحو بأحلى مدرسة، خلي مصطفى ومراتو الجديدة يطقو.

أراد أبي نديم أن يغيّر الحديث. أجلسني جيدا في حضنه، وقد أصبح وجهي مقابلا لوجهه، وأمسك يدي وأصبح يهزني ويغني
 -أعرف أنك أصبحت كبيرا على هذه الأغنية، لكني لم أغنيا لك وأنت صغير هيا
 (يا حجاج بيت الله / رز وعسل بالجرة / تؤكلهم أنا وصحو / وزمي تيتا لبرة) .
 تبادلنا الأدوار ولاعبته ومسكت يديه وغنيت له.
 ضحكك يومها من قلبي كما لم أضحك من قبل، لا أعرف كيف أصف تلك الضحكة
 التي تأتي من القلب بدون تحضير مسبق، وبدون أن نضبط مشاعرنا على إيقاع ضحكة.
 نحن نضحك كثيرا في حياتنا لكن هناك ضحكة واحدة تأتي لتوقف مشهد ما، وتجمده
 في ذاكرتنا على شكل إحساس ما، تبقى نتذكره بعد زمن، ونتمنى أن نضحك الضحكة
 نفسها من قلوبنا.

حين ولدت قالت القابلة لأمي بعد أن وضعتني بين ذراعيها.
 -سميه صحو فلم أرى السماء صافية بهذا الشكل. إنّ هذا الفجر يشبه الفجر الذي يلي
 ليلة القدر سماء بيضاء كبشرة ابنك انظري إلى عينيه، أو من أنّ مع كل ولد يولد يحىء
 معه ملاك، ويرافقه طيلة حياته ويحرسه وابنك كذلك، فعينيه ليستا حادثين ترغبان
 بالدنيا بل عينان لطفل جاء فقط للدنيا زيارة ويعلم أنه سيعود يوما ما لبيته الحقيقي،
 سيعيش وحيدا وسيجد عائلة أخرى تحتويه.
 ابتسمت أُمِّي سامية

- كم تحبين أيتها القابلات أن تحطن أنفسكن بهالة سماوية، وإنكن قادرات على كشف الأسرار.

ماتت أمي، ولم تشهد على صدق كلام القابلة.

وشهدت وحدي على كل شيء.

ولكن القابلة كذبت نبوءتها في شيء واحد، إنّ الملاك الذي جاء معي لم يرافقتي، أو أنني توقفت أنا عن الحديث معه.

أرسل صحو رسالة الى تسوغيك وهو بالتاكسي (عدت اليوم من إيطاليا، هل جاءت اليك؟)

(٢٦)

أربد ٢٠١١

حين رآته تسوغيك وتجمدت أمام القاعة أنقذتها رسالة صحو فردّت عليه سريعا : (إنها بانتظارك في مارسيليا مع كائنات آتي التي تحاصرها) .

دخلت القاعة متجاهلة وجوده وتفاجئت حين دخل إلى القاعة نفسها.
رحّبت بهم بالعربية، وكان من عاداتها أن تعرف عن نفسها كي لا يطرح عليها الطلاب أسئلة شخصية.

-صباح الخير اسمي تسوغيك وقبل أن تهطلوا عليّ بالأسئلة إني فرنسية من أصل أرمني وأتكلّم الأرمنية والفرنسية والإنجليزية ويمكنني أن أقول العربية.
يمكننا التواصل بالإنجليزية إذا لم تفهموا لغتي العربية البسيطة.

رفع أحدهم يده

-وما معنى اسمك ؟

ابتسمت تسوغيك.

-هذا الخطأ الوحيد الذي أقع به دوما معناه الندى.

ورفع شاب آخر يده :

-كم عمرك ؟

قالت تسوغيك: بسخرية

-هل هناك من يرغب بالزواج بي، لا عليكم قد اعتدت على هذه الأسئلة عمري ٢٦.

قالت فتاة من الصف الأخير

-عمرک ستة وعشرين وتتقن کل هذه اللغات ؟!!!!

تنهدت تسوغيك

- j'étais obligée

(كنت مجبرة)

وتوقفت أسألهم حين تحدثت بالفرنسية.

قالت بعد أن حلّ الهدوء

-من ذهب منكم إلى فرنسا ؟

رفع ذلك الشاب يده، والتقت عيناهما مرة أخرى مع أنها تعمدت تجاهله منذ دخولها
القاعة.

-moi

(أنا)

- tu sais parler français ?

(أأتكلم الفرنسية ؟)

- Oui

(نعم)

- Comment tu t'appelles ?

(ما اسمك ؟)

- Je m'appelle AMMAR

(اسمي عمار)

-où tu as appris le français

(أين تعلّمت الفرنسية؟)

صمت عمار قليلا ثم قال بالعربية

-في مدرسة الراهبات الوردية أعرف القليل فقط. ذهبت إلى فرنسا لمدة أسبوع في مؤتمر للجامعة.

-حسنًا سنتعلم اليوم كيف أعرف عن نفسي بالفرنسية، وكيف أسأل شخصا عن اسمه ؟

أولا السؤال هو كما سألت زميلكم عمار. ? Comment tu t'appelles

الإجابة : je m'appelle

سألت كل طالب وقد كانوا خمس وعشرين طالبا، وقرأت الحوار الذي في الكتاب.

-في المرة القادمة أحضروا الكتاب معكم.

التفت لعمار بعد أن خرج الطلاب الذي كان جالسا في الصف الأخير.

-j'ai aimé ton accent en français

(أحببت طريقتك بنطق الفرنسية)

قال عمار: وهو ينهض من مكانه.

-هذا الفصل هو الفصل الأخير لي وإني أدرس الصحافة، ولم أفكر يوما أن أدرس الفرنسية بعد أن انتهيت من المدرسة، ولكن أعدك أن أدرسها بشكل جديد ففرنسا تستحق أن نضحّي لأجلها.

ابتسمت تسوغيك، وقالت وهي تلمّ أغراضها.

-إني أكره أسئلة الطلاب الفضولية مع أنني قد اعتدت عليها

-ما زالو في السنة الأولى وإنك أجنبية.

ابتسمت تسوغيك وقالت مسرعة

-enchantée

(تشرفت بمعرفتك)

أجابها وهو ينظر إليها

-moi aussi

(وأنا أيضا)

وضع يوسف يده على ذراع عمار.

-إنها جميلة، أظن أنك تعرفها مسبقا.

-وكيف ذلك ؟

-رأيت ذلك في عينيك.

شدّه عمار من أذنه وهو يضحك

-ربما في حياة سابقة.

جلسا على الأرض.

قال عمار: :

-لن أحضر المحاضرة الأخيرة، سأذهب إلى معلتي سما.

-قلتُ لي أنها مصابة بالزهايمر.

-هكذا قالت لي الممرضة رنيم، إنها تنسى الأيام وأين تضع أشياءها.

-ألن تأتي معنا إلى العشاء؟

-لا لا أظن ذلك سأقضي معها اليوم كله.

نهض عمار وحمل كتبه.

-صباح الخير عمار.

-أهلاً ماريما.

-لم أرك منذ مدة، ولم تكتب شيئاً منذ مدة على الفيس بوك.

-حقاً؟ إني مشغول وعليّ أن أذهب الآن

أوقفه يوسف.

-كل الفتيات يحببنك وأنت لا تحب أحداً. أظن أنك شاذ؟

ابتسم عمار

-نعم وأحبك كثيراً ولا أفضل الفتيات عليك.....ههههه يوسف توقف عن هذا.

-هل ستصبح راهباً؟ ستجن الفتيات إذا فعلت ذلك.

-يوسف عليّ الذهاب. اذهب إلى صديقاتك.

سار عمار كعادته بخطى هادئة بدون أن تחדش عينيه الطفولتين أحدا.
رن هاتفه :

-آلورنيم.. أنا في الطريق إليكم.

كان يصلي لسما من قلبه، وكان يحس أن العصفير تصلي معه.
تذكر تلك المقولة من كتاب الراهبة وهو يركب بباص مجمع الدوائر وقد ظل واقفا حين
لم يجد مكانا: إنّ الذين ينسون كثيرا يتذكرون الله جيدا.

الفصل الثالث

(٢٧)

أربد ٢٠١١

عزيزي الحبيب صحو.

أتظن أنني سأتوقف عن الكتابة إليك، وقد قلت لي في المطار أنني إن توقفت عن الكتابة إليك سموت وعليّ إذن أن أقيك من الموت بالكلمات.

أمي إليك عادت إلى مارسيليا، فكما تقول هي أنّ جدتي آني جاءت في الحلم، وأمرتها بالعودة وربما أورثتها كائناتها اللامرئية.

قد بدأت الدوام في الجامعة، ولن تتخيل أسئلة الطلاب عن اسمي وشكلي وقدرتي على التكلم بأكثر من لغة، ولم يعرفوا بعد معاناتي وأنا صغيرة فقد كنت مجرد شبح عليه أن يتعلم أكثر من لغة ورغم ذلك لم أستطع أن أفهم لغة قلبي.

ما زالت أمي تحاول أن تعيد الخيط بيني وبين ليفون، إنه يعتمد أن يتصل بي ذلك الشاب الأبله ماذا يريد؟ أن أحفظ الإنجيل ونردده معا قبل النوم ؟ كي أكون زوجة صالحة ولا أكون مثال الابن الضال كما في الإنجيل.

أريد يا صحو أن أضل الطريق لمرة واحدة، وأن أرسم طريقي بنفسني، وأن أخطأ وأقع في الحفرة التي كانت تقيني منها جدتي وأمي. مللتُ أن أكون كالماريونييت بيد الآخرين.

أريد أن أقرر مصيري وأن أكون أناني لا أكثر.

أليس الله هو الوحيد الذي يرسم يديه أقدارنا، فلماذا ترسم آلاف الأيدي قدرتي؟!!!!
إنهم لم يتركوا لي الخيار بالرجل الذي سأتعري أمامه كما أتعري كل يوم أمام الله.

تحيفني تلك الفكرة أن البشر يتعرون جميعهم أمام الله وأنه الوحيد الذي يراهم في كل لحظة حتى في في أشد لحظات البشر حميمة يكون الله، فإذا كان الله يعطينا الحرية بأن نتعري أمامه كيف لا يعطينا الحرية بأن نختار الشخص الذي سنتعري أمامه في غرفة مغلقة.

عليّ أن أصمت فأظن أنّ جدتي آني تلعني الآن، فالأموات يصغون جيدا. قد جاء أناس كثر وسألوني عن شقة للإيجار، الشقة الثانية مغلقة وليس معي مفتاحها، والشقة الاولى التي على الجانب الأيمن قد أجرتها لفتاة سورية من حلب. وعلمت يوم التقيتها كم أنا غبية، فهناك في فرنسا نعيش بعيدا عن آلام الآخرين. إنها صبية رقيقة جدا كأصابع السكر لديها ابن واحد، أضع باتيل عندها ريثما أجد حضانة لها وأريد أن أعلمها العربية. إنّ سفر أمني قد بعثر أيامي.

إنّ باتيل تسأل عنك دوما وعن بابا نويل الذي وعدتها بأنه سيأتي من فرنسا لزيارتها. كان اليوم هو أول يوم لي في الجامعة، لم أصدق حكاياتك عن فيروز إلا عندما سمعت صوتها اليوم في كل زاوية من الجامعة، لا أظن أنّ أديث بياف تحظى بكل هذا الحب في فرنسا كما تحظى فيروز بكل هذا الحب هنا.

صحو... أريد أن أقول لك شيئا وعدني أن لا تخبر أحدا. هناك شاب أعطيه محاضرة مدخل إلى اللغة الفرنسية، لا أدري كيف أوصفه لك إن له عينان عسلتان وطفولتان، وشعره كثيف وابتسامته حزينة.

حين رأيته في المرة الأولى صدفه أمام مدرسة الراهبات لم أستطع أن أزيح نظري عنه، واليوم رأيته أمام باب المحاضرة، وتسمرت مكاني وقد أنقذتني رسالتك. لست بلهاء لاحب من أول نظرة ولكن أشعر أننا التقينا في حيوات سابقة.. اقسم إني رأيته. إنه يدرس الصحافة وبقي له فصل واحد على التخرج.

لا أعرف إني أفكر به دوماً بأكثر مما يجب. لا تقل إنه فراغ عاطفي فقط كي اعوض عن علاقتي الفاشلة بليفون.

عيناه تجمدان قديمي، وأحسّ أنّ الكون يتوقف حين أراه أمامي، كنت لا أصدّق مسبقاً هذا الترهات حين تكلمني صديقاتي عن من يحببن ربما لأني ارتبطت بليفون مبكراً، وكانت عيناه دوماً متجمدتان وكأنه يعيش في الأبدية.

أشعر أنني أريد أن أحيأ به وليس بي.

اسمح لي أن أكتب عبارة (Honoré d'urfé) بالفرنسية لأني أحس بها أكثر بالفرنسية.

Aimer، c'est mourir en soi pour revivre en autrui

(الحب هو أن تموت كي تحيا في الآخر.)

اغفر لي أنني ختمت الرسالة بجملة فرنسية.

أقبلك بنهم أكثر من الأيام.

ملاحظة : قد كتبت الرسالة قبل أن أرسلها ويريد ياهو لأنك تحب أن أكتبها بخط يدي، وأن أسلمك إياها حين ألقاك.

سأكتب إليك دوما كي تبقى على قيد الحياة.

أغلقت تسوغيك صفحة الياهو، نظرت من نافذة المكتب كانت تمطر في الخارج
بغزارة والطلاب العشاق لا يبالون بذلك.

حين انتهت من محاضرتها مدخل إلى اللغة الفرنسية لم يأت أحد إلى محاضرة الأدب،
فعدت إلى المكتب، وكان قد بقي ساعتين على الاجتماع عادت إلى المكتب،
وأغلقت الباب أخرجت ورقة وكتبت الرسالة إلى صحو ثم طبعها وأرسلتها.
أخرجت علبة السجائر من حقيبتها وأشعلت سيجارة، فتحت ملف الأغاني الفرنسية
واختارت أغنية (تضحك يوما وتبكي في يوم آخر) (un jour، un jour tu ris)

ل (tu pleures

(julio Iglesias)

كانت تردد كلمات الأغنية وهي تنفث دخان السيجارة

لحن أغنية خريفية يرن في أذني
وأرى بقع سيبتمبر الحمراء في غرفتي
لأنك تضحك في يوم وتبكي في آخر
وتعيش يوما وتفارق الحياة في آخر.....

تبسم تسوغيك وهي ترى الدخان يتطاير ويملاً أرجاء المكتب المغلق، تتذكر أول مرة
لمست أصابعها السيجارة كانت على حافة الثامنة عشر بشهر. كان عليها دوما أن تثبت

أنها الفتاة المثالية التي تحصل على الدرجات الكاملة، فكما تقول آني : كي تكون أرمينيا، وتعيش بكرامتك ليس عليك أن تتقن عملك بل أن تصبح أفضل من الذين يمارسون معك نفس المهنة لذلك كان على تسوغيك أن تعود مبكرا حين تنتهي المدرسة حتى في يوم الخميس فإذا تأخرت سيبقى الجميع على المائدة، ولا يتناولون طعامهم حتى يكتمل الجميع ولا يبقى صحن فارغ بانتظار أحد.

جربت مرة أن تغلق هاتفها، وتصغي إلى صديقتها الفرنسية، وقررت أن تذهب إلى بيتها. ضحكت بريجيت وهما في الطريق.

-يا للسعادة فلسنا مجبرين في فرنسا أن نرتدي المايول المدرسي فلو كان ذلك لكنت مضطرة أن أغير ملابسي.

نظرت تسوغيك إلى ملابس بريجيت، إلى بنطالها الجينز الضيق، وإلى قيصها الضيق، وإلى الحلق المعلق في سرتها، وإلى شعرها المنفوش، ونظرت إلى بنطالها القماش، وإلى بلوزتها الفضفاضة، وإلى شعرها المربوط كذيل الفرس، فلم تكثرث يوما إلى مظهرها وكأنها ليست بفرنسا فما زالت آني تردد على مسمعها نحن أرمن نعيش في فرنسا.

قالت بريجيت :

-ها قد وصلنا.

دهشت تسوغيك حين رأت معظم زملائها في الصف في بيت بريجيت التي كان أبواها يسافران إلى إسبانيا في كل شهر، فقد كان أبوها رجل أعمال.

كانت موسيقى الروك الصاخبة تطفو على المكان، والدخان يتطاير من الأفواه مشكلاً دوائر وهمية.

قد أصابهم جميعهم الدهشة حين رأوا تسوغيك.

ضحك أحدهم بصوت عال وهو ينفث السيجارة

-تسوغيك هنا ربما تلبسها جن ما.

ضحكوا جميعهم وأسكتهم بريجيت حين أشارت إلى الكيس الذي تحمله بيدها،

وابتسموا وكان جميعهم يعرف ما بداخله.

جلست تسوغيك تراقب خيوط الدخان، وتفكر بمقعدها الفارغ على الطاولة، وبوجه

جدها آني الذي كثر عن أنيابه.

عادت بريجيت بعد أن استبدلت بنطالها بتنورة قصيرة تعري جسدها أكثر ما تستر

منه، واستبدلت القميص ذو الأكمال الطويلة بـ تشيريت يكشف سرتها والحلق المعلق

بداخلها.

ناولتها بريجيت سيجارة بعد أن أشعلتها وهمست بأذنها

-هذه لك فما زلت صغيرة على الذي في الكيس.

سحبت تسوغيك نفساً وأصابعها ترتجف ووجه آني يظهر من بين الدخان واضحاً جلياً.

بعد عشر دقائق كان الجميع ممدداً على الأرض، ويضحكون بشكل هستيري. نهض

أحدهم وقبل بريجيت على فمها وهو يترنح.

-إنه نوع ثقيل يا بريجيت إنك من عائلة الشياطين.

نهضت تسوغيك باحثة وسط الدخان عن الباب.

التفت إليها أحدهم وقال لبريجيت ضاحكا وهو يترنح على الأرض :

-قطتك الصغيرة سوف تهرب.

لم تلتفت بريجيت بل اقتربت منه زاحفة وعضت شفتيه

-لكنها لا تخرمش مثلي.

حين عادت تسوغيك لم تكن تدرك أنّ ثيابها ستشي بها، أو كانت لا تتبنى ذلك، ولم

تصدق أنّ الأكل سيبقى على الطاولة ولم يمسه أحد منذ ساعتين..، ولم تأخذ يوما

كلام آني على محمل الجد بأنها لو تأخر أحد عن موعد الأكل لن يأكل الآخرون.

كانت الساعة السابعة مساءً، وكان يتوجب عليها العودة في الخامسة.

حين فتحت الباب كانت آني بغرفتها وباب غرفتها مفتوح، وخرجت من غرفتها حين

سمعت الباب يفتح، كانت إيليك جالسة على الكنبه وصحو لم يأت بعد من باريس كما

يفعل في كل خميس من كل شهر.

بقيت تسوغيك في غرفتها نصف ساعة، ولم يطرق أحد باب غرفتها إلى أن نادتها آني.

التفتت إليها :

-قلت لك من البداية نحن أرمن ولسنا فرنسيين أي لا أنتظر أن تنامي مع أحد ما،

وعليّ بعدها أن أخيط تلك الفتحة لتعودي عذراء، وأتوسل أحدهم ليقبل بك.

بعد شهر ستكملين الثامنة عشر وستتزوجي بليفون.

تأخري تلك الساعتين عن الغداء ورائحة ثيابي قد أودت بي إلى بيت ليفون خوف أن لا أصبح عذراء بسبب سيجارة.

كنا في فرنسا ولم أكن فيها كان يتوجب أن نكون أرمن حد الموت.

ولأن الأرمن يبنون كنائسهم قبل بيوتهم ويزورونها قبل أن يزوروا بعضهم قد تعرفنا هناك على ليفون الشاب الصامت الذي يأتي مع أمه العجوز إلى الكنيسة بثوبه الكنسي. حتى في الفراش كان ليفون يعمل بصمت.

منذ تزوجته صرت أدخن في السر، ولم أتم معه طيلة الأربع سنوات سوى ست مرات وجميعها في بداية السنة الأولى لزواجنا ولا أدري في أي مرة أنجبت فيها باتيل، وحبلت بها عن كره ولم أتوقف عن التدخين أثناء حملي بها كي أعاقب جدتي وأمي وكي أعاقب ليفون الذي قبل الزواج بي، ولأنه راهب لا يستطيع النوم مع امرأة أخرى، وقد كان تقيا ووفيا إلى الحد الذي كرهته لأجل ذلك.

كنت أتمنى أن يخونني كي أجد سببا لطلاقي منه.

لم يستطع صحو أن يؤثر على قرار جدتي، فالزواج من غير الأرمني كفر في شرع جدتي لكنه كان ملجأ الوحيد فقد كنت في العطل أذهب مع باتيل إلى باريس، وأمكث عند صحو أسبوعين وتعرفت على صديقه راشيل، وأصبحنا أصدقاء، ولم تكن جدتي تعرف بعلاقته تلك مع أنه لم يكن أرمنيا، وقد كانت تمنى لو كان ذلك وكان يتجنب أن يغضبها.

تفوقت في الجامعة وفي الماجستير وكنت أتعمد أن لا آتي في الوقت الذي يأتي به
 ليفون إلى البيت كي أكسر قواعد جدتي المقدسة في الأكل وأحضرت مربية لباتيل.
 كنت أكلم أمي ولا أكلها كان صمتي يستفزها.
 حين استلمت شهادة الماجستير في الأدب الفرنسي، قررت الطلاق من ليفون بعد أن
 جمعت مالا كثيرا ولم أعد بحاجة لأحد.
 تغيرت حياتي بسبب سيجارة.

ظلت تسوغيك تحديق في الدخان الهارب كما كانت في السابعة عشر، فهو بالنسبة لها
 تمرين على الصبر إلى أن دق باب المكتب.

حين نزل عمار من الباص توقف عند محل حلويات، واشترى لسما السكاكر التي تحبها.

لم يسر مسرعا رغم المطر فقد كان يروق له أن يراقب الناس وهي تسير تحت المطر..
خطى مسرعة.. خطى بطيئة ... خطى لا تعرف مصيرها وغايتها.
كان يحب أن يرتل وهو يسير.

تذكر الترتيلة التي علمته إياها سما وهو في الصف الخامس واكتشفت صوته.
شفتاه تردد بسعادة وهو يمر بجانب ساحة اربد.

(توكلنا على الله فهو ملجأنا/ توكلنا على الله لا نخاف السوء)

كانت الساعة الثالثة عصرا وباصات المدرسة لم تأتي بعد، فقد أراد أن يسلم على أبو جوزيف سائق الباص الذي تجاوز الآن الستين، وقد كان يراه منذ كان في الصف الأول ينام في غرفة الحارس، فقد ماتت زوجته وابنه في حادث سير ومنذ ذلك اليوم لم يستطع الرجوع إلى البيت. أصبح يعمل بعد الظهر عاملا للمدرسة، كان يحتضن الأطفال كل صباح ويقبلهم فأصبح أبو جوزيف أب للجميع.

صعد إلى الطابق الثاني بعد أن اتصل برنيم، وقالت له أن سما بغرفتها.

خلع طاقيته الصوف ولفحته والجاكيت وأعطاهما لرنيم كي تجففها له أمام المدفأة.
كانت سما تكتب في دفترها وحين رآته فتحت له ذراعها، فأسرع إليها عمار كطفل واحتضنها.

قال عمار: مازحا :

-أجل ما في باريس الفتيات تمنيت أن أبقى هناك أسبوعا آخر لأجلهم
قالت سما بهكم

-ماذا ؟ متى ذهبت إلى هناك ؟

-ألم أخبرك أنني عدت قبل أسبوعين؟

-حقا ؟!!! لا أذكر، أظن ذلك منذ زمن بعيدانتظر

تناولت دفترها وتصفحته

-آه نعم وبقيت هناك أسبوعا.

-حمدا لله فلست كاذبا التقيت هناك بمخرج من أصل فلسطيني، وأجريت معه حوارا
وأعطيته كتاب الراهبة.

-حقا عظيم أتعلم أنّ أجل ما في باريس أنها مهيأة دوما للحب في كل لحظة.
سألته سما بلهفة

-عن أي كتاب راهبة تتحدث قد أثرت فضولي لقرائته

حاولت رنيم أن تغير مجرى الحديث

-حدثني عن الجامعة عمار

-مم... قد أخذت هذا الفصل مدخل للغة الفرنسية وتعطينا إياه فتاة فرنسية من
أصل أرميني... آه كم هي جميلة.
حدقت به سما وشدت أذنه

-أهبل

نهض عمار مبتسما

-أين الجيتار ؟

-الجيتار نعم إنه في الخزانة.

أحضره عمار

-وأنا في الطريق تذكرت الترتيلة التي كنّا نغنيها معا واكتشفت فيها صوتي.

فرحت سما.

-آه نعم كنت أريد أحدا أن يشاركني في أداء هذه الترتيلة للأب منصور لبكي،

ووجدتك أنت يا روجي

-هيا لترتلها معا.

-هيا

(توكلنا على الله وهو ملجأنا / توكلنا على الله لا نخاف السوء

صوت الرب ناعم يدخل في الأعماق / طعم الرب لذيد أشهى من العسل)

شعرت سما بسعادة تغمرها بوجود عمار.

أشار عمار لرقيم نخرجا من الغرفة.

قال عمار: :

-إنها تتذكر جيدا الماضي بجميع تفاصيله بمقدورها أن تتذكر الترتيلة التي علمتني إياها قبل

سنتين، ولم تستطع أن تتذكر أنني جئت من فرنسا قبل أسبوعين.

-صحيح هذا ما يحدث معها تماما طيلة فترة غيابك كانت مشغولة بتدوين ما يحدث معها في كل يوم، فقد نصحتها الطبيب بالراحة ولكنها تعمل أكثر من ذي قبل.أتعلم أنها البارحة قد وضعت مفاتيح غرفتها في القرن وبحث عنه ساعات إلى أن وجدته راهبة.

عليك أن تأتي دوما فإنها تتحسن بمجيئك.

-بالطبع سأتي ومتى لديها موعد عند الطبيب ؟

-هذا الخميس.

-سأتي معكم.

أعطته رنيم أغراضه وقالت له وهو يرتدي طاقيته الصوف.

-أبو جوزيف توفي اليوم صباحا، ولا أودّ إخبارها كي لا تكتئب سأخبرها في وقت لاحق.

-وكيف حدث ذلك ؟

-حين اتصل أحد أولياء الأمور أنّ أبو جوزيف قد تأخر على ابنه، تفقدنا غرفته كان

ممددا على الأرض محتضنا صورة ابنه وزوجته.

-سأتي في المساء لأحضر الجنازة.

حين ذهب عمار عادت رنيم إلى الغرفة سألتها سما :

-من أخرج الجيتار من الخزانة ؟

-عمار

-ماذا هل كان عمار هنا ؟

-نعم ورتلت معه.

-حقا ؟

-نعم

-إنك تحبين عمار كثيرا منذ كان صغيرا

-نعم إنه طالي المفضل فقد كان صوته جميل ويبكي.

أخفت رنيم دمعتها وهي تعيد الجيتار إلى الخزانة، وجلست على السرير بجانب سما وهي

تمسح دموعها.

حدقت سما في سرب الطيور الهارب في السماء وإلى المدى البعيد حيث زرعت هناك

وجها لا تستطيع نسيانه.

(٢٩)

أربد ٢٠١١

-مرحبا

-مرحبا

-اه إيفا ليست هنا ؟

-.....

-آه أظن أنك المدرسة الجديدة

-نعم

-أنا جميلة اسم على مسمى صحيح ؟

ابتسمت تسوغيك دون أن تقول شيئا فلم تعتد أن تجامل أحدا، أو أنّ آني من زرعت فيها هذه الصفة حين كانت تكرر على مسمعها بأنّ الأرمن لا يجاملون أبدا، وحين يحبون أحدا ما يفرشون له قلوبهم وحين يكرهون أحدا يكتفون بالصمت، ويتركون للملحمهم التعبير عما يحسون به لأنّ الله كما تقول آني يطلب منا أن نقوم بأيّ شيّ إلا أن نكذب على قلوبنا فلنا الحرية في أن نحب وأن نكره.

حدقت تسوغيك بمظهره جميلة، بتنورتها السوداء الضيقة وبلوزتها البيضاء الضيقة، وكعبها العالي ثم نظرت إلى وجهها الضحوك لم تكن جميلة إلى الحد التي وصفت به نفسها لكنها يكفي أنها تتكلم من قلبها وليس من جيبيها كما تقول آني.

-آه متأسفة أظن أنك لم تفهمي ما أقول.

فسألتها السؤال مرة أخرى، وهي تشير بيديها إلى أجزاء من جسدها

-إنني أجمل من أنجلينا جولي.

ضحكت تسوغيك وهي تردد

-حقا حقاً

-آه نسيت أن أسالك عن اسمك

-تسوغيك

-ماذا ؟ ماذا ؟

ضحكت تسوغيك مجددا

-مهلا مهلا ...تسوغيك

-متأسفة ولكن

-لا لا قد اعتدت على ذلك انه اسم أرميني يعني الندى

-ما أجمله أنت أرمينية ؟

-نعم

حدقت جميلة بها

-ما أجمل عيناك ... مم عليك أن تذهبي قليلا إلى الكوافير سيصلح هذا.

كانت تشير إلى حواجبها.

لم تستطع تسوغيك أن تتوقف عن الضحك.

-رباه.. حسنا إني أتعجب من النساء كيف يمتلكن الوقت كي يذهبن إلى الكوافير،

ويأتين صباحا بكامل أناقتهن الى الجامعة..حين آتي صباحا أنظر إلى الطالبات المليآت

بالأصباغ حقاً إني أعجز عن فعل ذلك.

-يجب على النساء أن يملكن الوقت لفعل ذلك كي لا تصحو صباحا وورقة الطلاق على محتها بدل الوردة الحمراء، وعلى الفتيات أن يقمن بذلك أيضا قبل أن تنتهي الأربع سنوات، وتحمل فقط شهادتها بدون جائزة ترضية أقصد شاب.

وضعت تسوغيك يدها على بطنها وهي تتلوى من الضحك
-رباه توقفي أرجوك هل عليّ أن أقوم بكل هذا كي أحصل على شاب، لا أظن أنّ الأمر يتطلب كل هذا، الحب أبسط من ذلك.
قبل أن تذهب للإجتماع بحثت عن اسم عمار على الفيس بوك وبعثت له طلب صداقة.

في الإجتماع أعلن رئيس القسم أنّ تسوغيك هي المسؤولة عن الأسبوع الفرنكفوني لهذه السنة. فرحت تسوغيك كثيرا فلطالما كان المسرح شغفها وازداد شغفها حين كلفت بأن تنظم مع الطلاب يوم الاحتفال باللغة الفرنسية كما في جميع البلدان الناطقة باللغة الفرنسية وهو ما يسمى باليوم الفرنكفوني.

اتصلت بخنين وأخبرتها أنها ستصنع البيتزا في البيت.
كانت ترسم وجه عمار على الطحين وتغرق بعينه البنيتين.
لم تشعر أبدا بذلك الشعور مع ليفون، ذلك الشعور الذي يجعلها تقوم بالأشياء العادية وكأنها ليست عادية. تودّ أن تضمّ العالم بين ذراعيها وتبتسم للجميع وأن تقفز فرحا.
فتحت صفحتها على الفيس بوك ووجدت أنّ عمار قد قبل طلب صداقتها.

بحث في البوتيوب سريعا عن أغنية (سيلين ديون) (i'm alive) وشاركت رابط الأغنية على صفحتها وكتبت بالفرنسية : (أحببتك حين التقت أعيننا بلحظة قدر. أريد أن أحفظ تفاصيلك جيدا، وأردد اسمك عن قرب، أن أمشط معك الطرقات ليلا، ونوقظ العصفير فجرا، حبك يغطيني بشراشف الفرح).

أغلقت الهاتف ووضعته على الطاولة وارتدت مريول المطبخ، وأصبحت تراقص حنين وباتيل وآلان وهي تردد كلمات الأغنية.

حين انتهت من صنع البيتزا. جلست مع حنين في المطبخ أمام فجانين من القهوة، تصفحت الفيس بوك مجددا، كان عمار قد شارك رابط أغنية. فتحتها سريعا، كانت كلمات الاغنية مكتوبة على الشاشة، أصبحت تقرأ بصوت عال وهي تتلذذ بالكلمات. يرتسم أمامي حياك

وأسمع صوت صدك

أرتمي طوعا تحت خطاك

منك الروح، منك هلاك

أهواك، أهواك.

ذهبت سريعا إلى الماسنجر وبحث عن اسمه كتبت : الأغنية جميلة جدا ومؤلة.

قالت حنين وهي تبسم:

-إنه العشق.

انتهت تسوغيك إلى نفسها.
 -مم هذه أغنية قد نشرها أحد طلابي على صفحته على الفيس بوك، وأحببت الكلمات
 فهذه أول مرة أستمع لشيء آخر غير فيروز.
 -هناك مغنية اسمها فايا يونان تشبه فيروز.
 -آه لا تقولي ذلك فلو سمعنا صحو سيدبجنا كلانا.
 -حقا إن صوتها جميل.
 -اكتبي لي اسمها على الهاتف.
 -حسنا.. متى سنذهب كي نبحث عن عمل ؟
 -تعرفت اليوم على زميلة جديدة تبدو طيبة، وقد أعطتني رقم هاتفها سأصل بها علّها
 تساعدنا
 شعرت حنين بالسعادة
 -أستطيعن الإتصال بها الآن ؟
 -بالتأكيد.
 قالت تسوغيك: وهي تبحث عن اسمها
 -قد مت اليوم من الضحك إن روحها لا تعرف الحزن أبدا.
 -ألو جميلة أنا تسوغيك
 - هل غيرت رأيك وستذهبن معي إلى الكوافير ؟
 ضحكت تسوغيك بصوت عال

-لا لا لقد اتصلت لأمر آخر. جازي سورفة تجث عن عمل ومعه شادة الثانوية العامة

-مم هل تجيد الطباعة على الحاسوب ؟

هزت حنين رأسها

-نعم نعم

-لدى زوجي مكتب محاماة، سأتكلم معه كي يجد لها وظيفة.

-حقا ؟

-حقا أنت قد قصدت جميلة، وجميلة جميلة في كل شيء..

-بربك كفي عن ذلك قد أصبت بالدوار لكثرة الضحك.

-اضحكي فسنموت يوما ولن نجيد إلا بتسام.

- أيتها الحكيمة سألتقي بك بعد الموت كي نضحك معا.

-فكرة جيدة.

حين أنهت تسويق المكالمة نهضت حنين واحتضنتها بقوة.

-أشرك من قلبي.

-كم أتم العرب لطفًا كل شيء عندكم يبدأ من القلب وليس من الجيب، وأنا أيضا

أشرك لأنك جعلت حياتي أقلّ وحدة.

-وماذا سنفعل بالطفلين؟

-سنبحث عن حضانة أريد أن تتعلم باتيل العربية، ومؤكد أنّ آلان سيتعلمها أيضا.

- بالتأكيد.

- حسنا سأذهب صباحا مع جميلة، ونبحث عن واحدة. لا تقلقي سيكون كل شيء

على ما يرام.

- ما هذه الرائحة ؟

- إنها البيتزا قد نسيناها بالفرن ستضربني باتيل الآن. مم سأعزمكم إلى المطعم لتناول

البيتزا. هناك مطعم بيتزا هت في شارع الجامعة.

(٣٠)

باريس ٢٠١١

تمتدّ يداي - اللامبالتان بما تبقى من عمري - إلى آلة التسجيل .. يدان تشبهان أيدي الموتى الباردة. هناك أيد تموت حين تفقد تيار حبا السري الذي يمدّها به جسد ما، فتفقد حميميتها اتجاه الأشياء والأماكن، فتعجز عن اللمس حين ارتدت حداد أحد ما....

منذ زمن وهذا الشريط قابع في آلة التسجيل، يعيد الأغنية نفسها مع أنّ الرتابة نوع من الموت إلا أنّها تتجدّد مشهدا لم نشفى منه بعد.

أحاول أن أدفن حنيني في كلمات الأغنية التي تشبه جرعة المهدّء لمرضى الحنين... وقت إليّ بتحكي وبثقلي رح تبي / اسرقي من الدقائق من خوفي ما تبي / ما تبي... ما تبي / وحدي واسمع ايدك عم بتدق الباب.....

الستائر مغلقة، والعمر مغلق كصندوق خشبي يحتوي على ثياب عتيقة لم تعد تحظى بجسد ما، فذبلت ونامت إلى الأبد...

في منتصف الليل تهدأ المدينة، فالمدن لها الحق بالنوم أيضا كي يكون بمقدورها في الصباح أن تتحمّل ضجر الناس والأرصفة، وحين لا تنام جيدا تتشاءب طول النهار وتروي كوايسها لسكانها... !

منتصف الليل، وبندول الساعة لا يكفّ عن الترتة حين يتواطأ مع دقائق المطر. إنّها تمطر في دمي.. ويتسرب الماء إلى جسدي المتجمّد بحنينه، وأدركت أنّي مصابة بوعكة حنين....

هذا ما يعجز عنه الأطباء دوماً، أن يعطوا وصفة للعلاج من مرض مزمن لا علاج منه يدعى الحنين...

الحنين إلى الماضي، إلى الطفولة التي لم تكتمل، إلى الوطن، إلى صور نائمة في أحد الأدراج السرية.

بعض الأشخاص المفرطون بالأحزان حدّ الإنشاء بها يصابون بوعكة حنين بين وجبة حنين وأخرى..

يقول الكاتب (ميلون كونديرا) : " الحنين إذن هو الألم الذي يسببه الشوق المتعطش دوماً إلى العودة، أما الحزن فهو عدم القدرة على العودة ! ".

جميع المهجرين يعانون من كلا المرضين.

هناك منهم من يخاف الرجوع إلى نفس المكان وإلى نفس الجدار الذي احتفظ بصوره سنين طويلة، يخاف أن يطرح على نفسه سؤالاً بسيطاً : لماذا رحلت من هنا، أكي أختنق غربة كل هذه السنين ؟!

وهناك من يصاب بإعاقة جبرية، لا يستطيع الرجوع لرؤية نفس المكان ونفس الجدار، فيستعيز عن ذلك بأن يتعاطى مخدراً دائماً يسمى الحزن !

وهناك من ولد من رحم اسمه الغربة، وقد ورث الحنين كما يرث الآخرون أموالاً وبيوتاً، تلك الضريبة الوحيدة التي يدفعها من ولد خارج الوطن، وخارج إطار صورة مزروعة على جدار في بيت ينتظر سكانه، حتى البيوت تصاب بوعكة حنين حين تغتالها أيدي الغرباء وتلبسها وتضاجعها رغماً عنها.. !

كأنّ الحنين سلاح كيماوي ينتشر في الهواء، ويحيا تحت الجلد، وهو عدوى تصيب جميع من حملوا حقائبهم لينتظروا طويلا في مطارات الغربة.. مسمّرين على الحدود، وبأيديهم جواز سفر يشبه حامله : جواز عاطل عن الوطن !
أحمل جوازا مزورا لا يشبه جواز المسافرين، فوحده جوازي المختوم من دائرة الغربة...

الاسم (جميع أسماء الشهداء المجهولين !)
مكان الميلاد .. (مكان خارج الكرة الأرضية حذف من خارطة الألم العربي !)
تاريخ الميلاد : -استبدل بتاريخ الموت - (لا يوجد اليوم والشهر، ولكن في السنة ما قبل النكسة وما بعد النكسة !)
مكان الإصدار.. (في مقبرة الغربة !)
كنت أخاف في كل مرة أن يعيد لي الموظف الجواز فيمنعني من الحياة ومن الرجوع قائلا :

-هذا الجواز عاطل عن الحياة.. قد انتهت مدة صلاحيته.. جدّد موتك وعد سريعا !
أحدّق -في ذلك الوقت المستغرق بين الموت والحياة- بالطابور الطويل.. جميع الأيدي تحمل جوازا يحمل جميع مسببات الحياة.
أخاف أن يجبرني على العودة إلى مكان إقامتي المشطوب من الجواز والمستبدل بعبارة:
(وطنه المطارات الموحشة والمحطات المجهولة)، فيمزق الموظف أمام الطابور جواز موتي..

لكن في كل مرة يبقى هذا المشهد في خيالي، ولا يقرأ الموظف سيرة حياتي المزوّرة التي يختصرها دقتر كاذب في حجم الكف !

كنت أكره دوما المطارات وغرف الإنتظار بمقاعد الباردة، والناس فيها يشبهون الموتى، فهم لا يملكون إلا هدفا واحدا ألا وهو الإنتظار. فكما ننتظر الموت في كل دقيقة.. في كل يوم.. حين نرتدي ثيابنا.. أمام فنجان قهوة. كذلك المسافرون هم يموتون في كل لحظة بانتظار قطار ما أو طائرة ما.

دوما مثل أنا بالحقائب.. وبالحنين.. لا أحمل الهدايا لأحد، فلم يبقى في مفكرتي العائلية أحد تحتضن يداه هديتي في فرنسا.. مع أنهم يقولون.. من يملك قبرا في مكان ما، فله الحق بأن يتقاسم ذلك المكان وقبر صديقي سعيد وجدتي آني في مقبرة فرنسية غربية . كان قبرهما هو السبب الوحيد الذي أجبرني على المكوث في مدينة لا تعرف جسدي. أخاف أن يوضع يوضع خبر نعيي في صفحة الأخبار المنوعة لتملأ فقط زاوية ما. كما فعلو بأبي. لو كان بمقدورنا أن ننقل قبور من نحب كما ننقل الحقائب والأمتعة لأصبحنا أكثر دفئا وحميمية، لكنا نخاف أن نوقظهم من نومهم.. ويضجرون كالأمتعة فلا يوجد مقاعد مخصصة للموتى !

أتذكر أبا راشيل الذي مات في مستشفى فرنسي أنيق، فهناك الغريب حتما سيموت بكامل أناقته أو يحيا مهانا بكامل أناقته أيضا.. وضعته في الثلاجة أياما قبل أن تنقله بالطائرة إلى مكان ولادته في إيطاليا ليبقى بجوار أقربائه وأصدقائه. حجزت له مقعدا

من الدرجة الأولى كي لا يتخلى عن أناقته قليلا، فالأموات مثلنا يحتفظون بعنفوانهم قبل أن يذهبوا بهم إلى بيتهم الأخير، ولا يعترفون بالهزيمة !!!
أضع في الحقائق دوما خدوش أحلامي الميتة، كدمات الزمن، صور تحتوي على إطارات فاخرة كي أثبت للحياة بأني قد خسرت من أحب بجدارة، فقد استعصت عن غيابهم بإطار فاخر يزيد من وحشتهم.. الأهم أن لا يموت من نحبهم ببقائهم على قيد الحياة بداخلنا..

الموظف لا يرى إلا حقيقة سوداء مكّسة بأربع عجالات.. وكأنها تشبه عربة نقل الموتى حين تجرّنا إلى قبر اسمه الغربة !!!

أغلقت الستائر كي أتخلص من ضجيج المطارات

راشيل غارقة مع طلابها فهي تحضر لحفلة في الجامعة جاءت البارحة وأمضينا الليلة كما العادة عارين في الفراش.. أظن أنها كانت تشعر بالنشوة فقد عرفت ذلك من جسدها الذي كان شهيا كشمشة طرية.

كان صحو متشحا بالسواد وهو ممدد على الكنبه تبحث يده عن هاتفه في وسط العتمة

-راشيل

-ما بك آوادييس ؟

-هل أقنعتني بالرجوع لأنك تدركين أنني لن أجدها، وبهذا سينقطع أمني بالبحث عنها حين بحثت عنها قبل سنوات في الأردن.

-حسنا آوادييس سآتي مساء ونحدث، مؤكداً أن إيطاليا لم تغير بك شيئاً

-لا أريد التحدث بشيء..

أغلق صحو الهاتف وبكى كما لم يبكي مرة، أو أنه لم يبكي يوما حتى حين اختفى أباه
نديم فجأة، وظل وحيدا أمام رحمة آني بأن تقبل به في عائلتها أم لا، وكان أول
اعتراض أنه ليس أرمينيا.

أين أنتِ يا سما ؟

تعبت من حملك فيّ طيلة هذه السنوات

لم يعد جسدي يتحملني إنك تعششين فيّ، تحيين في جلدي
عودي كلي يناديك ...

أتذكرك مع الأيتام الوحيدون في ساحة المدرسة
عودي

مع الجياع الذي يقضمون أظافرهم

مع حزن الزينة في باريس وصلوات قديسها

مع نذور البسطاء في الكنيسة الصغيرة في مارسيليا

مع المطر الأول

والحب الأول

مع العشاق الجدد المرتجفين تحت المطر

مع أجراس العيد

وبطاقات المعايدة الرتيبة

مع العذراء التي ما زالت تصلي في غرفة آني
 مع ارتباك تسوغيك من الله
 مع عيني ليفون البريئتين
 مع جسد راشيل المليء بالشهوة.
 مع تضرع إيليك
 ومع فرح باتيل الأبدي
 مع حزني المتكدس منذ سنين على رف قلبي وأنا بانتظارك
 سممت أن أعطي جسدي لامرأة أخرى وكلي لك
 تعبتي مني ... من وجوه الغرباء ... من البحث عني فيك طيلة هذه السنوات ... لو
 أنك ميتة لعرفت أين أنت فالأموات حين يحجزون قبرا يخبرون من يحبونهم بعنوانهم
 الأخير كي لا يشعرون بالوحدة ... أما أنت فتختبئين مني في مكان ما
 تلك كانت خطيئتنا معا ولا أدري إن كان الله قد أدرج ذلك اليوم في قائمة خطايانا..
 لم أقترف إلا حبك
 لم نفعل سوى ما فعله أبي نديم مع زوجة عمي مصطفى حين رأيتهما عاريين وأنا في
 سن الثالثة.
 لا أدري إن كنت أنتقم بغياك بجسد راشيل حين أنام معها وهي تعلم أنني معك.
 كيف لا توقفني نقاط التفتيش وموظفو المطار حين لا أحجز لك مقعدا فأنت تسافرين
 معي دوما أنت اللامرئية لهم وتحيين بي.

عودي

عودي كي ألقى بالحياة قليلا.

كي أستحق ذلك النفس الذي يعطى لي في بداية كل فجر

أسمع صوت ضحكك حين كُنا نجلس على ذات المقعد في مدرسة الراهبات في اربد

لم نكن ندري أنا حين كُنا نكبر كان الحب يكبر بيننا.. كُنا كطفلين وحيدين على باب

الجنة ... كُنا كإسمين محصورين على قاع شجرة وحيدة على أطراف وادي.

ألم نحفظ أغاني فيروز معا وكتبناها على كتبنا المدرسية وانتقينا الجمل التي تعجبنا ...

ألم نتعلم الجيتار معا؟

ألم نصلي لله معا في ليلة عيد الميلاد بالرغم من اختلافنا في الدين كُنا نحب الله كصديق

ثالث لنا بدون أن نختلف عليه،،

عودي كي أعود إلى الله ويعود صديقي الذي علمني أن أشكو له حين أتوعك حزنا..

عودي

عودي

كي أعود إلي

وإلى الله.

(٣١)

اربد ٢٠١١

وكان هناك " ممحاة في رأسي " تأكل كل شيء إلا أنت

أنسى جميع الوجوه إلا وجهك أنت..

يا وجه خطيئتي التي هربت منها منذ كنت في السابعة عشر وأنا ألث ألث بلا توقف.

حين كُنا معا كُنا نضحك بلا توقف ولم نكن نعلم أنا ضحكنا حد الفراق

هل سأصل إلى اليوم الذي سينيسي الزهايمر ملاح وجهك ورائحتك وشكل ضحكك..

لماذا ارتبطت في عقلي بالخطيئة لهذا ستبقى ناضجا لأن الخطيئة لا تذبل أبدا ؟

كل الراهبات ذهبن إلى جناز أبو جوزيف ولم أستطع الذهاب أو لأني سأنسى أني

ذهبت

أخرج كل ذكرياتي التي ستذوب وتذوب حتى تتلاشى، ها هي صورتنا معا حين كُنا

في المدرسة في غرفة الموسيقى وأنا جالسة أمام البيانو وأنت واقف أمامي ونبتم وكأننا

وحدنا في الحياة وقد كُنا كذلك.

هاهي صورتنا حين تخرجنا من الصف الثامن قبل أن نذهب إلى فرنسا ...

أسمع ضحكك وأنا في أرجاء الغرفة وأعود إلى الصف الثامن حين كُنا نبقى ملازمين

لبعضنا حتى في الفسحة، لم نكن نجلس مع الآخرين ولم أكن بحاجة إلى صديقة، فقد

كنت رفيقتي وصديقتي وأخي أبوح لك بأسراري ...

أتذكر حين حصلنا معا على درجة عالية في امتحان Delf B1 وقد كتبنا في السؤال

الإنشائي ذات الأفكار، وقد كدنا أن نرسب لولا أننا لم نكن في ذات القاعة.

قصاصات أوراق كثيرة على السرير

أخرج واحدة من الأوراق لا أدري كم عمرها، أظن أنني كنت في بداية الصف الثامن كانت قد طلبت منا معلبة الدين أن نبث عن مقولات عن معنى الحياة. أقرأ وأبكي وأتذكر شغفي بأن أكون راهبة وأن أرتدي الرب. معنى الحياة هو: أن اسمح بأن أحب وأحب، أن أسمح بأن أحب من قبل الله بلا حدود وأن أحب الله.

أن أسمح بأن تحبني أخواتي وأن أحب كل واحدة من أخواتي. (الأخت لوسي). صلاة لعيش معنى الحياة: ساعدني أن أخدم وأسعى إلى ما هو صالح وحقيقي ورائع وأن أجوع وأعطش إليك أيها الخفي المتلألئ. ساعدني أن أبقى ثابتة في حبك واتباعك ... أنت حياتي ... أنت كل شيء بالنسبة لي ... الأبدية هي معك. (الأخت تريز ماريما توما)

معنى الحياة هو فعلا رحلة التوصل إلى القبول بأننا محبوبون كليا وتماما من قبل الله ليس بسبب ما نفعله وإنما بسبب ما نحن عليه، كثيرون منا يسيرون غير مدركين تماما أنّ خالق الكون يحبنا بشغف وعلى الرغم أنه يرسل لنا دوما دعوات لكي نقوم علاقة بيننا نميل إلى تجاهله. عندما نتوصل إلى الإيمان بأننا محبوبون نصبح بدورنا أشخاصا أكثر حبا. وفيما نحب الآخرين نكتشف أنّ حب الله غير موجود في فقاعة منفصلة بل في الأمور الصغيرة اليومية الفرصة التي نستطيع من خلالها اتخاذ خيارات محبة. (الأخت بريطاني هاريسون)

معنى الحياة أن يصير الله في كل شيء وكل شيء هو الله (الأخت سما)
لا أدري كيف أتتني الجرأة أن أكتب مقولة لي وأن أطلب منك أن تعطي رأيك
بمعنى الحياة فكتبت لي :

معنى الحياة أن نحب الآخر من نبع قلوبنا بلا شروط هكذا نكون قد أحبنا الله
وأحببناه تماما.

وكتبت أنا بجانب مقولتك (الراهب صحو)
ضحكا يومها ملياً، ولم أكن أدرك أنني كنت أحب الله فيك وأراه بك وإني أحبني من
خلالك.

....

أعرف جيداً لماذا كتبت هذا الكتاب لأنّ هذه السنوات لم تكن كافية للتكفير عن
خطيئتي بك ولأكون ابنة لله لكونك ربما غفر لي الرب ولم أغفر لنفسي.
أبدات حياتي منذ أن تفوه لي القديس سميج حين التقيت به في فرنسا حين كان هارباً
من الحرب الأهلية في لبنان.

كتب لي حين أعطيته دفترًا صغيراً ليكتب لي شيئاً كما كنت أفعل مع جميع من ألتقي
٢٣٢

كتب لي مقولة للقديس فرنسيس : ليس لي أب ولا أم وليس لي بيت لي رب فقط.
من أين سأبدأ ؟!!!

منذ مشهد الخطيئة الذي غير نهر حياتي ، وإني أتسائل الآن هل ارتدبت الرب كل
 هذه السنين فقط كي يغفر لي خطيئتي وليس لأني أحبه ولأني أحبته فيك ؟!!!!
 وضعت جميع الذكريات التي سأنساها في صندوق ، وألصقت عليه ورقة : هذا
 الصندوق إلى عمار حين أنساه !

أعدته إلى الجارور.

وجدته أمامي

- أما زلت مستيقظة ؟

-قرأت قليلا

-كنت في جناز أبو جوزيف

-حقا لم يخبرني أحد أنه توفي

-ربما نسو ذلك

اقترب مني وقبلني

-صديقي بانتظاري لنأكل معا، والوقت متأخر الآن فلن يسمحوا لي بالبقاء، سأجي

يوم الخميس لنذهب للطبيب معا.

لم أكرث لما يقوله لأني سأنسى بعد قليل كل شيء اكتفيت بالابتسام فقط. لن أنسى

رائحته سأحتفظ بها في مسامات جلدي، سأخبئها عن النسيان.

(٣٢)

مارسيليا ٢٠١١

كانت إليك بانتظار ليفون في المقهى.

-أهلاً ليفون أنت بخير؟

-ربما ... البارحة قد قرأت منشورها وكأنها وقعت في حب أحد ما.

-تسوغيك ... لا أظن ذلك إنها تعمل الآن في الجامعة

-أي لا أمل في عودتها؟

-لا تقل هذا إنها فقط تريد أن تشعر بحريتها.

-إنها لا تجيب على رسائلي وتعطي الهاتف لباتيل كي أتكلم معها وإنها تصرّ على الطلاق

-إفعل ما بوسعك كي تؤجل إجراءات الطلاق لربما ستندم في يوم ما، لا تقلق سأفعل

ما بوسعي كي تعود إليك..

-وكيف باتيل؟

-حبيبي إنها تعتاد على المكان وهي الوحيدة التي تجعلنا جميعا سعداء كما تقول آني الله

لا ينسانا هو الذي يعتني بالنملة في حفرة مظلمة. آه ها هو آوايس قد جاء.

احتضنته إليك بقوة

-لماذا أنت نحيل؟

- ماما لم تغيري عاداتك منذ كنت صغيرا.

حين جلس صحو التفت إلى ليفون

- كيف حالك ليفون ؟

-بخير

-أظن أنك مثلي تحاول أن تكون بخير.

التفتت إليه إيليك

-آوادييس ما بك؟

-لا شيء إنها الرحلة من باريس إلى مارسيليا، دائماً تضخمين الأمور، قد أقلقتني حين

اتصلت بي البارحة ليلاً.

-ها ... هكذا هي عادات الأرمن يقلقون على أبنائهم أكثر مما يجب.

قال ليفون :

-بالضبط أكثر مما يجب. أتذكر حين كانت أمي تلبسني جميع الثياب في الخزانة كي لا

يدخل البرد إلى جلدي وتتصل عشرات المرات في معلمي حين كنت في الصف

التاسع كي تطمئن بأني أكلت كل شيء أعدته لي ووضعتة في حقيتي، وتخيّل ولدا في

الصف التاسع ترعاه أمه وكأنه في الروضة .

قالت إيليك: وهي تتناول مغلفاً من حقيبتها.

- لم آتي إلى هنا للتناقش بخوف الأمهات الأرمنيّات فهو أمر حتمي لن

يتغير، في الحقيقة وجدت هذه الرسالة في صندوق الرسائل المكس بالرسائل مع فواتير

الماء

والكهرباء.إنها رسالة من ابن خالتي.

قال صحو:

-آلم تغل آني قبل سنة أنها وجدت أختها التوأم، وبعد أسبوع قالت إنها ليست هي.

قال ليفون:

-أتذكر ذلك وقد طلبت مني أن اذهب معها إلى جمعية الأرمن، وبحثنا في الأسماء عن اسم مطابق لاسم عائلتها ولم نجد اسما.

قالت إيليك:

-قد صدقنا ما قالته لنا، فحين عرفت أنّ أختها تزوجت من رجل تركي مسلم، رفضت أن تلتقي بها وتتواصل معها، وكانت تضع جميع الرسائل في جارورها ولا تقرأها وكأنها كانت تعاقب أختها بأنها تستلم الرسائل ولا تجيب عليها، فقد وجدتها جميعها مغلقة كما هي وهذه هي الرسالة الأخيرة بعثها ابن خالتي يقول أنّ خالتي قد توفيت قبل أسبوع.

قال صحو:

-وماذا ستفعلين الآن؟

-لا شيء

-أستجاهلين الأمر كأني؟

-بالتأكيد فليس لي أقارب أترك.

-يا إلهي كيف كان بمقدورها أن تتجاهل أختها التي افترقت عنها منذ عام ١٩١٥؟!!!!

-لأنها رأت قاتلها بعينها.

-رباه وهل جميع الأتراك مدانون، ألا يوجد فيهم الطيبون والمنافقون والكاذبون كما يوجد في كل شعب

-صحو إنك لست أرمينيا، ولن تفهم ذلك الشعور.

-حقاً أولست فلسطينياً ألم يهجرونا من بيوتنا، ألم نذق طعم الألم، ألم نعش في الخيام، ألا تشاهدين الأخبار ؟!!!

ظل ليفون صامتا.

-ربما كانت آني على حق.

غضب صحو

-وأنت أيضا يا ليفون، أنت الذي تحفظ الإنجيل عن ظهر قلب !

قالت إيليك: :

-آواديس لن أخالف ما فعلته آني وكفى. لن أصاغ من قتلوا أجدادي، وأنت لن تصاغ من قتلوا أجدادك.

-أمي أنت من احتضنتني حين اختفى أبي، ووقفت بوجه آني كي أبقى في حضنك.

-آواديس توقف إنك قطعة من روجي.

نهض ليفون.

-يجب أن أذهب إلى الكنيسة.

قالت إيليك: :

-هيا حبيبي آواديس سنذهب معا إلى البيت.

لم يتفوها بحرف وهما في التاكسي كان طيف آني يحوم حولهما.
 قادت إليك صحو سريعا إلى غرفة آني.
 -أُتصدق أنها كانت تأتيني كل ليلة في الحلم كي أعود إلى مارسيليا، لا أدري إني
 أراها دوماً وتحدث معي. أتعي ذلك ؟
 -بالتأكيد أعي ذلك الموتى لا يتوقفون عن الاتصال بنا الفرق أننا لا نرى بعضنا.
 أخرجت الصندوق الذي تحت السرير.
 -انظر لقد تركت لكل واحد منا شيئاً ... هذه لك
 فتح صحو الصندوق فوجد جميع أشرطة شارل ازنافور وقد تعجب من تلك الهدية إنه
 يحبه ولكن ليس بالدرجة التي ينتظر له هدية من أحد وقد كانت آني تعرف ذلك.
 ابتم صحو
 -إن آني غريبة الأطوار.
 -وقد تركت لي رسائل أختها ودقتر مذكراتها.
 -حقاً ؟ إنها تشعر الآن بالذنب، فلو أرادت لتخلصت من تلك الرسائل لكنها تريد
 منك أن تقومي بما لم تستطع القيام به.
 -آواديس توقف لماذا عليّ أن أتحمل هذا العبء التي لم تستطع هي أن تتحمله بأن تتقبل
 أختها من جديد أو عائلتها ؟
 -أُظنن أن مسلمي الأرمن فرحين بحياتهم، إنهم يعيشون بالخفاء، ابحتي على اليوتيوب
 وستفهمين ما أقصده.

- آوادييس لن أتفهم وأتقبل قاتلي أمتي.
- حسنًا ولكنك لن تتوقفي عن رؤية آني في الحلم، وعن الشعور بالذنب.
- لماذا لم تقم هي بذلك ؟
- لأنها رأت الدم بعينها.
- وأنا ورثته عنها.
- أظن أنّ لتسوغيك الحق باتخاذ قرار بشأن هذا الأمر.
- لا لن تعلم تسوغيك بذلك .
- لأنك تعلمين أنها ستتواصل مع تلك العائلة.
- بالطبع فهي ليست أرمنية تماما.
- آه لأن أباه فلسطيني ؟
- آوادييس لم أقصد هذا.
- ماذا تقصدين إذن أنّ دما ليس أرمنيا، وأنت أخطأت بالزواج من أبي الذي اختفى فجأة.
- آوادييس ألم أقف في وجه أمي لأجلك ؟!!
- إنّ تسوغيك تستطيع النظر إلى الغد في حين أنك ما زلت تعتبرين زواجك من أبي خطأ سماوي لأنك لم تتزوجي أرمنيا كما أرادت آني.
- لا أستطيع أن أكون كتسوغيك، أحس بالذنب كلها ابتعدت عن آني.
- أمسكت إيليك بيده.

- ربما تكون على حق لكني أحبيتك بكلي.
- أعلم ذلك وأنا أحبيتك بكلي، اتركي الخيار لتسويغيك.
- حسننا ولكني سأكون طرفا محايدا.
- حسننا.
- آه كيف حال تسويغيك وباتيل، قد بعثت لي رسالة قبل أسبوع إنها قد بدأت دوامها بالجامعة.
- بخير، ليفون يظن أنها تحب أحدا ما من خلال ما تنشره على صفحتها في الفيس بوك.
- حقا؟
- آه آواديس ستتظاهر الآن بأنك لا تعرف شيئا، إنها تبوح لك بكل شيء..
- نهض صحو.
- ممم.. لا أعلم وماذا يظن ليفون أنها ستعود إليه ؟
- وأنا أيضا أظن ذلك.
- ربما !!!!!
- أعرف أنك لن تقول لي شيئا. كيف انت وراشيل ؟
- وضع رأسه على ركبته وأغمض عينيه تاركا السؤال معلقا بلا جواب.

(٣٣)

أربد ٢٠١١

- maman Alain m'a frappé

(ماما، آلان قد ضربني)

- batile calme-toi

(باتيل اهدئي)

- Non je vais le frapper، il me taquine

(لا سأضربه إنه يستفزني)

سألت حنين

- ما بها ؟

-تقول أنّ آلان يضربها ويمازحها.

أخرج آلان لسانه وهو يضحك عليها. حدجته حنين كي يتوقف عن ذلك.

قالت تسوغيك: :

- اتركهم إن الصغار يتشاجرون حتى لو لم تجمعهم لغة واحدة إن باتيل مغرورة

قليلا.

أحضر النادل البيتزا.

ظلت باتيل محدقة بالباب وهي تكرر تسوغيك

-maman ce jeune homme comme il est beau

(ماما انظري إلى هذا الشاب كم هو جميل)

أخفت تسوغيك ضحكها وهي تنظر إلى الشاب، لوحت تسوغيك سريعا بيدها وقد
أصابها مَس من الفرح
نهض عمار وصديقه من على الطاولة وذهبا حيث تسوغيك
قالت تسوغيك: لحنين :
-طالباي في الجامعة.

دعتهما تسوغيك إلى الانضمام إلى طاولتهم ولكن عمار شعر بالخرج
قالت له باتيل وهي تمسك قطعة البيتزا في يد وهاتف أمها في يدها الأخرى
-regarde c'est mon oncle

(انظر هذا خالي)

قالت لها تسوغيك

- Tais-toi

(اصمتي)

ابتسم عمار ومد يده لها ولم ينظر مليا في الصورة بعد أن أخذت تسوغيك الهاتف من
يد باتيل. قالت له باتيل

- C'est est mon oncle، il m'a dit que le père Noël va
prendre l'avion pour me voir

(إنه خالي قد قال لي أنّ بابا نويل سيأتي بالطائرة كي يراني)

قبل عمار يدها الصغيرة وقال لها

Vraiment ! je veux venir aussi avec lui-

(حقا ! سوف آتي أيضا معه)

قاطعت تسوغيك حديث باتيل

-j'ai un élève brillant qui a maîtrisé le français en un jour.

(لدي طالب بارع قد أتقن الفرنسية بيوم أي معجزة هذه !)

ضحك عمار بصوت عال وقد فسر ليوسف ماذا قالت تسوغيك، فقال يوسف بعد أن أشارت لهم تسوغيك بالجلوس.

-هذه هي عادته حين يتقن شيئا ما، لا يجب أن يتظاهر بمعرفته أمام الناس يظن ذلك

كبيرا إنه حاصل على شهادة Delf b2 حين كان في مدرسة الراهبات

-حقا ولماذا سجلت إذن هذه المادة ؟

-ببساطة لأنني خريج ولم أجد مادة أخرى.

-أيها الشرير.

أضاف يوسف :

-وقد اختارته الجامعة لحضور المؤتمر في فرنسا لإتقانه للفرنسية، وقد حظي بحوار مع

مخرج فرنسي مشهور.

أخذت باتيل هاتف تسوغيك مرة أخرى ونهضت من كرسيها وجلست في حضن عمار

-regarde c'est mon oncle

(انظر هذا خالي)

قال يوسف سريعا.

-إنه هو، المخرج

قالت تسوغيك: لعمار

-حقا هذا هو الذي قابلته ؟

-نعم هو.

-إنه أخي.

-يا للصدفة (قال عمار: فرحا)

-وكيف حدث هذا ؟ (سألت تسوغيك)

-كأ في الطائرة وقد جلس بجواري، وسألني عن الكتاب الذي بحوزتي، وأعطيته نسخة

أخرى وهكذا تعارفنا.

قالت حنين بعد أن انتهت من إطعام آلان.

-الحياة بالنهاية قرية صغيرة وكما كانت تقول جدتي الحلبية : الجبال لا تلتقي والبشر

تلتقي معا.

سألها يوسف.

-أأنت من حلب ؟

-أنا من دمشق وحين تزوجت ذهبت إلى حلب.

قال يوسف.

-أنا وعمار قد تطوعنا لتدريس الأطفال السوريين بعد العصر.

قالت تسويك:

-إنه خبر سار.

قال عمار.

-إذا كمّا جميعاً أبناء الرب فعلينا أن نكون أخوة في الشدائد.

قالت تسويك.

-إنك مثل ليفون تعيد كل شيء إلى الله. إنك تحب المساعدة وكفى.

سأل عمار

-ومن ليفون ؟

-ليفون زوجي السابق إنه راهب.

هزّ عمار رأسه.

-الأمر لا يتعلق بكوفي متدين أم لا ، فالله يستعمل أيدينا وأرجلنا وحواسنا لنعمل

الخير لأجله، فن غيره يعطينا الحب كي ننظر إلى الآخرين الذين يحتاجوننا ولا نملّ

من مساعدتهم.

وأنهى حديثه بابتسامة.

قالت حنين.

-هناك حديث شريف يقول الشيء ذاته أنّ العبد كلما اقترب من الله أصبح الله سمعه

الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به وهكذا .

ابتسم عمار بإعجاب.

قالت تسوغيك: ضاحكة.

-لو أنّ ليفون علّني حب الله على طريقتم لأصبحنا أنا والله أصدقاء.

قال آلان.

-ماما أريد الذهاب إلى الألعاب.

قال يوسف.

-أنا سأأخذهما

قالت حنين

-سيتعبانك سأرافقك.

قال عمار:

-لم أستطع الرد على رسالتك فورا فقد كنت في جناز.

-قد أعجبتني الأغنية كثيرا، إنّ الكتب والموسيقى شغفي الوحيد.

-أحب هذا النوع من الغناء وشغفي هو التراتيل.

-عندما كنت صغيرة كنت أحب التراتيل كثيرا وخصوصا في عيد الميلاد، أما الآن

لا، فقد بقي من العيد الشجرة وشرائط الزينة.

-صحيح قد فقد قيمته ولكن معلّتي سما من زرع بي حب الله من خلال تجيده بالغناء

وقد علّمتني العزف على الجيتار.

- أظن أنك بدأت تثير شغفي بالله.

-لا تظلمي نفسك بهذا القول دائماً كانت معلتي سما تقول لي : الله هو طاقتنا الإيجابية
 وحين نقبل أنفسنا سنحب الله لأنه يحبنا بلا سبب.
 -أظن أنك تحب معلمتك كثيراً.
 -قد رافقتني منذ منت في الصف الأول، سأرسل لك روابط على الماسنجر لتراتيل
 للأب (منصور لبكي) قد حفظتها بفضل معلتي سما عن ظهر حب.
 -شكراً

ابتسم عمار
 -إنّ ابنتك جميلة جداً.
 -نادرا ما تعتاد على الأشخاص، وقد تعودت عليك سريعا..أتعلم ماذا قالت لي حين
 دخلت المطعم بأنك شاب جميل
 ضحك عمار

-أظن أن ذوقها جميل ولا أدري إن كانت إمها تراني بعيني باتيل
 ابتسمت تسوغيك وكي تخفي نجلها ومشاعرها كعادتها أجابته بحدة
 -بالتأكيد لا أن باتيل لا ترى جيدا
 ابتسم عمار

-ما بك اني أمرح فقط
 صمتا قليلا وكانت تسوغيك تفرك يديها اللتان تعرقتا
 -هيا لننضم إليهم فباتيل لن تصمت أبدا

في طريق العودة قال يوسف.

-هناك حفلة لغايا يونان.

قالت حنين.

-حقا إني أعرفها صوتها جميل.

-عرفت كيف تختصر أوجاع السوريين ستكون الحفلة يوم الجمعة المقبلة.

قال عمار.

-أظن أني سأكون مشغولا.

قال يوسف.

-أحضر سما ورنيم معنا حينما تنتهيان من موعد الطبيب.

قال عمار:

-فكرة جميلة ستسعد بها سما وما رأيك ؟ (موجهة السؤال لتسويك)

-لم لا، وستذهب حنين معنا لأنها تحبها.

ضغطت حنين على يد تسويك معبرة عن امتنانها.

قال يوسف.

-حسنا سأحضر غدا التذاكر، هيا سألم التبرعات الآن.

ضحك الجميع ولوحت لهم تسويك بيدها.

-تصبحون على خير

قال الإثنان.

-وأنت أيضا.

.....

أوقفت تسوغيك تاكسي.

قالت حنين :

-إنّ الشاب عمار لطيف جدا.

-مم

-أقصد أنه لطيف معك

-حقا لم أنتبه إلى ذلك

-كلنا نحن الفتيات لا نتنبه إلى ذلك بالرغم من أننا نحس بمن يهتم بنا

-مم ربما.

قبل أن تدخلنا إلى البيت أوقفتها حنين

-ليس ربما بل أنت تحبينه

قبلتها تسوغيك على خدها

-لا أدري لكنني سعيدة، تصبحين على خير، لا تنسي سنذهب غدا مع جميلة

-وأنت بخير سأكون جاهزة

وضعت تسوغيك باتيل في سريرها التي غفت وهي في التاكسي.

تمددت في سريرها بدون أن تغير ثيابها فتحت الفيس بوك وكتبت بالفرنسية :

(ربما لا أفعل ذلك متعمدة عندما أكون مشغولة بشيء، عندما أكتب أو عندما أرتب غرفتي أو عندما أتكلم مع أحد ما أو عندما أسمع فيروز، أفكر بك فجأة، وأتحدث معك وكأنك أمامي.
أفكر بك في كل لحظة).

بعث لها عمار رسالة : هذا هو رابط الترتيلة. تصبحين على خير
بعثت له قلب حب.
وضعت السماعات في أذنيها، ووضعت الهاتف على السرير، كانت الترتيلة للأب
منصور لبكي
لأنك في تراني في عيد
لأنني بقلبك قلبي جديد

(٣٤)

باريس ٢٠١١

أحاول أن أنام، والنوم أسوأ تمرين على الموت .
 أخاف أن أموت وأنا نائم. ذلك نوع من الخيانة !
 هل النوم موت مؤجل ؟!

يقول (زياد الرحباني) : " النوم بروفا للموت "، (وإديث بياف) : النوم وقت ضائع،
 النوم يخيفني.. هو شكل من أشكال الموت !".

أم نحن الذين نختار طريقة موتنا حين يضع القدر بين أيدينا ألبوماً لننتقي ثوب الموت
 الذي يليق بنا.. وهو حق يتوجب علينا أن نطالب به، كما تردد (داليدا) حين تخاطب
 الموت في أغنياتها (الموت على المسرح).

" تعال... ولكن لا تأتي حين أكون وحيدة / قد اخترت كل شيء في حياتي
 وسأختار موتي أيضا / هناك من يرغبون بالموت في يوم ماطر / وهناك من يرغبون
 بالموت في يوم مشمس / وهناك من يرغبون بالموت في السرير / بهدوء وهم
 نائمون...".

هل النوم يجعلنا نتقبل فكرة الموت ؟

النوم هو ذلك الوقت المهدور الذي ربما سنغادر الحياة به.. وربما يخفف ألم الموت
 ورهبة حضوره لذلك يفضلهُ أغلب البشر.

وبالرغم من خوفنا أن نموت ونحن نائمون لكننا نغمض أعيننا بذلك الروتين اليومي،
 ولا نقول وداعاً لأحد لأننا معرضون في كل ليلة لحادث موت !

هناك من يؤمنون فقط بالنوم الأبدي في قبورهم، وهناك من يؤمنون بمنبه سماوي سيوقظهم ليمارسوا أعمالهم في مكان آخر لم يتعرفوا عليه بعد.

هؤلاء الناس يتمسكون بتلك الفكرة أنهم سيستيقظون مجددا ليشبعوا فضولهم بالتعرف على بيتهم الجديد وأصدقائهم الجدد وطبيعة الطقس هناك.

نتظر دوما دون أن نتظر ذلك الموت المؤجل بفارغ النوم !

ها أنا أنام على سرير آني بعد أن طلبت من إيليك ذلك وأفكر بالموت بدلا عن النوم.

أتصفح هاتفي، راشيل قد اتصلت عدة مرات حين كُنا في المطعم.

-آلو راشيل أنا في مارسيليا

-قد وعدتك أن أعود مساء، أما زلت غاضبا مني ؟

-متأسف على ما قلته لك في هذا الصباح.

-لا عليك حبيبي، ولماذا ذهبت بهذه السرعة إلى مارسيليا.

-لم أملك الوقت لإخبارك، قد اتصلت بي إيليك، سأخبرك بما حدث حالما أعود.

فتح على تطبيق الواتس أب، وبحث عن اسم تسوغيك، ووجد أن آخر ظهور لها قبل عشر دقائق، وكانت قد غيرت صورتها بصورة جديدة لها مع باتيل وحنين وآلان وهم في المطعم.

بعث لها رسالة.

-تسوغيبيبيبيك أنت مستيقظة أيتها العاشقة ؟

-نعم ولماذا تستهزئ بي بتلك الابتسامات التي أضفتها بعد جملتك ؟

-مممم كي أستفرك

-كعادتك ... إنك تعرفه

-من ؟

-الشاب الذي حدثك عنه في الرسالة

-وكيف ذلك ؟

-الشاب الذي ركب معك في الطائرة وأعطاك الكّاب

-اهههه عمار إنه لطيف جدا

-قد أعجبت به باتيل

-حقا ستخطفه منك

-سأخنها إن فعلت ذلك.

-هههه إنها شريرة مثلك اسمعي سأكلّمك عبر السكايب

-حسنا

-تسوغيك سأقول لك شيئا اليوم، قد التقيت بإيليك، وأنا الآن في بيتنا في مارسيليا، قد

تركت آني لكل واحد منا شيئا ما، وقد علمت إيليك أن لآني أخت، وقد كانت آني

على علم بذلك ولكنها رفضت التواصل معها.

-ماذا ؟ أرفضت رؤية أختها التوأم ؟!!!

-حين علمت أنها تزوجت من رجل تركي مسلم، وأصبحت مسلمة والآن قد توفيت.

-ومن أخبر ماما ؟

-ابنها.

-وهل تواصلت معه ؟

-لا قد رفضت ذلك.

-لأنّ آني رفضت ذلك يا للسخرية ومؤكّد أنّها رفضت إخباري.

-نعم ولكنني أصررت على ذلك.

-كيف تحملت آني أن لا ترى شقيقتها، إني أفهم حقدها، ولكن أن يتيح لها القدر

أن تلتقي بأختها بعد كل هذه السنوات وترفض ذلك. ألم أقل لك أنّ آني مجنونة.

بدأت تسوغيك بالبكاء وأكملت حديثها وهي تبكي.

-صحو أتعني ما فعلته آني؟! أسيساحها الرب أو العذراء التي كانت تضعها في غرفتها ؟

-تسوغيك إهدأي ما عليك الآن فعله هو أن تتواصلي معهم.

-وهذا ما سأفعله.

-قد ترك كاجين إيميله. هذا هو اسم ابن خالتك

-شكراً حبيبي صحو

- ولكن انتبهني قد قدمت لك هذا المعروف كي تستمري بالكتابة لي بالعربية.

-مم لا تقلق لن أتوقف عن كتابة الرسائل إليك كي لا تموت.

ضحك صحو

-قبلي باتيل

-إنها تنتظر بابا نويل الذي وعدتها به أنه سيأتي بالطائرة لأجلها.

-لا تقلقي سيأتي بابا نويل.

-ماذا تقصد ؟

-وداعا الآن.

-صحو.....

-وداعا!!!!!!.

جففت تسويك دموعها، وقفزت على السرير، وأخيرا سيكون لها عائلة

وصلتها رسالة من صحو

-هذا هو الايميل ... أحبك جدا... قبلي باتيل كثيرا.

-وأنا أحبك أكثر من كلمة أحبك.

كتبت الإيميل على ورقة وحضنتها ونامت وهي تحلم بعائلتها الجديدة.

(٣٥)

مارسيليا ٢٠١١

في الخامسة فجرا استيقظت إليك ووجدت صحو جالسا في الصالون.

-ألم تم ؟

-لم أستطع،وقد كنت أتحدث مع تسوغيك ؟

-هل أخبرتها ؟

-بالطبع.

- اعرف أنها لن تصمت.

-وهذا هو الصواب.

-حسنا لن أتناقش بهذا الموضوع مجددا سأصنع القهوة.

حين شربا القهوة وودعها صحو أوقفته إليك.

-قد نسيت الأشرطة.

قبلها ووضع الأشرطة في الحقيبة.

-إنّ آني لا تنسى شيئا..كم كانت قاسية وحنونة.

-عدوها كان أقسى منها.

تنهدا طويلا.

سألها صحو.

-متى ستعودين إلى الأردن ؟

-سأنتظر قليلا ربما أرى ماذا ستفعل تسوغيك مع ليفون.

-اتركي لتسوغيك الخيار
حين أغلقت الباب رأيت آني مجددا.
سألتها إيليك
-لماذا لم تمرقي الرسائل؟
-كي تعرفي أنني أمضي إلى آخر الأشياء، ولا أترجع أبدا وكما يقول الأرمن (إنس
الأمك أو امضي بالأمك) وأختي كوهار كانت ألي وقد مضيت بألي ونسيته،
ضمدت جرحي ومضيت.
-تركت لي دفتر مذكراتك وتلك الرسائل كي أبقى أحس بالذنب لأني تزوجت نديم.
وكي تبرهني لي أنك تركت أختك كي تبقي أرمينية بحق أو لتسقطي عنك ذنب ما
حدث مع نديم.
جلست إيليك على الأرض في غرفة آني وهي تبكي.
-أين أنت اظهري لي لي لماذا اختفيت؟ إن تسوغيك ستتواصل مع أبناء أختك، ولن
تكون مثلي أتعلمين ذلك؟
استلقت على الأرض :
-لماذا يا ألي كل هذا العقاب لماذا؟ ألم تسامحيني إلى الآن لأني أدخلت نديم إلى
حياتنا.
حين فتحت عينها لم تجد إلا دفتر آني أمامها .
نهضت من على الأرض ومسحت دموعها.

كان هاتفها یرن.

قالت لها زميلتها الفرنسية (Aude) التي تعمل معها في الجامعة مباشرة

- إنك في فرنسا ولم نلتقي ؟!!!

- سأمرّ على الجامعة كي أمدد إجازتي

- لم تتكلم منذ آخر مرة تحدثنا فيها قبل شهر على الفيس بوك أأعجبتك الأردن ؟

- لا أدري حين نكبر نلحق أبناءنا وحتى أنني لم ألتقي بعد بيريفير

- حقا إنك أرمينية بحق... تلحقين قلبك

- دعينا نلتقي في الساعة الثانية عشر في الجامعة أودّ أن أقول لك أشياء كثيرة.

- أظن أنك متعبة.

- سأخبرك بكل شيء حين نلتقي.

- حسنا.

شكرت إيليك الرب لاتصال (Aude) الذي خلصها قليلا من لعنة آني.

ارتدت ملابسها وخرجت تاركة آني وحدها.

وجدت (Aude) بانتظارها، مددت إجازتها وذهبت إلى الكافتيرا

- ما بك إيليك؟ تبدين متعبة جدا ؟

-لآني أخت متزوجة من رجل تركي، وقد قطعت التواصل معها لأجل ذلك وآراها

كل يوم أأممي. آواديس قد أخبر تسوغيك ومؤكّد ستتواصل مع عائلة كوهار، وليفون

ما زال ينتظر تسوغيك وهي تبني حياتها في الأردن، وقد طلب مني أن يرى باتيل ويقول أن تسوغيك عاشقة، ولا أستطيع أن أسألها فلن تقول لي شيئاً قد سممت وتعبت -أولاً بخصوص عائلة خالتك.. لتسوغيك الحق بالتواصل معها ولها الخيار في أن تحب من تشاء لماذا يجب أن تختقنها وتورثها خياراتك في الحياة ؟

-من الصعب أن تفهمي معنى أن شعباً بأكمله قد تشرد، وقاتله لا يعترف بذلك. لا أدري أأقف مع آني أم مع تسوغيك التي تبحث عن حياة جديدة بعيداً عن لعنة آني التي لحقت بي !!؟

-اتركها تفعل ما تشاء وتختار من تشاء

-إني أرى أُمي أُمامي وكأنها ما زالت حية.

-إنه أمر طبيعي لارتباطك الشديد بها، أقرأي مذكراتها وأكلي ما دافعت عنه طيلة حياتها بأن تحيا كأرمينية، ولكن لا تجبري تسوغيك على فعل ذلك سعي ذلك في يوم ما. لا نستطيع أن نورث أبناءنا معتقداتنا وأفكارنا لأننا نخنقهم باهتمامنا وحبنا. إن تسوغيك الآن تتمرد على كل ما أجبرتها على فعله أنت وآني، تريد أن تجرب كل شيء وتشبع من الحرية كونها حق طبيعي قد سلب منها والآن تسترده بكل قواها. تنهدت إليك كانت تصغي إلى عصفور يزقزق وقد عبر أذنيها رغم ضجيج الطرقات.

(٣٦)

أربد ٢٠١١

لم تستطع تسوغيك النوم وهي تفكر ماذا ستكتب لعائلة كوهار أخت آني، نهضت مجددا ووضعت الآبياد أمامها وتربعت.

نظرت إلى الساعة كانت الرابعة فجرا، عبر أذنيها أذان الفجر وشعرت بسعادة ما، فلم تسمع صوتا جميلا بهذا الشكل.

صنعت فنجانا من القهوة وعادت إلى السرير أمام الآبياد.

حذفت كل الذي كتبته سابقا ...

كتبت من جديد بالإنجليزية :

صباح الخير

اسمي تسوغيك.. حفيدة آني

أتمنى أن نتواصل.

ضغطت سريعا على زر الإرسال كي لا تغير رأيها وتحذف ما كتبته من جديد، أرادت أن تكون جملها مباشرة وواضحة لا يشوبها الكثير من العواطف التي لن توصلها شاشة غبية. ولأن الذي تحس به لن ترتديه الكلمات.

بقيت مسمرة أمام الآبياد متناسية أن الساعة ما زالت الخامسة فجرا.

صنعت فنجانها النسكافيه المفضل واستمعت إلى فيروز.

ضغطت على زر (refresh) مرارا.

-إنّ أعداد الأرمن في ازدياد الذي يعيشون في تركيا، وقرروا العودة إلى دينهم المسيحي.

-قرروا العودة ؟

-نعم فكثير منهم ما زالو متخفين ولا يعلنون عن أصلهم الأرمني، وكانت جدتي كوهار واحدة من هؤلاء الأرمن.

-ولماذا لم تخبروا جدتي آني بذلك ؟

-لم تمنحني الفرصة بأن أتواصل معها حين علمت أنّ أختها كوهار تعيش في تركيا، ومتزوجة من تركي مسلم.

-كاجين هل يمكننا أن نتحدث حالما أعود فعليّ الذهاب إلى الجامعة

-وأنا لذي جامعة أيضا

-أريد أن تتواصل يوميا

-وأنا أريد ذلك أيضا

-وداعا

-وداعا.

حدقت في الحائط لكنها نهضت سريعا وقالت لنفسها : ليس هذا الوقت للحزن قد قمت بأجل خطوة بأن تواصلت مع كاجين. مسحت دموعها وهي تردد بفرح :

سيكون كل شيء على ما يرام

سيكون كل شيء على ما يرام.

(٣٧)

باريس ٢٠١١

كانت راشيل بانتظار صحو على الباب قبلته على فمه بنهم قبل أن يتفوه بكلمة.
 جلس على الكنبه.
 -إني أشعر بالدوار.
 -سأصنع فنجانين من القهوة.
 -قد تركت لي آني أشرطة أزنافور.
 قالت راشيل وهي بالمطبخ.
 -ماذا؟!!!! هي تعلم بأنك لا تحبه كثيرا، إنها غريبة الأطوار.
 -قد دهشت مثلك حين أعطتني إيليك تلك الورثة.
 عادت راشيل بكوبي القهوة وضعتهما على الطاولة
 -والأغرب أنها رفضت رؤية أختها كما أخبرتك البارحة.
 -هذا لا يثير دهشتي فأني كانت أرمينية تماما مع أنني لم أرها سوى مرتين مرة حين
 جاءت هنا ومرة في السينما حين حضرنا الفيلم الذي كتبت له لأجلها، ولم تجرؤ أن
 تخبرها بأني عشيقتك. كل ما فيها أرميني.
 وضعت رأسها على صدره.
 تبادلوا القبيل.

-راشيل قد قررت شيئاً، سأقتنع أنّ سما ميتة ولن تحضر بعد الآن في نقاشاتنا.
 -آواديّس. يبدو أنّ دروس تأمل جدي أمادو افادتك
 -راشيل إني لا أمزح، هذا قراري ولا شأن لك به.
 نهضت راشيل وجلست أمام ليانو، كانت أصابعها تتعرق حزناً وحبا وذكريات،
 وصوتها كان يعبر مواسم الألم والدهشة...لي

احتضنها بقوة.

وقد كان محظوظا فقد كانت راشيل من النساء التي كانت قبلة على فها تختصر عمرا
 من العواطف والكلمات.

القبلة إشارة للزمن بأن يتوقف للحظة.

كان صحو يتألم بقبلة وهو يوارى في مقبرة قلبه امرأة أخرى.
 كان يشيع بقبلة امرأة أخرى. فبعض القبل تميّنا بدل أن تحيينا.

(٣٨)

اربذ ٢٠١١

قال يوسف بعد انتهاء المحاضرة.

-ها قد حصلت على التذاكر.

قال عمار.

-سأذهب مع معلتي سما أولا ثم نلحق بكم إلى هناك.

قالت تسوغيك: :

-حسنًا ستكون أول مرة أزور فيها عمان منذ مجيئي إلى الأردن.

قال يوسف.

-مؤكد أننا سنستمع، قد تأخرت على محاضرتي في الاقتصاد القديمة.

قالت له تسوغيك قبل أن يذهب

-شكرًا على التذاكر

سألها عمار

-ألديك وقت ؟

-لدي ثلاث ساعات، ولكن لديّ موعد في الثانية، يمكننا الجلوس ساعة.

-يمكننا الجلوس بجانب كلية الشريعة هناك مكان مليء بالأشجار.

-هيا

-هل أعجبتك الترتيلة ؟

-في الحقيقة ليست لدي علاقة عميقة مع الله إني أؤمن بوجوده بيننا،ولكني لم أسأله
مرة كيف الحال
ضحك عمار.

-إنك غريبة الأطوار.

توقفت تسوغيك

-حقا لا أحب هذه الجملة مع أي كذلك، ولربما أصحاب برج السرطان كذلك.
-أأنت تصدقين الأبراج ؟

-ممم تعطيني نبذة عامة عن الشخص قبل مقابلته.

-وهل قرأت عني ؟

-من تاريخ ميلادك على الفيس بوك عرفت أنك من برج الميزان أي أسوأ صديق
للسرطان.

-يا إلهي لهذا نحن الآن معا !

-كنت أستفز أخني صحو بذلك، مخرجك العظيم فهو من برج الحوت أي من الأبراج
المائية كالسرطان والعقرب، كنت أقول له أنّ سر اتفاقنا أننا ننتمي لنفس البرج المائي
ولو كُنا مختلفين لما أحببتك.

حين جلسا أكملت تسوغيك.

- في الحقيقة أنا وصحو متطرفين بعواطفنا، وأصبحنا أصدقاء رغم فارق السن الذي بيننا.

-ألك أصدقاء كثر؟

-لا ربما لأنني شخص ممل ويميل إلى الوحدة، لولا الكتب لكنت الآن في مصح عقلي.

ضحك عمار :

-بالعكس إنك خفيفة الظل وعاطفية جدا.

-أما أنت فعملي جدا وحياتك كالميزان

-مهم ربما

-لا أستطيع أحيانا أن أفهم شخصيتي ففي العمل أراني عملية جدا لا أقبل المزاح، وأكون متطرفة جدا وكأني أشرح شيئا مقدسا، وحين أكون في البيت أعود طفلة تتردد في صنع سندويشة بالشوكولاتة أو بالجبنه مم قد اعتدت على ذلك. نحن في نفس العمر لماذا ما زلت في الجامعة ؟

-ببساطة كنت أدرس فصل وأؤجل فصل كي أعمل، وأجمع أقساط الجامعة قد عملت في مكتبة وفي الماكه ونالدز.

-أحسدك على ذلك.

-لماذا تحسدينني ؟

- بالطبع لأنك اختبرت الحياة بتفاصيلها، وصنعت نفسك بدون الاعتماد على أبويك.
- لا أحد يحنقك ويتخذ قراراتك بالنيابة عنك. أين تعيش عائلتك ؟
- في فلسطين وأنا ابنهم الوحيد، معلتي سما تخفف وحدتي هنا
- يبدو أنك متعلق بها كثيراً كما أخبرتني البارحة.
- إنها تعاني من الزهايمر المبكر.
- إنه أصعب الأمراض فأن تصل إلى مرحلة تنسى فيها من أنت ومن أحببت، وأن تتوقف عن تجميع ألبوم ذكرياتك التي تسيل منك يوماً بعد يوم.
- تنسى أي زرتها، تنسى من مات، وتظن أنه ما زال على قيد الحياة. لربما الزهايمر يخفف أحياناً من آلام فراقنا لشخص ما بأن نبقي نظن أنه ما زال على قيد الحياة.
- ليس الأمر سهلاً كما تظن.
- سأذهب معها الجمعة إلى الطبيب.
- عليّ الذهاب.
- قال عمار: بارتباك
- حقاً؟!!
- لدي موعد ضروري سنكمل فيما بعد. شكراً على القهوة
- مع السلامة

(أراك لاحقاً) à plus -

- à plus

قالت جميلة لحنين وتسوغيك وهم يسرن في شارع الحصن باتجاه سيارتها

-ألم أقل لكما أنّ زوجي لا يرفض لي طلب.

قالت حنين.

-أشكرك من قلبي

قالت جميلة وهي تفتح باب سيارتها

-لا أحب ذلك أرغب بمكافأة مادية كأن تدعواني إلى مطعم.

التفتت جميلة لباتيل وآلان

-ألستما جائعين ؟

فهزّ آلان رأسه، أما باتيل فنظرت إليها غاضبة، فتداركت جميلة خطأها، وأعادت

عليها السؤال بالفرنسية.

-Ahhhh ma cherie as -tu faim ?

(عزيزتي هل انت جائعة ؟)

-sûrement(بالتأكيد)

قالت جميلة.

-لماذا لا توظيفها في الجامعة لتدرس الطلاب إنها تتكلم الفرنسية أفضل مني.

ضحكوا جميعا

قالت تسوغيك: حين تحركت السيارة.

-جميلة، أنا وحنين نبحت عن حضانة وأريد أن نتعلم باتيل العربية.

-أظن أنّ معنا وقت كاف قبل أن تبدأ المحاضرة، هناك واحدة قريبة من بيتكم.

سعل آلان بشدة.

قالت تسوغيك

-ألم يتناول كورس الدواء كاملا ؟

قالت حنين

-هذا الكورس الثاني وأحيانا لا يستطيع أن ينام لكثرة سعاله.

قالت تسوغيك

-يجب أن نعرضه على طبيب خاص.

سألت باتيل تسوغيك.

- est-il malade،Alain

(هل آلان مريض ؟)

- un peu

(قليلا)

نظرت إليه باتيل بغضب ثم عادت للحديث مع تسوغيك.

-il est malade parce qu'il mange trop de chocolat، moi au contraire، je fais toujours un régime pour rester comme une princesse

(لأنه يأكل الشكولاتة كثيرا أما أنا فأتقيد دوما بالريجيم كي أبقى كالأميرة)

- **Batile، je te prie de t'arrêter de bavarder**

(باتيل اتوسل إليك أن تتوقفي عن التثرثرة). نظرت جميلة إليها حين رأتها غاضبة
-اتركي هذه الأميرة تتكلم.

قالت تسوغيك.

-إن تركتها لن تتوقف طول الطريق عن الحديث عن أميرها وفسايتها ومجوهراتها
قالت باتيل غاضبة

?- **tu ne crois pas que je suis une princess**

(ألا تعتقدين أنني أميرة؟)

ردت عليها جميلة بخنو

-**tu es la plus belle princess du monde**

(إنك أجمل أميرة في العالم)

رفعت باتيل رأسها زهوا.

قالت تسوغيك

d'acc mais tais-toi -

(حسنا ولكن اصمتي)

قالت جميلة وهي تقف عند بيت تسوغيك.

-إنكما تشبهان نوم وجيري.

- ومؤكد أنها جييري فهي تنتصر دائما.

أخذت حنين باتيل معها وعادت جميلة وتسويغيك إلى الجامعة.

-إن الأولاد متعبين، مؤكد أنك تعانين مثلي.

قالت جميلة

-ليس لدي أولاد فعندي مشكلة في الإنجاب، ولكن زوجي بجاني ولم يتزوج امرأة

أخرى.

-يكفيك حبه.

-وحده حبه الذي يساعدني على الاستمرار، لا أحب الدراما، إنني سعيدة هكذا

فلمست مجبورة أن أستيقظ مبكرا وأن أغير القمط، وأظل أتسائل لماذا يبكي طفلي،

ولا جواب سوى الصراخ المتواصل. الأطفال بالنهاية أغبياء.

تلوت تسوغيك من الضحك وهي تقول

-يشبهون آبائهم فحتى الغباء وراثته.

حين عادت تسوغيك من الجامعة ركضت سريعا إلى الآبياد، وكتبت لكاجين

-مرحباااااااااااا..أنا هنا

-وأنا أيضا اااااااااا

-سأضيفك على السكايب.

-ہیااااا

أغمضت تسوغيك عينيها وحين سمعت صوته فتحتهما وصرخت بفرح

- إنك تشبه آني.
- وأنت تشبهين كوهار
- قالا معا
- أنسيتِ ؟ إنهما توأم.
- ضحكا بصوت عال. قالت تسوغيك:
- مم كم عمرك ؟
- ٣٢ عاما وأنتِ ؟
- ٢٦ عاما
- ما زلت صغيرة.
- حقا ؟ وهذه (كانت تشير لباتيل التي جاءت حين سمعت ضحك تسوغيك)
- وضعتها تسوغيك في حضنها
- هذه ابنتي
- فأنت إذن لست صغيرة.
- قد قفزت عن مراحل كثيرة في حياتي.
- هههه سأريك عائلتي.
- كان كاجين يفسر لأبويه كلام تسوغيك من الإنجليزية إلى التركية
- هذه زوجتي وطفلتاي
- ذهب إلى الصلاة

-وهذا أبي وأمي، لا تقلقي قد أخبرتهم بكل شيء..

نهض أبو كاجين سريعا كي لا يراها، فسألها كاجين كأن شيئا لم يحدث

-متى ستأتي لزيارتنا ؟

-ولكن ماذا بشأن أليك ؟

-يكفي أننا جميعا نحبك

قالت تسوغيك

-قررت أن آتي لزيارتكم الأسبوع القادم، من الأربعاء صباحا وسأعود السبت ليلا.

-حقا جميعا أن أحدد الموعد بهذه السرعة

-نسيت أن أخبرك، عندي أخت تصغرنى بعامين متزوجة.

-يبدو أنكم عائلة جميلة.

-وستكون أجمل بانضمامك لها.

ابتسمت تسوغيك بعد أنها المكلمة وشعرت بسعادة ما تغمرها، فأول مرة ستنتهي

لعائلة ما بلا شروط أو أحكام.

لم تفكر قبل أن تتكلم مع جاكين، بزيارته في تركيا، قد قررت ذلك فجأة حين رأت

عائلته.

قالت لنفسها : ولم لا ؟!

أغمضت عينيها فعندما نفرح كثيرا نغمض أعيننا كي نحس بكل ذرة من الفرح، ولا

تفقد منا ذرة في الضوء.

(٣٩)

عمان ٢٠١١

إنه يوم الجمعة
استيقظ عمار مبكرا
فرك يوسف عينيه :
- كم الساعة الآن ؟
-السابعة
-أين ستذهب ؟
-أنسيت أني سأرافق اليوم معلتي سما للطبيب.
- سنذهب نحب في التاسعة، وننتظرك عند المدرج الروماني. قل لي كيف تسوغيك؟
-ماذا تقصد ؟
-أقصد ما فهمته.
-لم أفهم شيئا إننا فقط نخرج معا كونها غريبة عن المنطقة.
-دليل سياحي عاشق.
-نم يا يوسف وتغطي جيدا.
-واحلم بها أنت جيدا وأنت مستيقظ.
-إن لم تصمت سأرشف عليك الماء البارد.

-حسنا ولكن أخبرها قبل أن تعرف المنطقة جيدا، وتستغني عن خدماتك.

-لعيبين.

كانت سما ورنيم بانتظاره.

قالت سما

-أحب الشوارع بعد أن تستحم بالمطر.

أوقف عمار تاكسي.

قال عمار: لها.

-أتذكرين حين كنت في الصف السادس، ولعبنا معا الكرة تحت المطر؟

قالت متحمسة.

-أذكر.. أذكر وبختني المدير، وضحكنا يوما كثيرا وأصبنا بالرشح.

قالت رنيم.

-وزارتك سما في البيت.

ابتسم عمار

-مما أثار غيرة الطلاب الآخرين.

سألت سما وهم يركبون باصات حجازي

-إلى أين سنذهب

أجابتها رنيم

-لديك موعد مع الطبيب، ألم أخبرك بذلك قبل أن نخرج؟

-حقا لقد نسيت.

التفتت إلى عمار

-أتذكر قد صنعنا يومها كعكة الشوكولاتة التي تحبها، وغمسنا أيدينا بالشوكولاتة، ورسمنا على وجوه بعضنا.

ضحك عمار

-وقلت لك لو أستطيع الرسم بالشوكولاتة على وجه المدير.

حين غفت رنيم وسما بعث عمار رسالة لتسويغيك

-صباح الخير، ها أنا في طريقي إلى عمان . لا تنسي اليوم (حفلة فايا يونان). سيمر يوسف في التاسعة.

ردت عليه تسويغيك .

-صباح النور، اتصل بي يوسف وأخبرني البارحة. سهرت حتى الفجر وبحث عن أغانيها على اليوتيوب وتعلقت كثيرا بأغنية (في الطريق إليك) وسنكون في الطريق إليك (ههه).

استمع لها جيدا.

اتكأ برأسه على النافذة، ووضع السماعات في أذنيه.

لا تخف إن تأخر قلبي عليك

أنا ما أضعت السَّيْلَا

ولكني في الطريق إليك

وجدت الطريق طويلاً.....

كتب لها

-لا تتأخري في المجيء (ههههه) ووضع الكثير من الابتسامات.

كان الطبيب بانتظارهم، دخلو جميعهم إلى الغرفة.

-أهلاً سما، سأقوم اليوم باختبار الذاكرة العرضية.

-ماذا يعني ذلك ؟

-سأقيم حالتك الصحية العامة بأن أطرح عليك مجموعة من الأسئلة التي تتعلق باختبار

ذاكرتك، هل أنت جاهزة ؟

-نعم أظن ذلك.

-هيا فلنبداً. سأقول لك ثلاث كلمات وسأطلب منك أن ترددها ورائي (إجاصة،

كرسي، قطة)

-إجاصة، كرسي، قطة.. قطة !! أعرف ذلك، فقد كنت أملك واحدة عندما كنت

صغيرة، ومرة حممتها بالصابون وأصيبت بالزكام.

ضحكت سما بصوت عال.

قال الطبيب :

-وهل تذكرين لونها ؟

-اه نعم بالطبع بنية.

-ممتاز ... حاولي أن لا تنسي الكلمات الثلاث لأني سأسألك عنها بعد قليل.
 -ممم تفاحة ... مم ماذا... مم قطعة مم لقد نسيته.
 -حسنًا لا تقلقي ... سأعطيك كلمة، وسأطلب منك أن تهجئها بطريقة عكسية
 (صندوق).

أغضت سما عينها
 -ممم ق ... د لا لا ... ق ... و ... د ... ن ممم ... ص
 -رائعة هل تستطيعين تذكر إحدى الكلمات التي أعطيتك إياها
 -حسنًا قطعة ...

-في أي يوم نحن ؟
 صمت سما

-الخميس .. لا لا الجمعة

-وفي أي شهر ؟

-لا أتذكر

-حسنًا

طلب الطبيب من سما الخروج، وذهبت رنيم معها وبقي عمار .
 -اسمي عمار، سما معلتي منذ كنت في الصف الأول، وجئت اليوم معها كي أستطيع
 مساعدتها

-مرضى الزهايمر يحتاجون إلى كثير من الصبر والعاطفة.

- كيف تقيّم حالتها ؟

- إنَّ الطبيب لا يستطيع أن يشفي مريض الزهايمر، بمقدوره فقط أن يؤجل النسيان إلى وقت متأخر

-وماذا تفسر تذكرها للقطعة فقط ؟

-كون القطعة مربوطة بعاطفة ما لديها، أو تذكرها بشخص حميم لديها، فرضى الزهايمر يتذكرون الماضي جيدا ويملكون ذاكرة قصيرة الأمد لما يحدث معهم في الحاضر، أو قبل ربع ساعة أو عشر دقائق.

-وماذا يتوجب فعله على ذوي المريض؟

-أن يتكلموا معه وينشطوا ذاكرته بالنشاطات التي يحب القيام بها كي لا تتدهور صحته سريعا. أهم شيء هو الحب من القلب فالأشخاص ينسون جميع ما مر بهم إلا من أحبهم بصدق فالقلب لا ينسى.

تنفس عمار بعمق قبل أن يخرج من الغرفة مواجهها سؤال سما.

-ماذا نفعل هنا ؟

أجابها عمار مبتسما.

-لا شيء سنذهب إلى حفلة جميلة هيا.

-منذ دخلت مدرسة الراهبات لم أذهب إلى حفلة، كم أودّ هذا بصدق.

قالت سما ذلك وهي تطوق ذراعها بذراع عمار.

كانوا جميعهم بانتظارهم في مجمع الشمال

حين رأى عمار تسوغيك ابتسم واتسعت عيناه

-هذه معلتي سما.

قالت باتيل سريعا وهي تحرق في ثياب الراهبة التي ترتديها سما.

- **maman، maman cette femme ressemble à la religieuse
âgée qui venait Chez mamie Annie**

(ماما.. ماما هذه الراهبة العجوز تشبه تلك التي كانت تزور جدتي آني)

حين سمعتها سما أحنّت ظهرها باتجاهها، وقال لها بحنو.

-viens dans mes bras، comme tu es mignonne!

(تعالى كم أنت جميلة!)

وأشارت لآلان أن يقترب منها حين اختبأ وراء حنين وشعر بالغيرة.

حين جلسوا في المطعم أجلس عمار باتيل في حضنه، وقد كانت تشد خديه

قال لها.

-si tu m'apprends l'arménien et je t'apprends l'arabe

(إذا علمتني الارمينية سأعلمك العربية)

d'accord -

(حسنا)

-comment on dit (bonjour) en arménien?

(كيف نقول صباح الخير بالارمينية)

-mmmmm (pari Louys)

et ça va ?-(وكيف حالك ؟)

-mmmm(inchbes es)

- maintenant je t'apprends l'arabe. (Bonjour veut dire sabah

elkir)répète (الآن سأعلمك العربية،بونجور تعني صباح الخير)

كانت باتيل تلفظ انحاء كافا فتشير ضحك الجميع.

قالت تسوغيك: :

-ذهبت إلى الحضانة وقابلت معلمة اللغة العربية هناك،عندما كنت في مثل سنها كنت أتكلم الأرمينية بطلاقة عندما كانت أمي هنا كانت لا تتكلم معها إلا بالأرمينية، أما أنا فأتكاسل ونحدث بالفرنسية لأنها أقرب لها ربما لأنها تسمع الجميع يتحدثها وهذا ما حدث بالفعل عندما جئنا إلى الأردن فالجميع يتحدث العربية إلا هي.

سألها سما

-ما اسمك ؟

-تسوغيك

-آه نسيت

-إن سما الوحيدة التي لم تسألني عن معنى اسمي.

-لأنني سأنسى معناه بعد قليل

قالت ذلك وهي تضحك فضحك الجميع.

قالت تسوغيك: ليوسف وعمار مذاكرة بعد أن غمزتهم.
-لكم الشرف أن تجلسوا مع معلمتكم تسوغيك، وهذا لا يعني أنكم حصلتم على الدرجة الكاملة.

تبادل عمار ويوسف النظرات.

أكملت تسوغيك

-كان الطلاب العرب الذين لا يفهمون عادات الفرنسيين، كانوا يعقدون علاقات مع المعلمين الفرنسيين، ويتغيبون أحيانا عن المحاضرات ويسمح لهم المعلمون في الدخول إلى أن يأتي آخر الفصل، ويتفاجئون بعلاماتهم المنخفضة أو بربوبهم.

قال عمار: وهو يبتسم.

-وماذا يعني ذلك؟

-يعني أنني فرنسية

قال يوسف وهو يضحك

-قد اتكلت على صداقتنا.

همست تسوغيك لحنين:

-ما بك لا تشاركي في الحديث؟

-البارحة لم استطع ألان النوم من كثرة السعال.

-لا تقلقي غدا سنذهب معا إلى الطبيب.

شدت حنين على يد تسوغيك وهمست.

-شكراً فن دونك لبقيت وحيدة

-وأنا أيضاً.

جلسوا في المقاعد الأولى في المدرج الروماني، وقد جلس عمار وبحضنه باتيل.
دخلت فايا بفستانها الأخضر وغنت لسوريا ولحلب، كان معظم الجمهور سوريين،
ولأول مرة شعرت حنين وكأنها عادت إلى الوطن، حين سمعت أحد الحاضرين يصرخ
بصوت عال : اش بك اش بك فايا ؟ (أي ما بك ؟) وإجابته فايا بخفة ظل : ما
اشبني شي. أخفت حنين دمعها و فايا تغني : زينو المرجة والمرجة لينا / شامنا فرجة
وهي مزينة. وغنت للأطفال وقد نام الآن على صوتها وهي تغني نم يا حبيبي الآن نم
كانت سما محلقة في عالمها لم تتفوه بكلمة، فالموسيقى كانت دوما تضميد لجراحها
وصلاة لروحها المتعبة. ويوسف نهض ليرقص مع الشباب حين غنت فايا من التراث
الفلسطيني (يا زريف الطول). نامت باتيل في حضن عمار، وشعرت تسويك بيده
تلمس يدها لثواني ثم سحبت يدها. حين انتهت الحفلة ظلت تسويك تردد مقطعا علق
برأسها وهي تشعر بالنشوة : عم ناديك اسمعني / عم حاكيك افهمني / وإذا مش
قادر تفهمني / بلكي منحكي موسيقى. عادوا إلى اربد في الساعة الواحدة ليلا ...
وضعت تسويك باتيل في سريرها ووجدت رسائل من جاكين وإيليك.

فتحت رسالة جاكين، قد أرسل لها صورة لعائلته مع كوهار وكتب: هذه الصورة
قبل أن ترحل بشهر. كتبت له: كم أشتاق لرؤيتكم جميعا وأتعرّف عليكم واحدا واحدا.
إنّ كوهار نسخة طبق الأصل عن آني لكن ملاح كوهار مرنة عكس آني التي

كانت ملاحظتها حادة. كن دائما بخير أنتظر الأربعاء بشغف كي أكون بينكم.
 فتحت رسالة إيليك : حبيتي تسوغيك يجب أن نتحدث.
 قد بعثت الرسالة في السادسة مساء، قررت أن تكلمها غدا، فلم تكتب لها شيئا كي لا
 تغرق في الحديث عن عائلة كوهار في هذه الساعة المتأخرة.
 حين أرادت أن تغلق الهاتف وصلتها رسالة من عمار: أحبك ... وكثير من النقاط.
 بقيت محدة في الهاتف لدقائق وكأنها سنة، وبقي عمار متصلا على الماسنجر.
 كتبت له بعد عشر دقائق .
 -أما زلت مستيقظا؟
 -أفكر بك كثيرا.
 -وأنا أيضا ... عماررررررررررر
 -ماذا؟
 -لا شيء
 -أريد معرفة اللاشيء
 -أتذكر حين التقينا أول مرة عند مدرسة الراهبات
 -أذكر
 -منذ تلك اللحظة وأنا أفكر بك
 -وأنا أيضا وشعرت أننا سنجتمع مرة أخرى.
 -كان لدي يقين بذلك ظلت عينك مزروعتين في رأسي.

-وعينك كانتا أجمل ما حدث لي يومها.
 -ولكنك بدوت لا مبال في أول محاضرة.
 -وكنت كذلك أيضا. ارتبكت حين رأيتك ولم أتوقع أن ألتقيك بهذه الطريقة.
 -وكأننا التقينا قبل أن نلتقي.
 -استمعي إلى هذه الأغنية.
 فتحت تسوغيك الرابط :
 كيف لي أن أشفى من حبك
 من يداوي جرح شوقي إليك....
 بعد دقائق أرسل لها
 -هل أعجبتك ؟
 -ظننت حقا في البداية أنها أغنية لعاشقة، وفي النهاية هي تريلة للرب
 -الرب معنا في كل حين ويستمع إلينا الآن.
 -ههه ربما لن يعجبه حديثنا.
 -لا تقلقي الله يحبنا كما نحن.
 -أوافق من ذلك ؟
 -ثقة تامة.
 غفت تسوغيك وظلت جملة عمار عالقة في رأسها أنّ الله يحبنا كما نحن وأنّ عمار يحبها
 عبر الله.

(٤٠)

اربد ٢٠١١

-ألو ماما كيف حالك ؟

-أظن أتي بخير

-حسنا !!!!!!!!

-ماذا تفعلين ؟

-أجلس على الشرفة مع كوب النسكافيه وكنت أتحدث مع كاجين.

-ألا تحبلي من ذلك؟

-مم؟

-من الحديث مع أعدائنا

-وسأذهب إليهم الأربعاء القادم.

-أجنت ؟

-ربما أوليس الجنون ما تفعلينه أنت بأن ترفضي خالتك ؟!!!!

-هذا أمر يخصني.

-ويخص آتي أيضا.

-وما شأن آتي؟

-ألم تظهر لك في المنام وأمرت بك بكره كوهار.

- إنك لست أرمنية بحق.
- بالطبع فدي مختلط ليس كدمك.
- تسوغيك أهذا ما تودين إيصاله لي.
- أنت من طلبت الحديث معي، لولا آواديس لأخفيت عني أنّ لي أقرباء.
- أنا من أخبرته.
- كنت تظنين أنه سيقف بجانبك كليفون، أو لأنك كنت تشعرين بالذنب، وتريدين أن أفعل ما لم تجرؤي على فعله بأن تتواصلي مع ابن خالتك.
- بدل أن تلوميني، قد عرف ليفون أنك عاشقة.
- وهل ينتظر أن أستاذنه ؟!!!!
- يعني لا تنكرين ذلك ؟!!!
- وهل فعلت الخطيئة أم أنك كنت تظنين كليفون أنني سأذهب لفترة قصيرة إلى الأردن، وأعود نادمة إلى ليفون.
- ستغضبين الرب بذلك.
- دعك من الرب فهو لا يتدخل بشؤوني، والرب لن يغضب منك لأنك رفضت أقربائك، وفي الكتاب الذي تقرأينه دوما أنت وليفون يوصيك بأن تحبي قريبك كنفسك. فكري قليلا لو أرادت آني لتخلصت من الرسائل لكنها كانت تشعر بالذنب وأرادت أن تورثك إياه.
- كفى تسوغيك إنك تعذيني بهذا الكلام، إنك لم تعيشي مأساة آني كي تحكي عليها

أو علي.

-أنا لا أحكم عليك أو عليها، أنت التي تظنين دوماً أنّ زواجك من رجل غير أرمني الذي هو بالنهاية أبي كان خطيئة، وأنّ طلب طلاق من ليفون خطيئة، وعشقي لرجل غير أرمني خطيئة، والتقرب من عائلة كوهار خطيئة. لا أوئن من ربّ أبي الذي يصنع من كل شيء خطيئة. سأفعل كل هذه الخطايا.

-ألا يكفي أنني تركت عملي في الجامعة، وجئت معك إلى الأردن.
-إنك بالنهاية أُمّي وأظن أنني بالنهاية ابنتك. قلت لي أنك ستذهبن أسبوعاً وتعودين.
-أتريدن بذلك أن تضغطي عليّ كي أعود، إني أطمئنك أنني سعيدة مع أبي بحاجة إليك.
-تسوغيك لا أستطيع تقبلهم.

-لم أجبرك على فعل شيء وأنت الآن تجبريني على العودة إلى ليفون، كما أجبرتني على الزواج منه وتجبريني أيضاً على رفض عائلة كوهار، متأسفة أُمّي فأنا مستعدة أن أتحمل جميع الخطايا التي صنعتها أبي وألصقتها بالله على أن أجبر نفسي من جديد على إرضاء أحد.

-إنك عنيدة.

-وإنك تنفذين وصايا أبي حتى بعد موتها، ها هي قد حملتك الذنب من جديد بعد ذنب زواجك من أبي بتركها الرسائل كي تعذب روحك، وستبقين تشعرين بالخطيئة.
-حسناً سأنهي المكالمات الآن.
-كما تشائين.

(٤١)

أربد ٢٠١١

مرت حنين وأخذت باتيل كي تضعها بالحضانة مع آلان قبل أن تذهب إلى عملها،
 وذهبت تسوغيك إلى الجامعة فلم تطق الجلوس في البيت بعد مكالمتها مع إيليك.
 رن هاتفها

-ألو. أكنت تنتظرين مكالمتي ؟
 -مم لن أكذب، كنت أنتظر ذلك.
 -أين أنت؟
 -في الجامعة بجانب كلية الآداب.
 - سآتي حالا.

نهض عمار من سريره، فتح هاتفه واختار أغنية لمايك ماسي، وكان يغني معه وهو
 يرتدي ثيابه

غير لون عيونك

أخبارك حكيك وجنونك.....

استيقظ يوسف على صوته، وأصبح يقلّد عمار.

- ليس بيننا شيء يا يوسف. ألم تقل ذلك يوم الجمعة ؟

اقترب منه عمار

- اشیائے قیمتی

وأكل الأغنية...

غير لون عيونك ...

قبل أن يخرج قال له يوسف.

-أيها المجنون إنك تتعلق بها سرعيا

لَوْحٌ لَهُ بَيْدُهُ وَهُوَ يَرُدُّ كَلِمَاتِ الْأَغْنِيَةِ : بِحَا صَوْتِكَ بِتَذَكُّرِي فَيْكَ.

كانت تسوغيك جالسة على طاولة أمام كافثيريا الآداب، وأمامها كوب النسكافيه

الذي صنعه بالبيت.

اقترِب منها عمار.

-صباح الخير

-صباح النور

عاد ليردد الأغنية وهو جالس ويرفع يده في الهواء، كأنه على خشبة مسرح وينظر

في عيني تسوغيك

غیر لون عیونک

أخبارك حكيك وجنونك

بِحَاةِ صَوْتِكَ بِتَذَكُّرِنِي فِيكَ

بلڪي انسي انو فڪر فيڪ

قالت له تسوغيك بصوت منخفض وهي تبتم

-توقف عمار انظر كيف يحدقون بنا !

-حسنًا سأتوقف ماذا كنت تقرأين ؟

رفعت الكتاب وأرته العنوان.

قرأه عمار بصوت عال

-le chemin de l'amour

قالت تسوغيك:

-أي درب الحب لأوشو، اسمع ماذا يقول أوشو :

(الحب أربعة أنواع : الأول، أن تطلب فحسب وهو الحب غير الناضج والموجود عند الطفل الذي لا يمكنه أن يعطي، فهو في المقام الأول لا يعرف كيف يعطي. أما النوع الثاني والأرقى فهو عندما تبدأ بالعطاء، وعندما تعطي ولا تهتم إذا أعطاك الآخرون في المقابل أم لا. أما النوع الثالث من الحب هو عندما يستطيع الإنسان أن يعطي وأن يأخذ، من السهل عليه أن يعطي ومن السهل عليه أن يأخذ وليس عنده مشكلة في ذلك، وهذا النوع من الحب ناضج جداً. أما النوع الرابع والأخير فهو عندما لا تدري ما الأخذ وما العطاء لأن الآخر لم يعد موجوداً، أنت جزء من الكل.

قال عمار: بعد أن تنهد

-حسنًا إنني اختار النوع الرابع عندما لا أدري ما الأخذ وما العطاء لأن الآخر لم يعد

موجوداً. أنت جزء من الكل

-je vais toucher le bois

(سأدق على الخشب)

-pourquoi

(لماذا؟)

-لأنك حفظتها بسرعة

-ههه نحن نستخدم نفس المثل (دق ع الخشب)

بعد قليل من الصمت سألها عمار

-ما بك تبدين لييمة ؟!!!

-مممم.. أنا ؟

-بل أنا!!!!!! إنك تشبهين شرشيل في السنافر.

ضحكت تسوغيك بصوت عال.

-أنا أيها اللئيم ؟!!! وأنت تشبه سنفور الغبي.

-تبدين أجمل عندما تضحكين كالأطفال.

-وكيف يضحك الأطفال؟

-من قلوبهم.

-وأنا أحبك عندما تضحك لأن عيناك تضحكان أيضا.

-آه ؟

-وتظهر غمازتي عينيك.

- أعرف أن الغمازة في الخلد.
- أنا الوحيدة التي أراها
- حسنًا...يكفيني أنت.
- مم شكراً لانك تحبني أكثر عندما أضحك، فقد كان ليفون يكره ذلك لأنني أصبحت فتاة ناضجة.
- وماذا كنت تفعلين، أكنت تبقين متجهمة كشرشيل طوال الوقت؟
- ضحكت تسوغيك
- لا كنت أضحك متعمدة أمامه، وأشجع باتيل على أن تفعل مثلي.
- ضحك عمار.. قالت تسوغيك
- توقف... هذه هي الضحكة التي تظهر فيها غمازتي عينيك.
- ماذا أفعل أبقى هكذا؟
- التقطت له صورة من هاتفها
- توقفي وأنا سألتقط لك صورة
- أكملي وماذا كان يفعل؟
- ليفون؟
- نعم
- كان يشكوني لجديتي آني التي كانت تعطيني محاضرة عن المرأة الأرمنية.
- هل كانت قاسية؟

-معظم الأرمن طيبو القلب، ويهتمون بأطفالهم حد الاختناق، ولكنهم حين يكرهون أحدا يغلقون قلوبهم.

-هل كنت تجددين صعوبة في فرنسا لأنك طفلة أرمنية ؟
- سأتكلم عن أرمن فرنسا

أصلحت من جلستها، وأكملت وبدأت كأنها تمثل دورا مما أثار ضحك عمار
-كنت أعاني من صعوبة لفظ اسمي من قبل المعلمين، وأذكر عندما كنت في الصف السادس لم تقرأ المعلمة اسمي، فرفعت يدي وقلت لها أنها لم تقرأئي اسمي، فتظاهرت أنها نسيت ولكنها أصيبت بالخلج، فكيف لها أن تقرأ اسمي واسم عائلتي المكون من أربعة عشر حرفا (ديرهاروتيونيان)، فكانت تقلب جميع الحروف مما يثير ضحك الطلاب، مع أنّ أبي ليس أرمنيا وكان يمكن أن أحمل اسم عائلة بسيط مكون من أربعة حروف أو أكثر قليلا لولا تدخل جدتي آني.

-أنت فلسطينية إذن ؟

-أخي صحو قال لي ذلك فلم أرى أبي أبدا

صمت عمار قليلا ... سألته تسوغيك

-أيها السنفور الغبي ما بك ؟

-لا شيء شرشيل أفكر بانتماءاتك المتعددة.

-مِم وهذا ما يقوله الفرنسيين حين يصعب عليهم تحديد أرمنيا على الخارطة فيسألونني..
آه أرمنيا التابعة إلى تركيا أي أنتم مسلمون ؟ فأجيبهم بأسلحة آني : لا لا بالطبع إنها

منفصلة، والأمرن هم أول شعب اعتنق المسيحية. فيسألون مجددا أنت إذن من أرمينيا؟ لا لا مهاجرة أرمينية أعيش في فرنسا.. ماذا يعني؟ يعني لا شيء سوى أنني أعيش الآن فرنسا. والشيء المضحك اختلاط اللغات في حديثا بين الفرنسية والتركية التي كانت تتقنها جدتي اني والأرمينية والانجليزية مع إيليك وباتيل والعربية مع صحو أما مع ليفون لغة الإشارة والصمت .

ضحك عمار بشدة حين تحدثت عن ليفون ثم قال.

-خلطة عجيبة !!!

-ومتعبة. هل عرفت الآن أم تريد المزيد؟

-إنك ثرثرين بشكل جيد.

-وأنت محقق جيد.

-إنك تضحكيني في كل لحظة

-وأنت تثير شهيتي للضحك، اسمع سأقول لك نكتة.

-لا لا اكتفيت، معدتي تؤلمني من الضحك.

-سأقولها وأصمت

-وعد؟

-وعد.

-هيا ولكن لا أستطيع النظر في عينيك، فإنك تضحكيني قبل أن تنفوي بكلمة يكفي

تقليدا للفرنسيين عندما يسألونك عن الأمرن.

-حسنا سأبدأ : قالت زوجة بشعة لزوجها لماذا لم تصلح الشباك ؟ جارنا ينظر إلي، لم يغضب زوجها قال لها : لقد التقيت بجارنا اليوم وتوصل إلي أن يصلح هو الشباك. لماذا لم تضحك ؟ ألم تفهمها ؟

ظل عمار صامتا

-عمارررررررررررر ... الجار الذي سيصلح الشباك

-فهمت ذلك

-لا تطاق

ضحك عمار

-كنت أعصر نفسي كي لا أضحك، والذي يضحكني أكثر أنك تروين النكتة بكامل حواسك كنت أريد فقط أن أستفرك قليلا.

-مم حسنا ولكن كي أسامحك قل لي نكتة

-حسنا ... مم اسمعي

بدأت تسوغيك بالضحك قبل أن يكمل

-لم تتفق هكذا انتظري

-j'attends (إني انتظر)

أخفضت تسوغيك رأسها كي لا تضحك مجددا

-مم كان هناك سارق سرق محفظة موظف أردني استلم راتبه ...

-حسنا وماذا بعد ؟

-فتح السارق المحفظة وجد فيها ثلاثمائة دينار وورقة مكتوب عليها التالي : ٤٠ دينار
كهرباء، ١٠ دنانير ماء، ٢٠ دينار لأبو محمد البقال، ١٠ دنانير قسط الزيت، ١٠
دنانير حافظات أطفال وحليب

-اه وبعد هيا....

-انتظري ... ١١٠ دنانير أجرة البيت،، ٤٠ دينار أغراض للبيت من المؤسسة، ٢٠
دينار دواء لزوجته

-اوقففففف حسنا وبعد ؟

-تحلي بالصبر ٤٠ دينار مصروف البيت لآخر الشهر.

-اهههه وما المضحك أيها السنفور الغبي.

-السارق أشفق عليه وأخرج من جيبه خمسون دينار بالمحفظة وذهب لبيته وقال له أني
وجدت محفظتك ... وأقسم أنه لن يسرق أبدا محفظة أردني.

انفجرت تسوغيك من الضحك

-آههه السارق وضع له من جيبه إنه سارق محترم.

-أيضحك الفرنسيون مثلنا؟

-مم يجب أن تعيش يومياتهم كي تضحك على النكتة

-قولي لي نكتة فرنسية

- يكفيك أن ترى باتيل وتضحك طيلة الوقت

-إنكما مثل توم وجيري

- موافقة بشرط أن أكون توم.
- ماذا؟!!! ظننت أنك ستختارين جيري لأنه يريح دائماً
- وإن سألت باتيل ستختار جيري
- علاقتهما معقدة جداً.
- جدا..
- تناولت الملعقة عن الطاولة وبدأت تحرك النسكافيه المتبقي في الفنجان.
- أتعرف أن الحلقة الاخيرة لم تبث إلا مرة ثم ألغيت لأنها تنتهي بموت جيري لذلك
- لم أختَر جيري كي لا تحزن باتيل إذا مت.
- نهض عمار وحرك يديه في الهواء.
- قد أثرت آلامي، سندفن جيري، و، نمشي في جنازته.
- عممار توقف
- إنك حساسة جداً
- وأنت بلا إحساس
- لو سمعك يوسف لغاب عن وعيه من الضحك
- عماررر توقففففف
- حسنا حسنا قولي لي نكتة فرنسية
- لا
- هيااااااااااا سأصمت

(٤٢)

أربد ٢٠١١

قال الطبيب :

-علينا أن نجري فحوصات أكثر

قالت حنين وهي تلبس آلان

-لا أستطيع أن أقول شيئاً في هذه اللحظة

سألته تسوغيك وهي تمسك بيد آلان

-متى نستطيع أن نأخذ الفحوصات ؟

-بعد أسبوعين.

سألته حنين

-وماذا بشأن السعال؟

-ربما حساسية من الطقس ليكل البطل كورس الدواء

قالت حنين وهم ينزلون الدرج

-إني قلقة

-كوني متفائلة، ألا ترين كم هو جميل آلان !

اقتربت منه تسوغيك

-هيا لنأخذ باتيل، إنها تعاني الآن من الصداع وحرارتها مرتفعة لأنها لم تذهب معنا

ضحك آلان

-لن أقول لها أن الطبيب أعطاني الشوكولاتة، فستحزن كثيرا سأقول لها أنه بابا أرسلها لي من السماء

تبادلت تسويك وحنين النظرات

-حسنا اتفقنا هياااااا

كانت باتيل بانتظار تسويك مدت لها تسويك يدها

-où étais-tu ?

(أين كنت ؟)

-avec Alan

(مع آلان)

-et moi je suis restée seule là

(وأنا بقيت هنا وحدي)

-Pas seule، avec ta prof d'arabe

(لست وحدك بل مع معلمة اللغة العربية)

je ne l'aime pas-

(لا أحبها)

-Ah bon c'est normale parce que tu me détestes quelques fois

(حسنا هذا عادي لأنك لا تحبينني في بعض الأحيان)

-maman, je suis vraiment énervée

(ماما إني حقا منفعلة)

أخفت تسوغيك ضحككتها

ظلت باتيل صامته إلى أن وصلو للبيت، ذهبت سريعا إلى غرفتها، ظلت تسوغيك تناديه من المطبخ لكنها لم تجبها

-batile si tu viens, on va acheter un ours en peluche

(باتيل إذا أتيت سنشتري دمية من الصوف).

نهضت باتيل سريعا ووقفت أمام عتبة المطبخ.

-vraiment, c'est promis ?

(حقا ؟ هذا وعد ؟)

-oui c'est promis

(نعم هذا وعد)

كانت باتيل تنادي على تسوغيك بصوت عال

-maman comment je vais l'appeler

(ماما ماذا سأسميه)

-tu parles de qui

(عن من تتكلمين ؟)

-je parle de l'ours en peluche

(أتكلم عن الدمية)

قالت تسوغيك: همسا وهي تضع الغسيل

-رباه ... هل أنا أمثل في مسلسل كرتوني، ألم ترث باتيل سوى غباء ليفون !!!

-maman je ne t'entends plus

(ماما لم أعد اسمعك)

تهدت تسوغيك

-batlie laisse moi tranquille

(باتيل اتركيني وشأني)

Pourquoi ? pourquoi ? je veux parler avec Ammar

(لماذا لماذا أريد التحدث مع عمار؟)

-d'accord

(حسنا)

اتصلت تسوغيك بعمار وأعطت الهاتف لباتيل

- ça va Ammar mon meilleur ami ?

(عمار كيف حالك صديقي العزيز؟)

كانت باتيل تضحك وهي في الحمام

- ça va ma belle

(الحمد لله يا حلوتي)

- ça fait long temps que je ne t'ai pas vu.tu me manques

(لم أرك منذ مدة طويلة. اشتقت اليك)

moi aussi-

(وأنا أيضا)

-je vais demain aller avec maman pour acheter un ours en
peluche.viens avec nous.

(غدا سأذهب مع ماما لشراء دبدوب، تعال معنا)

-d'accord ma belle

(حسنًا يا حلوتي)

(٤٣)

أربد ٢٠١١

عاد عمار إلى سريره، كان يوسف ينظر إليه

- ما بك ؟

- مم لا شيء ... أحقا تحبها؟

- ماذا ألم تشجعي على ذلك صباح الجمعة قبل أن نذهب إلى حفلة فايا؟

- مم بالطبع إنها فتاة لا تقاوم

- يوسف ستتغزل بها بعد قليل

- هل نسيت أن لديها فتاة

- يعني

- يعني

- اسمع عندما أكون معها أضحك من قلبي، وأشعر أنني عدت طفلا صغيرا، ونقول

أشياء لا معنى لها، وبقية نتحدث عن الله والحب والحياة ثم نعود للضحك أتعي ذلك

من الصعب تفسيره. أتعلم أنني التقيت بها قبل أن أراها في أول محاضرة ؟

- أين أفي حياتك السابقة ؟

-أبله ... التقيت بها عند مدرسة الراهبات حين كنت أصور الأطفال، كانت تشتري من محل التحف المقابل للمدرسة. لا أدري ما حدث بيننا. لا أتحدث عن الحب من النظرة الأولى بل شعرت أنني أعرفها من قبل لا أعلم أين أو كيف

كان يوسف يرمش بعينه

-أشعر أنني بفيلم التيتانيك

-غبي

-ألم تقبلها ؟

-يوسف سأحلف الآن بالعدراء إن لم تتوقف عن قول ذلك أنني لن أكلبك.

-أيها القديس

وضع عمار الغطاء على رأسه، ووضع السماعات في أذنيه وصورة تسوغيك أمامه ومايك ماسي يردد (غير لون عيونك... نظراتك حكيك وجنونك).

في الساعة الخامسة استيقظ عمار وارتدى ثيابه وأخذ الجيتار.

قالت تسوغيك: :

-لا أريد أن أركب التاكسي أريد أن أركب بالباص

اقترب منها عمار

-أيها الشرشيل سنحشر في الباص وأين سأضع الجيتار ويبدو أنها ستمطر
 -لا أيها السنفور الغبي إنك تعرف اربد كالثملة شبراً شبراً وأريد أن أعرفها أيضا
 -لا تعاندي الآن
 -لا لا لا

حين رأت باتيل تسوغيك تخبط برجلها على الأرض وضعت يدها على خصرها
 -maman pourquoi tu te comportes comme les gamins ?

(ماما لماذا تتصرفين كالصبية ؟)

نظرت تسوغيك إلى عمار
 -أرأيت ؟

-ماذا ؟ إنها على حق ستبكي بسببك
 -لا لا لا

-شرشيل

-سنفور غبي

مسك بيد باتيل وأوقف الباص

حين جلسوا همست باتيل لعمار

-maman est toujours comme ça، elle est encore gamine، elle
 m'énerve

(إنّ ماما دوما هكذا ما زالت فتاة صغيرة إنها تغضبني)

- je vois ça vraiment

(إني ألاحظ ذلك حقا)

التفت تسوغيك إليهما

-ماذا أتحدثان عني ؟

قال عمار:

-non

ضحكت باتيل

كانت تسوغيك تتمم

قال عمار:

-هل قلت شيئا؟

-لا قلت إني كنت محقة حين سميتك سنفور الغبي

-بالطبع لأنك شرشيل.

-عمار

-تسوغيك

نظرت إليها باتيل وتوقفت عن المشي عند دوار وصفي التل

-arrêtez de vous disputer، Ammar porte-moi sur tes épaules

(توقفا عن الشجار.. عمار احملني على كتفك)

قالت تسوغيك:

-Batile! Marche! tu penses que tu es maigre,tu es comme l'ogre

(باتيل سيري على قدميك أظنن أنك نحيفة، إنك مثل الغول)

-je suis une princesse

(أنا أميرة)

قال عمار: وهو يرفع حاجبيه وأعطى الجيتار لتسوغيك

-Batile، vas-y

(هيا يا باتيل)

قالت باتيل وهي على ظهر عمار

- maman tu ne peux pas être à ma place

(ماما ليس بمقدورك أن تكوني بمكاني)

غمزها عمار وضحكا معا

قالت تسوغيك: وهي تتنهد

- عمار إنك تحملها وتحمل الجيتار أيضا

-الأميرة تريد ذلك أغرت منها ؟

-ماذااااااا ؟ يا إلهي

قال عمار: لباتيل

-chantons

(فلنغني)

-d'accord

(حسنًا)

بدأت باتيل بالغناء

-Ammar répète après moi

(عمار ردد ورائي)

-d'accord

(حسنًا)

Sur le pont d'Avignon

L'on y danse،l'on y danse

صفقت باتيل حين أنهت الاغنية ومسكت عمار من خديه

-comme tu es mignon mon cheri

(كم أنت جميل عزيزي)

ضحكت تسوغيك بصوت عال

سألها عمار

-لماذا تضحكين؟

-مم لا شيء...تعال سأصلح لك طاقيتك الصوف،حين اقتربت منه كاد أن يقبلها
فابتعدت تسوغيك
ضحكت باتيل.
نظرت إليها تسوغيك

-descends

(انزلي)

-maman je ne veux pas

(ماما لا أريد)

حدقت بها تسوغيك فأنزلها عمار
-يا لك من ظالمة كما في المحاضرة تصبحين شخصا آخر
-حقا؟
-ألا تعرفين ذلك؟
-مم ماذا تريد أن نضحك بصوت عال أمام الطلاب، وتعرف أنني أضحك بسهولة حين
تنظر إلي.

-مم معك حقك

- قد تعبت من المشي

-اللهألم اقل لك أن نوقف تاكسي

-لكنك لم تصر

-هذه مزحة بالطبع ألم تعاندي كالطفلة؟
 -أوووف حسنا أيها العقل الكبير
 -لم يبق إلا عشر دقائق ونصل يا طفلي
 -ممم حسنا ولكن إلى أين سنذهب ؟
 -نسيت أن أخبرك الى مدرسة الراهبات حيث التقيت بك أول مرة
 -مم لذلك أحب ذلك المكان
 -قد تكلمت مع الراهبة الرئيسة أن تساعد اللاجئتين السورين بأن نفتح لهم المدرسة
 عصرا ونجلب متطوعين كي يعلموهم، فليست جميع المدارس الحكومية قابلة
 لاستيعابهم وليس الجميع معه ما يكفي ليسجل ابنه في مدرسة خاصة لذلك وضعت
 منشور على الفيس بوك لمن يريد أن يتطوع.
 يجب أن نكون أخوة في الرب فإن لم نقف معهم ونكون بقعة ضوء على هذه الأرض
 فكيف سنكون ظلا لله.
 لم تجبه تسوغيك بل مسكت بذراعه وهي تبتسم.
 حين دخلوا بوابة المدرسة قال لها عمار :
 -هذه مدرستي وأنا في الحضانة، أعرف كل زاوية فيها. هنا تعلمت الفرنسية، وفي
 هذه الكنيسة صليت لأول مرة للرب وأخبرته عن ألي وفرجي ورنمت له حين
 اكتشفت معلتي سما صوتي.

التفت عمار

- هذا هو أبونا العازر كَمَا نذهب إليه ونحن صغار، هذا هو بيته بجانب الكنيسة.

لَوْح له عمار بيده

- أهلاً عمار

قال عمار: لتسوغيك وهو يمسك بيد باتيل

- تعالي سأعرفك عليه

- كيف حالك أبونا العازر

- نشكر الرب. آه من أين هذه الصغيرة الجميلة

- نسيت أن أعرفك.. هذه الجميلة تسوغيك فلسطينية تعيش في فرنسا من أصل أرمني

قالت له تسوغيك بهمس وهي تعض على شفها

- عمار

- ماذا ماذا أأ كذب يا أبونا العازر؟

- لا يا عمار لم تكذب لكن تسوغيك تخجل وتلك نعمة من الرب

احمر وجه تسوغيك

همس لها عمار

- تسوغيك الشريل تخجل !

قرصته تسوغيك

قال الأب العازر

-لم ننس أبدا مأساة الأرمن، وندعو لهم دوما في صلواتنا، وهنا يكمن اختبار الله الصعب أن تملك القدرة على مسامحة أعداءنا.

قالت تسوغيك:

-أن نسمح الآخر يعني أن نمنع أنفسنا من أن تؤذيها بالكره والحقد .

-صدقت تسوغيك، الغفران يحتاج إلى كثير من القوة.

-والحب أيضا

-قوة الحب ذرة صغيرة باستطاعتها أن تشع في هذا العالم

سلم الأب العازر على باتيل

-مرحبا

قال عمار:

-إنّ باتيل لا تتكلم العربية

اه bonjour

قالت باتيل بخجل

bonjour -

قال الأب العازر ضاحكا

-لا أعرف إلا هذه الكلمة بالفرنسية

قالت تسوغيك: مازحة

-أفضل لك لأنها ستوجع رأسك بكلامها

-لا تقلقي يا ابنتي فهم أبناء الرب ولهم ملكوته

قال عمار:

-سنذهب الآن أبونا

-أحضرهم إلى قداس العيد

-حسنا أبتي

وهم يسرون قالت تسوغيك

-لم أعرف باتيل وهي نخجلة قد أصبت بالصدمة لو أنها هكذا دوما !

اقرب منها عمار

-ولم أعرفك وأنت تتحدثين عن قوة الحب .

-كان حديثا عابرا

-ومتي سيكون أساسيا ؟

لكرته تسوغيك

-سر أيها السنفور الغبي.

-تبقين شر شبيلة.

أجلس عمار الطلبة التي كانت أعمارهم لا تتجاوز التسع سنوات، كانت تحديق تسوغيك

بملايسهم الرثة التي لا تقيمهم من البرد وعيونهم المتعلقة بعمار

قال عمار:

-اليوم سنغني، ولن نأخذ درسا جديدا في اللغة العربية، هيا سنضع الأدراج في آخر الغرفة،

كان يعملون بفرح وطلب منهم عمار أن يجلسوا على الأدراج

-هيا سنغني معا ونكمل الأغنية التي تعلمناها المرة الماضية

تعال بيننا / أقم عندنا / وخذ من قلوبنا لك مسكا

هب لنا عيونا ترنو إليك / واجعل حياتنا ملكا لديك.....

أجلست تسوغيك باتيل في حضنها وصارت تردد معهم المقطع الأول.

حين وصل التاكسي إلى بيت تسوغيك نزل عمار وهو يحمل باتيل النائمة

قالت تسوغيك:

-أستطيع حملها

-لا سأساعدك

-حسنا

أخذتها تسوغيك ووضعتها في سريرها.. كان عمار جالسا على الدرج وجلست تسوغيك

بجانبه

-عمارررر

-نعم يا طفلي الصغيرة

-تأثرت بمنظر الطلاب اليوم

-أفعل ما بوسعي لإسعادهم

مسكت بذراعاه

- كنت أنظر إليهم وهم متعلقين حولك

- ألم تنظري إلي؟

- ممم قليلا

- هل أصلح أن أكون معلما؟

- مممم إنك تعطي من قلبك وبحب

حدق بعينها

- كثيرا

- طفل مشاكس.. اسمع.. أريد أن أتطوع معك.

- وتعليمهم الفرنسية يا طفلي؟

- نعم

- أو لتبقي إلى جانبي وتراقبيني من بعيد

نهضت تسوغيك

- أنا الغبية التي جلست معك هنا وأردت أن أتطوع معك tu me fait chier

avec tes conneries

مسك عمار بيدها وهو يضحك

- حسنا حسنا ستطوعين لأنك تحبين الأطفال وليس من أجلي، ولكنك على ما يبدو

قد شمتني بالفرنسية ولم أفهم

-آه قد شمتك وهل تظن أنّ اللغة فقط صباح الخير ومساء الخير وأحبك. كي تعتبر نفسك أنك تتكلم أي لغة عليك أن تكون قادراً على أن تشتم بها وتحلم بها.

-أخبريني إذن ما معناها

-أووف عمار أشتمك وتطلب مني أن أفسرها لك

-آه وكيف سأغضب منك إن لم أفهمها

-حسنا.. هو تعبير نستخدمه عندما يثيرنا أحدهم ويزعجنا بثرثرته

-آه وهل تعتبرين هذه شتيمة كم أنت طفلة مؤدبة ؟

-عمار

-حسنا حسنا اجلسي

حين جلست نظر إليها

-ماذا سترسميني؟

-أحبك أكثر وأنت غاضبة.

-يا إلهي أحدثه عن الطلبة ويتغزل بي

صمتت حدقت به

-ماذا ماذا عمار ؟

مسك يدها وشبك أصابعه بأصابعها.

قال لها..

-الأصابع تفضحننا ... أصابع عازف البيانو طويلة وناعمة ... أصابع البناء خشنة كحياته

...وأصابع العاشق مرتبكة دوما

-أتعرف لماذا الفراغات بين الأصابع ؟

-لا لم أفكر يوما بذلك

-حسنا سأخبرك.. قد قرأت مقولة بالفرنسية حين كنت في السادسة عشر كنت

ألثم الكتب كي أقتل وحدتي،اعتدت أن أسجل جميع المقولات التي أقرأها من

الكتب في دفتر صغير .

المقولة هي : les espaces entre les doigt ont été créés pour laisser

une autre personne les combler.

(الفراغات بين الأصابع وجدت كي يستطيع شخص آخر أن يكملها.)

-لهذا أمسكت بها أعدك أنك لن تكون وحيدة، وجئت لأكمل هذه الفراغات.

احمر وجهها وابتم عمار

-انظروا إلى هذه الطفلة قد احمر وجهها

نهضت تسوغيك

-هيا عليك أن تدرس جيدا

-حاضر معلتي، أظن أن معك انفصام بالشخصية

-انتظرو.

أصلحت له طاقة الصوف، ولّفت اللفحة جيذا على رقبتة

- كي لا تشعر بالبرد

- والقبلة ؟

ضحكت

- كما فعلت عصرا طفل قليل الأدب هيا يا سنفور الغبي

- حسنا شرشبيلي ساقبل باتيل فقط على خدها

- آه قبلها ... قبلها

- أتغارين ؟

- اذهب عمار

- انّ وجهك احمرّ مجددا

- إنه إنه من البرد

- ولماذا لم تدخليني إلى البيت أأنت ضيفك؟

- مم نسيت ذلك أحببت الجلوس على الدرج.

غمزها

- كالعشاق الذين يختبئون من آبائهم

- أوقف يا ربي اذهب اذهب

- حسنا حسنا ولكن عندي نكتة جديدة

- لم أعد أحب النكت أكرهها

-ستضحكين من قلبك لا تفوتي ذلك

-لا لا أريد

-حسنا كما تشائين

-انتظر ما هي ؟

- أيتها الطفلة توسلي إلي كي أقولها

-هيا

-حسنا اسمي : صديقتان تتكلمان مع بعضهما قالت الأولى :أخبرت حبيبي أن نفترق

قليلا كي نتأكد من مشاعرنا.

سألها الأخرى : ماذا حدث ؟

قالت تسوغيك:

-هيا عمار ماذا حدث ؟

-أجابتها الثانية : أصبح لديه ولدین

ضحكت تسوغيك

-حقا حقاً ولكن لن أفترق عنك إلا الآن، ولن أنجب طفلين في يوم واحد.

-تطمنتي

ضحكت تسوغيك وهي تغلق الباب وقد أحست أن السماء اقرب قليلا.

حين فتحت الباب سمعت صوت باتيل كانت تتحدث مع ليفون

-بابا عندي صديق اسمه عمار يلعب معي دوما، وأقبله دوما هو جميل جدا وماما تحبه أيضا

تمت تسوغيك وهي تقف أمام باب الغرفة (من أي شيء صنعت هذه الفتاة ؟
إذاعة أخبار فقط).

سمعت ليفون وهو يقول لها
- اشتقت إليك حبيبي سأحدث معك في وقت لاحق
قالت تسوغيك:

tu veux juste bavarder ، tu n'as rien à dire،Batile-

(باتيل، ليس لديك شيئا لتقوله، تودين الثروة فقط)

Ammar est mon ami aussi-

(عمار صديقي أيضا)

نهضت تسوغيك عن السرير وهي تتم : أوووف باتيل مؤكد ستتصل أمي، وسيلعب
ليفون دور الأب الضحية الذي ستنساه ابنته باحثة عن أب غيره. آه منك باتيل.
بعد نصف ساعة رن هاتفها

-أهلاً أمي

-قد اتصل بي ليفون ويريد أن يرى ابنته

-ومن سيمنعه؟

-لا يستطيع المجيء إلى الأردن

-وأنا لا أستطيع أن أترك الجامعة وأتي

-تعالى في عطلة عيد الميلاد

-لا أظن أن العطلة في فرنسا كما في الأردن

-ولكنه غاضب جدا فهي لا تكف عن الحديث معه عن صديقك عمار

-وماذا يتوجب علي أن أفعل؟

-أن تتفاهمي معه فما زال زواجك.

-مسألة وقت ليس أكثر، ألا تكفّي عن قول الجمل ذاتها، وأن تثيريني بحديثك. قلت

لك هذه حياتي ولا شأن لك بها.

-هذه أنت منذ كنت صغيرة، لسانك حاد ومتجهمة.

-وهكذا أنت أُمي تريدن فتاة على قياسك تلبسها وتطعمها وتزوجها كما تشائين.

مللت حتى الشجار معك.

-سيحترق قلبك كما احترق قلبي على أبيك.

-أريد أن يحترق قلبي أن أذوب اشتياقا وعشقا، أن أشعر بالحزن والفراق وبالفرح

الكبير، أريد أن أحتضن أحد بعنف، أن أحدثه عن أدق تفاصيلي وأسراري.

-هل نمت معه ؟

-ربااااه... تودين فقط أن أكون مريم الجدلية التي تنتظر المسيح الذي هو ليفون ليغفر لها، وتحاسبيني كأنك لا تامين مع بريفير. اطمأني فلم يحدث شيئا بيننا وحدث كل شيء..

-لا فائدة من الحديث معك

-أشكر السماء لأنك وصلت لهذه النتيجة

-إنك تهدمين كل شيء

-سأقول لك شيئا، إنك لا تفكرين إلا بنفسك.. أظنن أنك بهذا الشكل أظن أنك تلك الأم التي تخاف على ابنتها، سأفعل الشيء الذي عجزت عن فعله أمام آني، سأحب وأحب وأختار من أشاء.

-كفي عن ذلك تسوغيك

-لا يهمني أحد الآن سواي، منذ أن عبر أذني صوت المضيقة قبل شهرين بأنّ الطائرة ستهبط في الأردن. خذي باتيل تريد الحديث معك.

دخلت إلى غرفتها وفتحت الآياد وبحثت عن اسم عمار كتبت له : أحبك أحبك أحبك.

لا تترك أصابعي فارغتين.

الفصل الرابع

(٤٤)

أربد ٢٠١١

أنخي الحبيب صحو

أكتب إليك كي أبقىك على قيد الحياة لكي أحتال على موتك بورقة

منذ رسالتي الأخيرة وأنا أمارس يومي كما هو أو ليس كما هو هناك شيء ما.

يقول المتصوف (جلال الدين الرومي) : مهمتك هي عدم السعي وراء الحب، بل أن تسعى وتجد كل الحواجز التي قد بنيت بينك وبينه).

وهذا ما أفعله الآن أن أزيل الحواجز التي لطالما وضعتها بسبب ليفون وإيليك وآني.

قد أعادني عمار إلى طفولتي وكأنا عدنا إلى المدرسة، وجلسنا على مقعد واحد، وكنا نضحك مليا ونبني ذكرياتنا معا.

معه لا أرغب الا بالفرح ... أطيرو ... أعدو ... أجمد اللحظة بيننا كي لا تهرب من بين أصابعنا.

أتعلم أنّ علاقتي مع الله قد أصبحت أفضل من ذي قبل، صرت أقيم معه صباحا ذلك

الاتصال البسيط الذي يبدأ ب (صباح الخير) وينتهي ب (كيف حالك) ذلك

الاتصال الذي يجعلني أحيا لشيء ما، أن أبتمس لأني لي عينين وقدمين.

ولأني أتنفس حبا ...

بوجود عمار صرت أحس الله أقرب، ألسنا في النهاية ظل الله على الأرض، وقد ساعدني عمار على أن أجد معه ظلي.
نجلس معا ونمضي ساعات ونحن نغرق بالضحك لأسباب تافهة، ثم فجأة نتحدث عن الله والموت والحب.

ذهبت معه إلى مدرسة مسيحية قد تطوع فيها ليعلم بعد العصر الأطفال اللاجئين، كنت قبل ذلك طفلة متوحدة أنانية لا تفكر إلا بكتبها وبأحزانها وأفراحها. رأيتهم معا مسلمين ومسيحيين.

أتذكر تلك الصورة التي أحبينها معا تلك التي يجلس فيها أربعة أطفال في مقعد في حديقة وهم يضحكون من قلوبهم ومكتوب تحت الصورة : عندما كنت صغيرا، لم يكن ما يسمى مسلم أو مسيحي أو يهودي أو أبيض أو أسود، كان يوجد أصدقاء فقط.

رأيتهم وهم يتخلقون حوله ويرتلون جميعهم فحين فرقتهم أوطانهم توحدوا على الله. إنه يشبهني حد التناقض كلانا يحب العزلة، وحين نكون معا يصير الفرح ثالثا، ولم أعد بحضوره أخاف الفرح.

لم يعلمني ليفون كيف أحب الله بفرح كي اتهاجأ معناه، وأرى الله بالتفاصيل الصغيرة، لم أكن مع عمار بحاجة لأن أحفظ الإنجيل كي أكون سعيدة وكي يقبلني الله. ولم أكن معك بحاجة أن أحفظ القرآن كي أحبك.

كم أنا وأنت متشابهان، فقد جئت أنت مسلماً إلى عائلة مسيحية، وولدت أنا بعائلة
مسيحية لأخ مسلم ...
كنا في تلك الفجوة التي يختلف عليها الناس لذلك لم نختلف على الله وأركانها وشؤونه.
كنا نبحث عن الحب حين كان الآخرون يبحثون عن أيهما هو الحق.
إني عاشقة يا صحو
وهناك أحد يحيا تحت جلدي ...
به شيء منك ومني

إنّ أُمي غاضبة جداً بعد أن عرفت بعلاقتي بعمار ولأنني سأذهب إلى تركيا، حاول
أن تتحدث معها وطمئنها أنّ آني لم تعد بيننا.
.....

جاءت جميلة
-آه تسوغيك حبيبتى ... عزيزتى
-جميلة قولي ما عندك
-مم هل حنين سعيدة في العمل؟
-لم أرها البارحة
-زوجي فرح بعملها
-جميلة وبعد...

- يجب أن انهي هذا البحث بعد غد وأريد منك أن تدقيقه.

- حسنا

رن هاتف تسوغيك

- أيتها الطفلة المشاكسة

- نعم سنفور الغبي

- لم أرك اليوم

- ليس لدينا محاضرة اليوم.

- ماذا ؟.. لن ألوم باتيل عندما تغضب منك

- حسنا اهدأ ... سأذهب معك الى المدرسة كي أبدا مع الطلاب ثم نذهب

إلى السوق

- ماذا كنت تفعلين ؟

- كنت أكتب رسالة بخط يدي إلى أخي صحو

- ماذا بخط يدك ؟

- سأخبرك بذلك عندما نلتقي.. اذهب الآن هيا

- أحبك

- وانا لا أحبك

- كاذبة

- ربما

حين أنهت المكالمة ظلت جميلة صامتة وضحكت تسوغيك من وجهها المليء بالدهشة
-ماذا؟

-مع من تتكلمين؟

قالت تسوغيك: وهي تلم أغراضها عن المكتب
-هذه ليست أسئلة فرنسية؟

-دعك الآن من هذا، كيف أحببته بهذه السرعة؟ مؤكد أنه وقع بحب عينيك
العسليتين ومتى الزواج؟
ضحكت تسوغيك

-أعدنا إلى فتيات الجامعة وإلى جائزة الترضية!!!

-وهل ستظان تبادلان رسائل الحب بلا جدوى يجب أن تربطيه
-ماذا ألم تجدي كلمة أفضل؟!!!

-لماذا؟ إن لم تربطي الرجل بجانبك سيتسرب كالرمل من بين أصابعك
قالت تسوغيك: وهي تغلق باب المكتب

-إنك تأكلين رأسي.. لماذا جميعكم هكذا؟

-عزيزتي الحب لا يطعم خبزاً

قالت تسوغيك: وهي تنزل الدرج

-يكفي أن أشعر بالفرح مع السلامة

- مع السلامة فكري بكلامي، واربطيه قبل أن ينتهي الفرح.

.....

قالت تسوغيك: لعمار وهما بالطريق إلى المدرسة

-إني خائفة ؟

-مم ؟

-أخاف من الأطفال

-رباه ... لا تخافين وأنت تقفين أمامنا وتخافين من الأطفال !!!!

-أخاف أن أرحهم بدون أن أقصد

-آه ونحن أليس لنا أحاسيس ؟!!!

-إنكم كالشياطين

-لو يرى الطلاب في الجامعة ارتباطك الآن لن يصدقوا أنك الشرشيل الذي يقف بالمحاضرة.

-أوووف أيها السنفور الغبي هل تملك برائتهم ؟

-أنا بالطبع كالملائكة

-ههه والملائكة لا تسكن الارض.

حين انتهى الجميع من إعطاء الدروس جمعت تسوغيك جميع الطلاب

-سنلعب الآن، من يعرف لعبة الكراسي؟

رفع أحدهم يده

-أنا

-هل تستطيع أن تشرحها لنا؟

-نأتي بتسعة كراسي لعشرة أطفال والرابح هو من يحصل على الكرسي، ومن يبقى بدون كرسي يكون خارج اللعبة ...

قال طالب آخر

-ثم نقلل عدد الكراسي كل مرة فيخرج طفل في كل مرة حتى يبقى طفلا واحدا ويتم إعلانه أنه الفائز.

قال عمار: :

-هيا لنعلبها

قالت تسوغيك:

-لا سنلعب بالطبع لعبة الكراسي ولكن بطريقة مختلفة، سنأتي حتما بتسعة كراسي لعشرة أطفال أيضا وعليكم أن تعلموا أنّ عددكم أكبر من عدد الكراسي، فإذا بقي أحد دون كرسي سيخسر الجميع.

نظروا إليها بتعجب وكذلك عمار

قالت تسوغيك:

-حسنا عليكم احتضان بعضكم البعض لكي يستطيع عشرة أطفال الجلوس على تسعة كراسي ومن ثم سنقلل عدد الكراسي، والشرط هو يجب أن تتأكدوا بأن لا يبقى أحدكم دون كرسي وإلا ستخسروا جميعكم.

كان عمار وتسوغيك ينظرون إليهم وهم يحتضنون بعضهم كي لا يخسروا، كان عمار

يحدق بتسوغيك

ابتسمت

-ماذا ؟

-كيف خطرت لك ؟

-لست من اخترعها ولكني أسعى دوما إلى أن ألعبها بهذا الشكل، فبالطريقة الأولى سيتعلم الطفل الأنانية، وأنه إذا أراد النجاح عليه أن يبعد غيره، وأما بالطريقة الثانية سيتعلم الطفل أنه لن ينجح دون أن يساعد غيره على النجاح. هذه هي اللعبة بكل بساطة.

-أيها الطفلة كم أنت ذكية

همست له :

-كم أنا مليئة بالحب.

-أحبك

-وأنا أيضا.

-لا نستطيع اليوم أيضا أن نزور معلمتي سما فإنا زالت معتزة فهناك فترة تختارها الراهبة أن تصوم وتعتزل الجميع في غرفتها.

-لم أختبر ذلك من قبل أو كنت أعتزل مع كتي.

-والفرق هنا مع الله.

-سندهب إلى السوق، هل تعرف مكانا يبيع دبة وألعاب فقد وعدت باتيل أن أشتري لها دبا.

-آه ليس بعيدا عن المدرسة.

-كنا نتحدث عن العزلة، أعتقد أنني يمكن أن أحيا عزلي بدون أن أحبس نفسي في غرفة، إن ذلك يشبه الحب فهو سرّي نحياه ونحن مع الناس.
-قد سألت مرة معلّتي سما عن ذلك قالت لي أنها لم تقبل أن تنحبس في دير، أرادت أن تكون مع الأطفال، لأن لهم ملكوت الله ومنهم تتعلم الحب والغفران، ولكن الإنسان يحتاج بين فترة وأخرى إلى الإنعزال والصوم كي يشحن نفسه بالحب من جديد ويخلو بنفسه.

إنها تسمي الحياة بالغربة، فالحياة فترة نعيشها ثم ننقل إلى الحياة الأخرى في السماء، فالإنسان غريب على هذه الأرض لأنّ الموطن الأصلي الذي ينتمي إليه هو السماء.
-لم يشرح لي ليفون يوما الحياة بتلك الطريقة كم هو المعنى عميق.

كانت باتيل صامئة.. حملها عمار ووضعها على كتفيه
قالت

-comme je suis heureuse maintenant

(كم أنا سعيدة الآن)

قال عمار: وهما يعبران ساحة اربد القديمة

- يبدو أنّ علاقتك بليفون لم تكن جيدة.

- قد أجبرت على الزواج منه وأنا في الثامنة عشر

- تجبرين وأنت في فرنسا ؟

- ألم أقل لك أنني أرمنية تعيش في فرنسا، كانت جدتي آني تخاف علينا من كل شيء..

مرة عدت متأخرة إلى البيت وثيابي تفوح منها الدخان، فظنت أنني سأنحرف وسأنام

مع أي شخص ألتقي به لذلك زوجتي هي وأمي من ليفون، وقد كنت الطفلة المطيعة

التي تمرّد فقط على ورقة، وقد خافت أن أتزوج بشخص غير أرمني.

-ولماذا انفصلت عنه ؟

-ظننت أنني سأبقى مطيعة، ولكنني كنت أخطط للطلاق منذ اليوم الأول لزواجنا

لذلك لم أعرف إن كان ليفون سيثا أم لا، ولم أحاول حتى تقبله أو فهمه، وكان هو

محايّد، لم يحاول إزعاجي بشيء كان دوما مشغولا بالرب، ولم اكن انشغل به مثله.

تفوّقت في الماجستير وتوقفت في الجامعة ثم بعد أربع سنوات قررت الطلاق.

-وهل؟

-آه فهمت بشأن العلاقة الجسدية. بعد أن أنجبنا باتيل لم أتمّ معه نكاحاً في غرفتين

منفصلتين ولم يكن هو يكثر لذلك، فازدادت عدم مبالاتي بوجوده، وأظن أنّ

باتيل جاءت بالخطأ في أول زواجنا. إنّ ليفون لم يؤذني وقد آذاني كثيرا بحياده.

سألته تسوغيك

-وكيف علاقتك بأبويك ؟

صمت عمار وقال فجأة

-هنا بيت الشاعر عرار شاعر الأردن، قبره في هذا البيت إنه يسمع جميع الأمسيات

التي تحدث في بيته.

ضحكت تسوغيك

-لا يشعر بالوحدة إذن مع الموسيقى والشعر.

-آه تذكرت الآن هل قلت لي ان تكتبين رسالة بخط يدك؟

-منذ كنت في العاشرة كنت أكتب الرسائل لأخي صحو وأبعثها إلى باريس، قد قرر

صحو منذ أن كنت طفلة أن يعلمني العربية، كان يتكلم معي دوما بالعربية حين كان

يعيش معنا في مارسيليا وحين أصبحت في العاشرة أغلق عيادته في مارسيليا، وصار

يأتي في نهاية كل أسبوع، وكنت أكتب له كل يوم رسالة بالعربية الفصحى ثم أجمع

الخمسة رسائل في نهاية الأسبوع وأبعثها له حين لا يأتي في عطلة الأسبوع فيصححها

لي ثم يبعثها لي مرة أخرى وإلى الآن أكتب له الرسائل، ولكن كل ثلاثة أسابيع أو

كل نهاية شهر وما زال يحتفظ بجميع رسائلي.

- كم يحبك !

-إنه الوحيد الذي يفهمني، هو أبي الذي لم أره وأختي التي لم تلدها أمي، وصديقتي

التي لم أجدها في المدرسة، وأمي التي لم أشارك معها أسراي ...

-حين قابلته كان لطيفا جدا يبدو للوهلة الأولى اجتماعيا لكنه انطوائي.
 -صحيح أنه طفل صغير، لا يرغب إلى الآن في الزواج، ولم أسأله مرة عن حياته الشخصية.أتعلم لم يخطر مرة ببالي أن أسأله أسئلة حميمة،هل أحب وهو صغير، هل كان مشاغبا في المدرسة.

علمت أنّ أمه قد توفت في فلسطين وهو صغير، لا أدري لربما كنت أنانية، وكنت أهرب إليه كي يسمع هومي وآلامي،لم أعطه الوقت كي يشكو لي كان يفهمني رغم فارق السنوات التي بيننا.
 -ويحب عمله كثيرا.

-إنه يعمل حد التعب لا يجد نفسه إلا خلف الكاميرا.
 أنزل عمار باتيل كي ترى الدبة
 أشارت باتيل إلى دب

-maman regarde cet ours en peluche comme il est beau avec ses joues

(ماما انظري كم هو جميل انظري إلى وجنتيه المليئتين)
 ضمته إلى صدرها وقالت لعمار

-comment je vais l'appeler ?

(ماذا سأسميه ؟)

،-réfléchissons ensemble

(فلنفكر معا)

قالت باتيل

-Awedis,je vais l'appeler Awedis,il lui ressemble beaucoup

(آواديس سأسميه آواديس، فهو يشبه كثيرا)

قالت تسوغيك:

-folle

(مجنونة)

-regarde comme il lui ressemble avec ses petits yeux

(انظري إليه كم يشبهه بعينه الصغيرتين)

قالت تسوغيك:

-وأنا سأختار واحدا

قال عمار:

-وأنا كذلك

قالت تسوغيك:

-عندما كنت صغيرة كنت أخاف منهم، أخاف أن يثرثرون مع بعضهم في الليل،

وعندما كبرت لا أنام إلا وأنا أحتضنه.

قال عمار:

-عندي واحد منذ كنت في السابعة قد اشتريته لي معلتي سما.

حين وضعتهم تسوغيك في الكيس

صرخت باتيل

-maman tu vas l'étouffer,tu n'entends pas comment il m'appelle ?

(ماما سيختق ألا تسمعيه ينادينني ؟!!)

أخرجته تسوغيك من الكيس وكان عمار يضحك

-معها حق أستخقن آوادييس!!!

-سنفور غي يكفيني باتيل. الآن سنذهب إلى المكتبة لأشتري أوراقا صغيرة

حين دخلوا المكتبة قال عمار.

-كم أحب الدفاتر كنت انتظر الأسبوع الأخير من العطلة كي آتي إلى المكتبة وأشتري قرطاسية.

-وأنا أيضا كنت أذهب مع آوادييس، كنت أفضل الدفاتر التي بلا سطور لا أدري

لماذا ربما لأنني فوضوية وأكره النظام. لدي فكرة سنشتري دفترين سنملؤهما ثم نتبادل

الدفاتر

-حسنًا فكرة حب جميلة.

نظرت تسوغيك إلى عمار وهي تأكل، فنظر عمار حوله

-نكتة؟

-الآن تذكرتها.

-أرجوك ليس الآن سنفضح في المطعم

-انتظر إنها بالفرنسية عن أطفال الروضة

-يا إلهي بدأت الشاورما تعمل مفعولها

-معلمة تسأل الأطفال في الروضة

-حسنا

-السؤال الأول : في جملة : السارق سرق التفاح. أين الفاعل

الإجابة : في السجن.

ضحكت تسوغيك

-لماذا لم تضحك سأكمل. السؤال الثاني : المستقبل من فعل (أنتائب)

الإجابة أنام.

استمع إلى السؤال الأخير : متى أقول : أنا جميلة ؟ في أي زمن ؟

الإجابة : في الماضي.

وضعت تسوغيك رأسها على الطاولة وهي تخفي ضحكتها.

رفعت تسوغيك رأسها

-سأذهب إلى تركيا غدا

جلس عمار

-هل هذه نكتة ؟

-لا وسأعود السبت فجرا.

-ولماذا ؟

-إنها قصة طويلة. .

صعدت باتيل إلى البيت كي تلعب بالدب.

مسكت تسوغيك عمار من يده وجلسا على الدرج.

قال عمار:

-سأشتاق إليك.

-وأنا أيضا أربعة أيام فقط.

قال عمار: وهو يحدّق بعينيهما

سيفصل الوقت أصابعنا

سنرتدي المسافة شوقا

سنموت احتراقا

هذا الحب يميّتنا حين يمينا

سننسى أسماءنا على ورقة خريف

ذات يوم

سنولد من جديد

ونعود طفلين غريبين

على حافة الحياة

بلا ذاكرة

ولا أسماء

ونسافر على جناح غيمة متشابّة

نجمع النجوم الكثيرة

نتحد في هذا الكون

ونختفي

ونختفي

عن عيون الموت.

- ما أجملها من كتبها؟

- أنا

- حقا؟!!

- إنها محاولة بأسة

- لا تقل هذا إنها أجمل مما تظن

- كتبها لك

احتضنته بقوة

- جميلة لأنها مكتوبة بدمك العاشق.

هناك قصيدة اسمها (ثم) لشاعر أرميني اسمه (زاريه خراخوني) واسمه الحقيقي (راتو

جونوشييان).

لنفتح قلوبنا للجميع
ونوزع أنفسنا للآخرين كالحبز قطعة قطعة
لنتقاسم آلام الآخرين ونسرد لهم همومنا
ونعرض أنفسنا للساعات الابتسامات المهينة
لهذا أو ذاك
ومن ثم نتألم ونتحمل كل ذلك وحيدين
لنفتح أحضاننا للحشود
ونلق بأنفسنا في أحضان الجماهير بسرور من يلقي نفسه في البحر
فلنسر ونصرخ معهم
لنحس بأنفسنا أقوىاء مثلهم
ونتملقهم ونحن نرتجف
وبالكاد نخلص أنفسنا من خطر الانسحاق
ومن ثم ننزوي ونبقى وحيدين.
لنمد أيادينا إلى العالم
لنتآخى مع الغريب
ومع الآتي والعاير
لنفتح أبوابنا للغريب

للحُب ونمنح بإسراف
 في حين نرى أنَّ الكل يريدون المجيء إلينا
 ليحكموا علينا
 وحينئذ نحزن ونبكي وحيدين

ومن ثم نتوجه إلى الجميع
 ونصلي وحيدين.
 شبك أصابعه بأصابعها وهو يردد في أذنها : سنصلي وحيدين.
 وضعت رأسها على كتفه وارتاحت من ثقل الكون على كتفيه.
 قالت :

سأبقى معك للأبد
 فالأبد لحظة
 هي أنا وأنت.
 -هذه لي
 شداها إليه بقوة
 -كم أحب لون عينيك
 -وكم أحب غمازتي عينيك التي لا يراها أحد سواي.

ظلت أصابعهما متشابكة للحظة أو ربما لدهر لكن الكون قد استراح في تلك اللحظة
كي يحرس حللهما.

(٤٥)

باريس ٢٠١١

جلس صحو على الشرفة بعد أن ارتدى قيصه الصوفي، كانت باريس مثلجة أصابعها
قليلا.. والأرصفة قد خرجت للتو من حمامها السماوي، فتح جهازه الحاسوب
المحمول، كانت الساعة تشير إلى السابعة مساء.
فتح على ملف فيروز واختار أغنية (أنا لحبيبي وحبيبي إلي).
كانت تلك الأغنية تعيده إلى صباحاته المدرسية، والمحلات التي تمتلئ بصوت فيروز.
كانت تلك الأغنية عيداً للعشاق.
يذكر حين اشترى الشريط الذي يحتوي على هذه الأغنية وأهداه لسما في عيد
ميلادها، كان قد جمع المال من مصروفه.
كانت سما عاشقة لفيزوز وتكتب جميع كلمات أغانيها على كتبها المدرسية.
قالت له أن هديته كانت أجمل هدية في عيد ميلادها ...
غنت له بصوتها في الفسحة : (أنا لحبيبي وحبيبي إلي / يا عصفورة بيضا لبقى تسألني)
حين فتح الايميل وجد رسالة من تسويك.

كم تشبه تسوغيك تلك، بمزاجها في الحب، باقتناصها للحظة، بتعلقها بالآخر حد الرغبة بأن تصير هو... بحفظها جميع تفاصيله.

كان يلهث وراء السطور، وحدها تسوغيك رسائلها كانت تعيده عاشقا صغيرا على مقعد المدرسة، بانبهاره الأول، وبلهفته الأولى.

تلك تسوغيك الصغيرة التي يعرف كل شيء عنها، تلك التي تقضم أصابعها نجلا حين تتحدث مع أحد ما، ويذوب نجملها بورقة، ذلك التناقض في شخصيتها الذي كان يقربه منها وإلى انتظار رسائلها.

تناول هاتفه....

-آلو تسوغيك

- صحو هل قرأت رسالتي ؟

-بالطبع وقد أصبح هناك ثقب كثيرة في حياتك

-أمي وليفون

-حسنا قد تكلمت مع إيليك إنها غاضبة جدا

-ألن تعود إذن ؟

-لا أدري فذهابك إلى تركيا كارثة

-وانكارها لعائلة خالتها أمر عادي؟

-وليفون يريد رؤية باتيل.

-سيبدأ يضغط علي بعد أن حدثه باتيل عن صداقتها بعمار.

- اه تسوغيك إنه أبوها في النهاية وله الحق برؤية ابنته.
- صحولن أعود إلى فرنسا حتى لو لم تعد أُمي إلى الأردن، حتى لو عاندني ليفون سأفعل منذ الآن ما أريد وأحب من أريد.
- أنا لحبيبي وحبيبي إلي
- رباه ... أنغني وأنا أحترق.
- أغني لك ولعمار يكفي أنك سعيدة.
- ألا يوجد كلمة أكثر من سعيدة ؟!!!
- ولا تنسي أنّ الألم هو الحب أيضا ألم السعادة مثلا.
- أفلسفة هذه أم ماذا ؟
- لا إنها مأساة الحب الكبير حين نضحك على أُنْفه سبب ونبكي لأُنْفه سبب، لا تدعي أحدا يسرق حبك حتى لو احترقت.
- كم أحبك.
- لكن عمار سيشغلك عني
- كنت أحدثه اليوم عنك .
- وماذا قلت له ؟
- ممم... انتبهت أنني طيلة هذه السنوات لا أعرف عنك شيئا، أو لم أعطك أنا الوقت لتبوح لي كنت تصغي إلي فقط. لماذا لم تتزوج راشيل وتنجب أطفالا ؟
- ماذا الأطفال أنايون بطبعهم وراشيل لا تريد إلا صديقا.

تضحك تسوغيك

-إنك الطفل الأناني لا أدري كيف أحبتك آني ودلتك !!!!!

-ألا يكفي أنّ عيد ميلادي يصادف ذكرى المذبحة الأرمنية ٢٤ / نيسان.

-إنّ آني لا تعمل خيرا إلا لمصلحة.

-لا تعرفين إذن آني.

-لا أودّ أن أتحدث عنها وهي التي رفضت أن ترى أختها.

-لا تحكمين على أحد، لم تري الأمور في دائرتها.

صمتت تسوغيك.

-لا تشوشي رأسك متى ستقلع طائرتك ؟

-في السادسة صباحا.

-استمعي إلى (أنا لحبيبي وحبيبي إلي)

-أتعلم إني أغار من فيروز فهي تحتل جميع الأوقات هنا.

-ههه لا يوجد مثلها هنا حتى إديث بياف وشارل أزنافور.. أعني أن نسمعهم يوميا

في وقت معين. إنّ هذه الأغنية تعني لي الكثير. تسوغيك لا تدعي السعادة تفلت من

بين أصابعك.

-اشتقت أن أحتضنك.

-وأنا أيضا. أين باتيل ؟

-قد اشترت اليوم دبا وأسمته على اسمك قالت إنه يشبهك

ضحك صحو

-حقا؟ أعطني إياها

أخذت باتيل الهاتف ووضعت الدب في حضنها.

-tu vois comment il te ressemble

(أترى كم يشبهك)

-tu as vraiment raison

(مم بالطبع إنك محقة.)

-Awedis,j'ai dit à mon ours que papa noel viendra chez nous,
il était très heureux

(آواديس قد قلت لدبي أن بابا نويل سيأتي إلينا وقد فرح كثيرا)

-il va frapper à la porte après un mois

(سيطرق الباب بعد شهر)

-Awedis, ça me fatigue d'apprendre l'arabe,je me mets à rire
quand la prof commence à prononcer quelques lettres en
arabe comme : ع، ذ

(آواديس، إني متعبة من تعلم العربية. إني ابدأ بالضحك حين تبدأ المعلمة بلفظ بعض
الأحرف العربية مثل : ع، ذ).

-la souris a peut-etre mangé sa langue

(ربما الفأر أكل لسانها.)

أخذت تسوغك الهاتف

-صحو أتوسل إليك ستصدق الآن كلامك وستملاً الدرج دموعا ولن تذهب.

-ابدأت بتعلم العربية ؟

-ولم لا ألا تذكر متى بدأت بتعليمي إياها كنت أكبرها بسنة فقط.

-إنّ باتيل تصلح لأن تمثل في فيلم.

-هذا ما كان ينقصني.

-ها هي راشيل قد جاءت

اقتربت راشيل من الكاميرا ولوحت بيدها.

قالت لباتيل

-comme tu es mignonne !

(كم أنت جميلة !)

ضحكت باتيل وهي تشير الى الدب

-Rachel, regarde, il s'appelle Awedis

(انظري راشيل اسمه آوادييس)

-vraiment ! il lui ressemble

(حقاً ! إنه يشبهه)

سألت راشيل تسوغيك

- ما كل الثياب هذه !!؟

- ممم سأذهب غدا إلى تركيا.

- واو كم أنت محظوظة !!

قال صحو: لراشيل.

- لو سمعتك إيليك لنخفتك

قالت راشيل

- امض وقتا سعيدا فلا شيء بعد الموت.

قالت تسوغيك:

- بلي يوجد آني Bisou

قال صحو: وراشيل وهما يلوحان بأيديهما

bon voyage bisouuuuuu-

(٤٦)

تركيا ٢٠١١

لم تستطع تسوغيك النوم ربت الحقيبة وذهبت إلى حنين واطمئنت عليها، وتحدثت مع كاجين وعمار على الماسنجر الذي اقترح عليها أن يوصلها إلى المطار بسيارة صديقه لكنها رفضت ذلك كي لا يضيع محاضراته . تمددت في سريرها قليلا ثم نهضت، صنعت فنجانا من النسكافيه وجلست على الشرفة.

بحث عن أغنية فيروز (أنا لحبيبي) فكل ما يقوله صحو فهو مقدس وأرسلتها إلى عمار الذي بعث لها فيديو قبل ساعة وكتب لها رسالة : (كيف تعرف أنك وقعت في الحب؟).

فتحت الفيديو الذي يحتوي على مذياع يسأل مجموعة من الأطفال كيف تعرف أنك وقعت في الحب.

المذياع : كيف تعرف أنك وقعت في الحب ؟

الإجابات :

إذا أحببت شخصا سيكون بينك وبينه تواصل بصري كبير.

تشعر بقشعريرة أو شيء مثل هذا.

أشعر أنّ قلبي يخفق بشدة.

يجعلني أشعر بالارتياح والدفء كالوسادة.

تشعر أنك لن تكون وحيدا أبدا.

المذيع : برأيكم كيف ينبغي لنا ان نظهر للأشخاص أننا نحبههم ؟
الإجابات :

الكثير من الناس يشترون الورود والشوكولاتة.

المذيع : أعتقدين أنها فكرة جيدة ؟

ربما ... ولكن الجميع يفعلها سيكون أفضل لو فكرت بشيء مختلف ومبتكر
ينبغي أن تقول لمن تحبه الشيء الذي تحبه فيه.

أعتقد أنه عندما تحب أحدا ينبغي عليك أن تتشارك معهم الأشياء وتكون لطيفا.
يجب أن تعاملهم معاملة خاصة مثلا لو أرادت أي قراءة كتاب في السرير فسيذهب
معها أبي إلى السرير، ولكن لو أرادت أي مشاهدة التلفاز سي شاهد أبي معها التلفاز.
المذيع : أعتقد أن هذا هو الحب؟

اه ... أبي يقدر أبي أيا كان ما تريده أبي فعله فسي فعله أيضا.
أعتقد أن الأشياء الصغيرة هي الحب.

الحب هو أن لا يجب أن يكون معك الكثير من المال وأن تكون على طبيعتك.
الحب بسيط جدا.

المذيع : ما هو الحب الحقيقي برأيك ؟

الحب الحقيقي خليط بين الصداقة والتقدير والسعادة

الحب أمر رائع، نحتاج حبا أكبر في هذا العالم.

تنفست تسوغيك طويلا حتى دخل الهواء إلى أنفها ...
 كتبت له : الحب أن أقدر كيانك في هذا الوجود أنك إنسان مميز لي، ونسخة كونية لن
 تتكرر فصلت فقط على مقاس جسدي. أحبك بنهم.
 أغلقت تسوغيك الهاتف وأيقظت باتيل، وصنعت لها الكورن فلكس التي كانت تأكل
 وهي نصف نائمة.

وهي في الطريق إلى المطار تصورت مع باتيل وبعثت الصورة لعمار وصحو وكاجين.
 كانت شمس الشتاء خفيفة الظل والهواء ينعش القلب.

حين هبطت الطائرة كان كاجين بانتظارها. حين رآته احتضنته بقوة
 قال كاجين: بالإنجليزية

-حقا إنك تشبهين كوهار

-وحقاً إنك تشبه آني

ضحكا وكانت باتيل تنظر إليها

قالت تسوغيك:

-أنسيت أن تسلم على باتيل.

حملها كاجين بين ذراعيه وقبلها

قالت تسوغيك: وهي تحديق في المدينة.

- كم تدهشني المدن دوما على حفاظها على جمالها بدون أن تهرم أو تجعلنا نحس
 بذلك، هناك مدن تثير بنا الحزن رغم ما تحمل من الضجيج والزينة والفرح. لا أدري

إني أرى باريس دوما مدينة حزينة لأن الجميع يطلب منها أن تكون دوما سعيدة ومليئة بالأعياد ...

حين كنت أدرس الأدب المقارن في الجامعة وبالطبع مقارنته مع الأدب الأرمني حفظت قولاً ل (أورهان باموق) : لا تحمل اسطنبول حزنها وكأنه علة لا علاج لها أو ألم غير مطلوب تحتاج الى التخلص منه، إنّ اسطنبول تحمل حزنها باختيارها. قال كاجين: :

-بحكم دراستي للتاريخ أوافقك الرأي حتى نحن الأتراك لا نجد تبريراً لانتماثنا لمدينة تثير فينا كل هذا الحزن وتؤلّنا بجمالها، وأنّ سكانها يشبهونها فهي سريعة النسيان للماضي، وتتجدد في كل وقت وهذا ما يرهقها ولكنها لا تعترف بذلك.

كانت تسوغيك تحاول في حديثها أن تبقى على الحياد، وأن لا تثير حديثاً بخصوص الأرمن والأتراك، مع أنها كانت تعرف أنها ستأتي اللحظة التي ستقف ع الخط الفاصل حيث سيقف جميع الأموات التي بقيت عظامهم في دير الزور ويحاكوها لأنها لم تنفوه بكلمة.

لا تدري لماذا أحست بالخوف حين صمت الجميع وهي تنظر إلى المارة، كانت متحمسة حين عرفت أنّ لها عائلة وأنها ليست وحيدة، والآن تحس بثقل ما ولأول مرة تحس بجذورها الأرمينية ضاربة بقاع قلبها، وأنها تريد أن تقف في منتصف المدينة وتعلن أنها أرمينية ...

أهي آني التي تلبست روحها ؟!!!!!!

آني التي أتقنت التركية كي تعرف لغة عدوها، والآن الجميع يتحدث اللغة التي أتقنتها آني.

عاد إلى رأسها كلام آني حين كانت طفلة وعن كرهها الشديد للأتراك، ولم تكن تسوغيك في ذلك العمر تعرف أين أرمينيا أو تركيا على الخارطة، كانت تتخيل أنهم كائنات فضائية شريرة نزلوا على كوكب الأرض ليزبحوا شعبا اسمه الأرمن.

آني التي أشبعها بالحق الذي لم تعي جذوره وهي طفلة، نظرت إلى العلم التركي الذي كانت تحرقه آني في ذكرى المذبحة في كل سنة، ها هو يرفرف أمام عينيها، وترى أناسا عاديين غير الذين صورتهم لها آني، وأنهم أساسا يرتدون مثلنا ويمارسون حياتهم بلا ذاكرة مؤلمة.

-تسوغيك...تسوغيك

كان ذلك صوت كاجين.

التفت إليه

-قد سرحت بالمدينة

-ها قد وصلنا

هزت تسوغيك رأسها كي تخرج آني منه، وكي تعود للحظة الحاضرة حيث كاجين بوجهه المبتسم يرحب بها.

تمتت وهي تنزل من السيارة : ابتعدي آني عني.

قالت باتيل

maman، mamie Annie au ciel avec les anges -

(ماما جدتي آني في السماء مع الملائكة)

تمت تسويك

-أشك أنها في السماء أشعر انها تسير بقربي.

حين دخلت تسويك كان الجميع يتسم، عرّفها كاجين على زوجته وطفليه التوأم وأخته وأمه، كانت زوجته الوحيدة التي تتكلم الانجليزية ترجمت لها ما قالته أم كاجين عن الشبه الكبير بين تسويك وكوهار. أخذتها الى الغرفة كي تبدّل ثيابها.

قالت زوجة كاجين

-اسمي عائشة أحمل شهادة الماجستير في تاريخ تركيا

قالت تسويك:

-إذن قد تعرفت على كاجين في الجامعة

ابتسمت عائشة

-كّا في نفس الكلية وأحبينا بعضنا، قد فرح كاجين حين تواصلت معه بعد أن يئس من أن يصل منكم أيّ رد.

-وأنا فرحت كثيرا فليس من السهل أن نجد في هذا الوقت أحدا يكون قريبا منا ويحمل دمنا.

-ولكن

-ماذا ؟

- نعتذر فأبو كاجين ليس موافقا على قدومك.

-أفهم ذلك

كانت أم كاجين تاديبهم للغداء.

قالت عائشة:

-الغداء جاهز

حين جلسوا على السفرة

قالت أم كاجين

-هذه البرك بالجينة أكلة تركية، كلي يا ابنتي البيت بيتك.

وقد لعب كاجين دور المترجم

سألها الأم

-لماذا لم يأت زوجك معك ؟

-تقصدين زوجي السابق، إننا نستعد لإجراءات الطلاق، اني اعيش الآن في الأردن

قالت الأم

-سأدعو الله أن يصلح بينكما

طلبت الأخت من عائشة أن تترجم حديثها

-إنك جميلة كجدتي كوهار، والشباب سيتعلقون حولك كالذباب.

ضحكت تسوغيك.

قال كاجين:

-توقفوا عن الكلام قد تعبت من الترجمة واتركوها تأكل

قالت الأم

-معك حق ولكننا سعداء بقدومها.

بعد الغداء صنعت عائشة الشاي وجلسوا في الصالون، كانت باتيل قد غفت حملتها

عائشة ووضعتها في الغرفة وعادت لتنضم إليهم.

قالت الأم :

-هل أنت حقا أرمنية ؟

-نعم.

-من أين؟

كانت عائشة تترجم لتسوغيك

دهشت تسوغيك من السؤال، نظرت إليها عائشة، وابتسمت بعد أن شددت على يد

تسوغيك

قالت عائشة:

-خالتي الأرمن كانوا تابعين للدولة العثمانية

قالت أم كاجين مبتسمة

-آه كمّا جيران

قالت عائشة:

-ولكن في عام ١٩١٥ قامت الدولة العثمانية بترحيل الأرمن

قالت تسوغيك:

-بل إبادهم

قالت عائشة:

-إنّ تركيا ترفض اليوم هذا المصطلح والمبرر أنهم كانوا في حالة حرب، وكتب الناشط الحقوقي والناشر التركي (راكب زاراكولو) حول المفكرين الجدد الذين يتكرون الإبادة ويبرزون الأرمن على أنهم خونة، وأنهم قد نفذوا المجازر بحق المسلمين والأتراك بدعم من الجيش الروسي، وأشار أنّ الأرمن لم ينسوا جراحهم خلال مر السنين لأنّ تركيا اختارت سياسة الإنكار وأوضح عن موضوع خوف الأرمن في تركيا من التطرق إلى الإبادة على أراضي تركيا في العقود الماضية مشيراً إلى الفعاليات التي أقيمت سابقاً مثل مراسم الإحياء في العديد من المناطق في تركيا منذ ٢٠١٢ وأشار إلى أنه ستقام فعاليات في تركيا بمناسبة الذكرى المئوية.

والتاريخ يقول أنّ سياسة الامبراطورية العثمانية تتمثل بنفي الأرمن من منطقة هضبة أرمنيا بشكل ممنهج، وقام طلعت باشا باستكمال ما قام به السلطان عبد الحميد.

تدخل كاجين :

-لن ننسى نحن كأتراك مثقفين الجملة التي أنهى بها المؤرخ (جستن مكارثي) خطابه في البرلمان التركي عام ٢٠٠٥ ألا وهي : لن يقول الأتراك أبداً عن آباءهم أنهم قتلوا. ولا تندھشي أنّ أمي أو الشعب التركي لا يعتذر عن الإبادة وكيف يعتذر عن شيء لا يعرفه فهنا لا نتحدث وخصوصاً في جيل الشباب عن أيّ إبادة وهم لا يعرفون أنّ

هناك إبادة. ولا أنكر أن قسم من الشعب لا يعترف بالإبادة كأبي مبرر أن تركيا كانت في حالة حرب، وأنّ أرمينيا أرادت أن تستقل فتعاونت مع روسيا في الحرب العالمية الأولى، وخلافاً لذلك قد لاحقت الدولة الكاتب التركي أورهان باموق الذي قال أن الاعتراف بالإبادة الأرمنية سيؤدي إلى إعادة تشكيل ذاكرة شعب بأكمله.

وقالت الكاتبة التركية (إليف شفق) في حديث لها أنه يجب على الأتراك أن يتذكروا، وعلى الأرمن أن ينسوا، وكي ينسى الأرمن على الأتراك أن يتذكروا.

قالت تسوغيك:

-لم آتي إلى هنا لأقف مع طرف ضد آخر وخصوصاً نحن الجيل الذين لم نعش الإبادة كيف علينا أن نكون نقطة التقاء أو خلاف. لا نستطيع أن ننسى أن الأتراك خبثوا الأرمن في بيوتهم وحموهم.

قالت أم كاجين:

-وماذا حدث وقتها؟

-اعتقلوا مئات المفكرين الأرمن وأعدموهم وكان أبا جدي آني وكوهار من بينهم، ثم أمروا النساء والأطفال أن يسيروا بلا طعام أو شراب في صحراء دير الزور وكانت كوهار وآني من بينهم.

اقتربت أم كاجين من تسوغيك

-آسفة يا ابنتي لم أكن أعرف حتى أنّ حماتي كوهار كانت من بينهم.

غمز جاكين تسوغيك فنهض من مكانه فلحقته تسوغيك وعائشة.

دخل إلى غرفة أخرى

-هذه هي غرفة كوهار

حدقت تسوغيك في أرجاء الغرفة كانت تحتوي على سرير وخزانة صغيرة.

قال كاجين:

-قد أخبرت أمي البارحة أنّ جدتي كوهار عادت إلى المسيحية قبل موتها لذلك لم

نصلي عليها صلاة الجنازة أخفينا موتها عن الناس.

حين علم أبي لم يسامحني وقال لي أنّ أتدير الأمر ولم يتكلم معي إلا قبل يومين من مجيئك.

قالت تسوغيك: باندهاش

-هل عادت كوهار إلى المسيحية ؟

قال كاجين:

-منذ سبع سنوات، سأروي لك كل شيء كما روته لي كوهار. طيلة الأعوام الماضية

كانت كوهار تصلي وتصوم كالمسلمين ولأنّ أختي قد تزوجت مبكرا بقيت أنا وأمي

ملازمين لجدتي، وكان أبي لا يعود من العمل إلا ليلا.

كان ذلك قبل سبع سنوات حين أعطتني أمي صينية الأكل لأعطيها لجدتي كان

الباب مواربا كانت ذراعها مكشوفتين، وكانت ترفض أن يساعدوا أحد بتغيير ثيابها

رغم ما تعانيه من ألم، أو أن يحممها، وكانت أمي تدهش من عنادها إلى أن رأيت

علامة الصليب المحفور على ذراعها اليمنى، وحرف واحد عرفت منها أنه حرف الألف

مكتوب بالأرمنية.

دخلت عليها، حدثت بي وبدون أن تتفوه بكلمة لا أدري كيف تواطئنا على أن نخفي ذلك السر.. وضعت الصينية وخرجت. بعد يومين نادتنني ليلاً:

- كاجين لا أحد يعرف بما رأيته، إنني أرمنية واسمي الحقيقي كوهار، وأتمنى قبل أن أموت أن أعود إلى المسيحية. بلغت ريقى وسألتها:

- حتى أبي ؟

- لا لا يعرف

-وماذا سنفعل يا جدتي ؟

-ستساعدني على إيجاد אחتي التوأم، ولا أدري إن كانت على قيد الحياة وأن أعود إلى المسيحية.

-ولكنك كنت طيلة هذه السنوات مسلمة.

-كنت حين أصلي أصلي ليسوع والعدراء، وحين أدعو لا أدعو غيرهما، فقد كنت مجبرة على إخفاء هويتي.

قالت عائشة: :

- كثير من الأرمن الآن يخفون هويتهم، وبعد أن صدر كتاب جدتي الذي يتكلم عن حفيدة عرفت أنّ جدتها أرمنية كما حدث مع جاكين، قرر الكثير من الأرمن العجائز أن يفصحوا عن هويتهم ويعودوا إلى المسيحية، ففي عام ١٩١٥ كان الأكراد يخطفون الأطفال الأرمن ويعطونهم لعائلات تركية فيجعلونهم مسلمين.

قال كاجين: :

-بالضبط وهذا ما حدث مع كوهار، قالت لي بعد أن اغتصب أحد الجنود أمها، ظلت ممسكة بيد آني وهما تسيران في الصحراء، جاء أحد الجنود وأخذها وتربت مع عائلة تركية، وكانت العائلة تصبغ وجهها بالشحبار حين كان يأتي الجنود لتفتيش البيوت بحثا عن أطفال أرمن، أو يخبئونها تحت السرير، كنت أخذها خلصة إلى الكنيسة بحجة أنها تريد التنزه في الحديقة.

وبدأت عملية البحث عن آني حين تغيرت فكري عن ما حدث وعن ما درسته في الجامعة، قد غيرت كوهار مجرى حياتي كانت الشاهدة على ما حدث طيلة هذه الأعوام.

كنت أواصل الليل مع النهار، وقد ساعدتني عائشة التي كانت مهتمة بالقضية الأرمنية أيضا عن البحث عن آني، وكنا نبحث عن إبرة في كومة قش. لم نكن نعرف إلا اسمها الرباعي.

وضعت صورة كوهار على جميع المواقع الأرمنية، وعلى جميع وسائل التواصل الاجتماعي وتواصلت عائشة مع عائلات أرمنية الذين قالو لها أن من الأرمن من هاجر إلى فرنسا وأمريكا أو سكنوا في لبنان وفلسطين والأردن.

بحثت عن جميع المواقع الأرمنية في فرنسا، وفي أمريكا، وفي جميع الدول التي يتواجد فيها الأرمن ونشرت صورة كوهار على جميع الصفحات إلى أن ذهبت إلى جمعية أرمنية تهتم بالأرمن بالشتات، وتحاول تجميع شتات العائلات التي فرقت، وقد أخذوا

صورة كوهار واسم آني، وجاءنا خبر بعد سنة من جمعية أرمينية في فرنسا أنه يوجد في أرشيفهم فتاة عام ١٩١٥ تحمل نفس اسم كوهار ومن بعدها كانت هناك امرأة رأت صورة كوهار على إحدى الصفحات الإلكترونية حيث يجتمع الأرمن كان اسم الصفحة (خبر أرميني).

قالت تسوغيك:

-إنها صديقة لأمي إيليك، أذكر ذلك، وذهبت آني إلى الجمعية، وكانت فرحة وبعد شهر قالت أنّ هناك خطأ في الاسم.
قال كاجين:

-كانت فرحة في بادئ الأمر وردت على رسالتي، ولكنها توقفت حين أخبرتها أنّ كوهار تعيش في تركيا ومتزوجة من رجل مسلم، وبعدها ماتت كوهار ولم أخبرها أنّ آني رفضت رؤيتها، وقد بعثت لها رسالة بأنّ كوهار كانت مرغمة على أن تصبح مسلمة وأن تعيش في تركيا وأنها عادت إلى المسيحية.
قالت تسوغيك:

-ألم تمت كوهار قبل شهر؟

-لا قبل سنتين في ١٦ أكتوبر / ٢٠١٠

-لكن في رسالتك الأخيرة قلت أنها توفيت قبل شهر.

-كنت أريد أن أتواصل مع أحد منكم علّه يستفزه الخبر.

-والغريب أنّ آني قالت أنها ستموت في ١٦ أكتوبر / ٢٠١١ ولم نصدقها.

-ماذا يعني ذلك ؟

-لا أدري.

-كانت كوهار تموت احتراقاً لرؤيتها، كانت تخشع في الكنيسة، وتقف أمام الصليب، وتدعو كما لم أرها من قبل، كان تضرع أن تجد آني، واعترفت بكرهها للأتراك رغم كل هذه السنوات وكانت تنسى أنني منهم.

-مثل أنني التي تعترف بكرهكم وأعتذر على قول ذلك فلو رأيتم لغيرت رأيها.
قالت عائشة::

-من رأى أمام عينيه الذي قتل أمه وسار في درب الموت كيف سيعفر؟
قالت تسوغيك:

-لم آتي إلى هنا كي أحاكم أحداً جئت لأني أحبكم، وأرغب أن أنتمي لعائلة ما، وأن أتكىء على كتف أحد ما.

فتحت تسوغيك ذراعها واحتضنت كاجين وعائشة .
قالا لها:

-ونحن نحبك وعائلتنا ستصبح أجمل معك
قالت عائشة::

-إنك رقيقة جداً ويتسع قلبك للجميع
غمزتها تسوغيك

-ليس للجميع هكذا هي عادة الأرمن.

ضحكوا جميعهم

كانت أم كاجين تناديهن

-هل انفردتم بها أريد ان أراها

قال كاجين:

-قبل أن ننزل أريد أن أعطيك شيئاً

فتح الجارور

-هذه فردة من قرط احتفظت بها آني من عام ١٩١٥

قالت تسوغيك:

-مع آني الفردة الأخرى. كم هي ثمينة هذه الهدية. أشكرك كاجين على ثقتك بي.

-الآن انتهينا من الذكرى ويجب علينا في الأيام المتبقية أن نزور اسطنبول مع أجمل

تسوغيك في الدنيا.

تصورت تسوغيك مع عائلة كاجين وبعثت الصورة لحنين وصحو وعمار.

حين عادوا ليلاً فتحت تسوغيك ووجدت رسالة من عمار.

كل الشوارع تشتاق إليك

والمقاعد الفارغة في الحدائق العامة المخصصة للعشاق

العمر المتأخر

المقهى

وطاولتنا الصغيرة

تشابك أصابعنا
كل شيء ضجر بدونك
عودي
كي أعود إلي.
قبلت تسوغيك الهاتف.
كتبت له :
أنت وأنا
قلبان اختلطا ببعضهما
على عتبة الابدية
بعيدا عن ما تبقى من هذا العالم (شارل أرنافور)
كم اشتقت إلى غمازتي عينيك.
فكر بي دائما.
كتب لها :
وكم اشتقت إلى صوت ضحكك ...
إني لا أفعل شيئا إلا أن أفكر بك.

.....

في الطريق إلى المطار كانت تسوغيك تلتقط صوراً لاسطنبول، وترى كوهار وهي صغيرة وتمشي على طرقاتها سائرة على طريق الآلام باحثة عن آني وعن الله. تنفست بعمق وهي تلمس بيدها فردة القرط الأحمر الصديء التي أهداه إياها كاجين. كانت تحس بأصابع كوهار على فردة الحلق دافئة وحميمة، كيف استطاعت أن تحتفظ بها طيلة هذه الأعوام؟؟ قبل أن تقلع الطائرة قال كاجين: -تسوغيك الحبيبة انتهي إلى نفسك -سأفعل يا كاجين يجب أن تأتيا لزيارتي في الأردن. قالت عائشة: -بالتأكيد سنشتاق إليك ونأتي. التقطوا صورة للذكرى ونشرتها تسوغيك على الفيس وكتبت : اسطنبول المدينة التي لا تتألم إلا جمالا، شكراً على كل هذه الذكريات التي سأذكرها حين أهرم وأنا أرفو جوارب أحفادي، وأغلقت الهاتف عند صعودها الطائرة.

(٤٧)

أربد ٢٠١١

تنفست تسوغيك بعمق حين هبطت الطائرة في مطار الملكة علياء الدولي في الخامسة والنصف فجراً.

حين كانت تأتي وهي صغيرة في الإجازة مع صحو إلى الأردن لم يكن يشدها أيّ خيط حنين للرجوع أو لم تفكر بتجميع ألبوم ووضعها في جارور قلبها، أما الآن فهي تشتاق لأربد، وكأنها عاشت هنا منذ سنين وصوت فيروز القادم من الراديو الذي بحث عنه سائق التاكسي العجوز وهي ترتق حنين العشاق وهي تغني (بعدك على بالي / يا قر الحلوين / يا زهر تشرين / يا دهب الغالي / بعدك على بالي / يا حلو / يا مغرور / على سطح العالي).

هل عمار من جعلها تتعلق بالمكان فالأشخاص هم بالنهاية وطننا الحقيقي.
بعدك على بالي ولم تغب للحظة ...

إنك جواز سفري وقوت قلبي وسعادي التي كانت مخبأة لي في دفتر القدر
فتحت الشباك استنشقت هواء الفجر البارد
بعثت له رسالة :

كم قلبي الآن مليء بالحياة، إني أتنفسك، اشتقت إليك.

ولم تصله الرسالة بعد فما زال هناك سهم واحد، كانت تريد أن يطير سائق التاكسي، حاولت النوم ولم تستطع، ظل وجه عمار أمامها. حين توقف التاكسي أمام العمارة طلبت منه الانتظار، لم تكن تعلم ما تقوم به وضعت باتيل النائمة في سريرها، ونزلت مجددا، وركبت في التاكسي. اتصلت بعمار ولكنه لم يجب، طلبت من سائق التاكسي الذهاب، وقفت عند شقة عمار فلم تكن شقته بعيدة عن بيتها، كان يسكن مع عدد من الطلاب حين لم يجبها دقت الجرس عدة مرات، ثم فتح أحدهم الباب وهو نصف نائم والدهشة وعلامة الاستفهام تعلو وجهه.

-صباح الخير

صفن قليلا

-صباح النور

-أستطيع أن توقظ عمار؟

-من عمار؟!!!!

-هو يسكن هنا أنا محقة؟

-نعم نعم.

ترك نصف الباب مفتوحا، طرق الباب وبعد دقيقتين فتح عمار الباب

-عمار ما هذه الأخلاق وتدعي التدين؟!!!

-ماذا بك؟

-هناك فتاة جميلة على الباب تسأل عنك.

-انطوان أيقظتني كي تمنح معي.

مسكه من يده وجره إلى الباب

قال عمار: حين رآها

-تسوغيك

-آه تسوغيك

كان انطوان ما زال واقفا

قال له عمار :

-انطوان شكراً على إيقاظك لي.

قال انطوان

- عمار كم أنت محظوظ !

-انطوان اذهب وأكل حلك.

-حسنا

قال عمار:

-ما بك تسوغيك الحمد لله على سلامتك

-لا شيء اشتقت إليك بعثت لك رسالة واتصلت بك ولم تجب.

-لم أتم البارحة جيداً، انتظريني سأحضر قيصي الصوفي.

حين جاء أصلحت له الطاقة واللفحة

- كي لا تمرض.

- اشتقت إليك أيتها المجنونة

- رأيت ماذا أفعل حين أشتاق إليك ؟

- ممم

وضعت ذراعها بذراعه

-ماذا ؟

-أحب مجازفتك وأنت لا تحسبين كل شيء

-أنت من جعلني أقوم بذلك

-أنظري إلى الجامعة وهي مغلقة

-أحب الأماكن حين تفرغ من أناسها كي أشعر بالحنين إلى ضييجهم

حين جلسا على مقعد

قال تسوغيك

-إنه بارد

قال عمار:

-يحتاج إلى عاشقين مثلنا ليدفآنه

وضعت رأسها على كتفه

-اشتقت إليك كثيرا

-كيف كانت رحلتك إلى تركيا ؟

-جيدة نوعا ما

-هل الذين كانوا في الصورة أقباءك ؟

-نعم وعرفت ذلك قبل أسبوع

-ماذا ؟

-لا تشغل فكرك إنها أمور معقدة

شدت على ذراعه أكثر

-شعرت بالسعادة حين وصلت وصوت المؤذن زرع بي الطمأنينة وأنا خارجة من باب المطار.

-أأنت مسلمة أم مسيحية ؟

-لا أدري أو من أن الله واحد كما يفعل صحو الذي كان يقرأ لي القرآن والإنجيل معا، أحب الروحانيات وأنت من زاد تعلقي بالله.

نظر إليها

-تسوغيك أحسبك على علاقتك بالله

نظرت إليه

-ماذا؟ أنا من أحسبك.

-إنّ علاقتك به ليس مبنية على واجبات وحدود وقواعد ولا تنتمين لطائفة ضد أخرى تحبين الله كما هو بتلقائية.

-صحو من علمني ذلك حين كنت أرى صديقتي العربية تصلي وحين أذهب مع أمي وآتي إلى الكنيسة أجلسني مرة وقال لي صلي له بالطريقة التي تريدنيها وربما نسينا منذ ذلك اليوم أن نختار طريقة ما ونحن نعيش في بلد علماني كفرنسا حيث الله لا شأن له بتفاصيل يومنا، لا أدري كيف أصف لك ذلك أحب سماع الأذان وخصوصا الفجر، وأن أتلو الفاتحة في الكنيسة، وأن أصغي إلى التراتيل البيزنطية حين يموت أحد ماء، أن ارسم إشارة الصليب وانا أقول بِسْمِ الله الرحمن الرحيم ... هكذا كانت حياتي خليط من كل شيء..

الله بالنهاية لا يكثرث بما أعتقد أو أفكر، أنا بالنهاية ذرة صغيرة في هذا الكون الشاسع، أنا قطعة صغيرة في لوحة الكون وأعتقد أنني حين أكون مع غيري وأساعد الآخرين يحبني الله أكثر.

-أسائل أحيانا هل بكثرة صلواتنا نكون قريبين من الله، ففي اللحظة التي أصلي بها لله هناك شخص على هذه الأرض أو يسكن بقربي يصلي لله بطريقة أخرى ؟ وكيف لله أن يستوعب طرقنا العديدة.

انكمشت تسوغيك على الكرسي والتصقت أكثر بعمار

-أوقن أنّ الله يحبني لأنني أحبك بكل هذا الزخم، لم ترني من قبل صورة لأبويك.

-تسوغيك

-ماذا ؟

-ليس لي أبوين.

-ولكنك قلت لي ...

-نعم قلت لك ذلك لأنني لا أحب الشفقة من أحد وكي أتجنب جرعات الحزن الزائدة من قبل الآخرين. جئت إلى الدنيا في بيت القديس العازر، كان يعتني بي دوماً مع معلمتي سما، وحين كبرت قالت لي الممرضة رنيم أن والدي مات بحادث سيارة وأمي ماتت وهي تلدني.

-آسفة أأمضيت طفولتك مع الأب العازر ؟

-لم أشعر مرة في الوحدة معه ومع معلمتي سما ورنيم، وحين كبرت طلبت أن أسكن مع طلاب بالقرب من الجامعة كي أعمل وأدرس وأعتمد على نفسي.
-وأنا مثلك لم أرى أبي وكنت محاطة بحبة الجميع، ولكني لم أحب الحياة مثلك. أريد أن أبقى دوماً بقربك، أن أكون أباك وأمك، ووطنك الصغير الذي يحده قلبي من كل الجهات.

وضع أصابعه في أصابعها

-أريد أن ننسى آلامنا معاً، وأن نبدأ ونستمر ونسقط ثم نقف من جديد، أن نتألم معاً، ونضمّد جراحنا معاً.

-سأعدك أن نبقي معاً.

-وأعدك أن نحافظ على تشابك أصابعنا.

نهضت تسوغيك وهي تمسك بيده.

-قد تركت باتيل نائمة، تعال معي هيا هيا

-ولكن

-لا تخف لا أحد ينشغل بنا في هذا العالم سوى الله

-حسنًا

-أحضر الجيتار معك

كانت الساعة تشير إلى السابعة والنصف وقد بدأ الناس يتكاثرون على الطرقات وأمام

دوار النسيم

قالت له وهي تمسك بيده.

حين وصلا ذهبت تسوغيك سريعاً إلى غرفة باتيل وقد وجدتها جالسة في سريرها

-maman، quand je me suis réveillé، et je ne t'ai pas trouvé، j'ai

pensé que quelqu'un t'avait enlevée. Je suis retournée au lit، j'ai

ouvert mon I pad، celui qui t'a enlevée va te rendre quand il

trouve que tu n'as pas d'argent.

(ماما.. حين استيقظت ولم أجذك ظننت أن أحدا خطفك، فعدت إلى سريرى،

وفتحت الآيباد فالذي خطفك سيعيدك حين لا يجد معك مالا .)

-Batite، tu as une grande imagination.les enfants normaux

pleurent quand ils ne trouvent pas leurs mères.

(باتيل أليس خيالك واسع قليلاً، الأطفال العاديون حين لا يجدون أمهاتهم يكونون.)

-pourquoi ?

(لماذا ؟)

-Bien, je sais que tu t'en fou mais j'ai enlevé quelqu'un et je suis revenue

(حسنا أعرف أنك لا تكثرين، ولكنني خطفت أحدا وعدت)

نهضت باتيل

Qui ?-

من ؟

viens-

تعالى

حين رأت عمار ركضت إليه واحتضنته بقوة، أجلسها في حضنه

-maman m'a dit qu'il t'a enlevé

(ماما قالت أنها خطفتك)

-oui, pour te voir

(نعم كي أراك)

جاءت تسوغيك

-سأعد لكم البسطرمة، يقول الأرمن أنّ البسطرمة هي الأرمن على سبيل المزاح كي

يظهروا انتمائهم الشديد لها.

سأل عمار

-وما هي البسطرمة ؟

-هي الأكلة الشعبية الأرمنية مكونة من لحم بقري مجفف موضوع في الهواء لمدة أربعة أيام وقد وضعته قبل أن أسافر.

بدأت تسوغيك بشرح كيفية تحضير البسطرمة

قال عمار: حين انتهت تسوغيك

-حين بدأت بالكلام لم تقدرى على التوقف كأنك في برنامج للطبخ
-هذه تعاليم آني في الطبخ الأرمني، سأدعو حنين كي تأكل معنا فلم أرها منذ جئت
.

حين جاءت حنين قالت تسوغيك:

-هذا عمار

-بالطبع أذكره

قال عمار:

-وهل عمار ينسى ؟!

ضربته تسوغيك على رأسه وهي تجلس على الكرسي.

-كم أنت مغرور !

-ألا يحق لي

-بالطبع ... الآن ستباركنا آني لأني أطعمتكم أكلة أرمنية، ولكن ينقصنا
خبز الافاش الأرمني.

قالت حنين

- كان الأرمن في حلب يصنعونه.

قالت تسوغيك:

- خبز الافاش الأرمني أو التركي هو خبز التنور الأرمني، وبحسب اليونيسكو فإنّ
أصل خبز التنور أرمني، ويعتمد خبز الافاش الأرمني على إدخال العجين إلى فرن
طيني أرضي من خلال دخول الخبز رأسه داخل التنور، إنها طريقة مثيرة للاهتمام
فعلا وخطيرة ولا يمكن أن يقوم بها أي شخص سوى المحترفين.

كانت جدتي آني تصنعه في مارسيليا، فقد فتحت في مارسيليا مخبزا ومطعما مخصصا
للأكلات الأرمنية. كانت تقول أنّ من يصنع خبز الافاش عليه أولا أن يصلي وهو
يصنع العجين كي يباركه الرب كي تنتشر المحبة في قلوب الذين يأكلونه. لا أحد
يعترض على قول آني، أذكر مرة أنها وضعت العجين في الزبالة حين نسيت أن تقرأ
عليه آيات من الإنجيل.

ضحك عمار

- كم كنت أودّ رؤيتها.

قالت تسوغيك

-لا أنصحك بذلك، فستجعلك أرمنيا في لحظة.

ضحكوا جميعهم

قالت حنين

-لم أذق أطيب من هذا.

قال عمار:

-الآن عرفنا ما فائدة أن تكون تسوغيك أرمنية.

قالت تسوغيك:

-أيها السنفور الغبي توقف عن الكلام وُكُلْ.

-هذا أفضل أيها الشرشيل.

نهضت باتيل وقبلت آلان، وتناولت قطعة لحم وأطعمته إياها.

قالت تسوغيك

-يا إلهي كيف يتحول الأشرار إلى ملائكة في لحظة !

غمز عمار تسوغيك

-إنهما عاشقان وهذا دليل على أنّ الحب يتجاوز اللغة

قالت تسوغيك

-حقا وكيف سأصرخ بوجهك إن لم نتحدث نفس اللغة !!؟

-لهذا أتمنى لو كُنا مثل باتيل وآلان
 قالت تسوغيك: وهي تعيد الصحن إلى المطبخ
 -لا تقلق سأجد وقتها طريقة كي أثرثر
 -إني واثق من ذلك
 صنعت حنين القهوة وجلسوا في الصالون
 قالت تسوغيك: لعمار
 -هيا الجيتار ينتظرك غني قليلا.
 -حسننا هناك أغنية تونسية أحبها كثيرا ولكن الكلمات ليس سهلة كثيرا عليك
 -قد اعتدت على ذلك فلكل بلد عربي لهجته، ولا أدري كيف سيجتمعون إن لم
 تستطع أن تجمعهم لهجة أو لغة.
 قال عمار
 -لهذا خلقت الموسيقى
 حين بدأ عمار بالغناء نهضت تسوغيك وبدأت بالرقص على أطراف أصابعها ويدها
 بالهواء وكانت الموسيقى تزيدها خفة.
 قالت تسوغيك:
 -هذه رقصة أرمينية يرقصونها في الأعراس كانت تروي لي آني أنّ العرس الأرميني
 التقليدي يتميز بطريقة الخطبة حيث تذهب أم العريس إلى بيت العروس مرتدية أجمل
 ما عندها من ثياب وتضع على كتفها شالا ملونا جديدا، وفي يدها منديلا مليئا

بالسكار، وهناك تقوم أم العريس بلف شالها على رأسها، وتضع وردة حمراء في شعرها من جهة اليمين وهذه علامة يفهمها أهل العروس مباشرة لأنها تعني أنني جئت أطلب يد ابنتكم لابني، فيتشاور أهل العروس مباشرة ويحيون عليها بالموافقة أو الرفض.

وفي حال الرفض تغادرهم أم العريس دون أي إزعاج أو إحراج، وفي حال القبول تفتح منديلها وتقدم السكار للجميع وهذا دليل أن الفتاة أصبحت خطيبة لابنها، بعدها يتفق الجانبان ولا وجود للمهر عند الأرمن إطلاقاً ثم يذهبون لشراء الجهاز للعروس كالتياب والحاجيات الخاصة، أما الحلي فهي مكونة من الفضة وفي مقدمتها الحزام الفضي والحلق والطق وغيرها في يوم العرس تنصب خيمة أمام بيت العريس ويبدأ الجميع بالاحتفال فيدبكون ويغنون ويلقون الأشعار العاطفية، أما الإكليل فيتم في بيت العريس حيث يحضر الكاهن ليعقد قرانهما وليباركهما ويذبح أهل العريس الذبائح ويطهون الطعام للدعوى وعند إحضار العروس يرشها أهل العريس بالأرز تعبيراً عن الفرحة بها واستقبالاً لها، وترتدي العروس ثياباً مزركشة وتضع على وجهها منديلاً شفافاً من عادات الأرمن في العرس أن يصعد العريس إلى سطح البيت فيجلس على كرسي وينتظر قدوم العروس ويكون إلى جانبه الذين يضعون بقره ديكا معلقاً بقدميه في غصن شجرة يقوم هؤلاء الشبان بإلقاء الغصن والديك على القادمين مع العروس كما تحمل أم العريس معلقة كبيرة (مغرفة) بيد ورغيف من خبز التنور السميك باليد الأخرى وترقص وتفتل بهما، أما العروس فتكسر جرة مليئة بالزبيب والسكار والخص في مدخل البيت قبل دخولها بيت العريس.

قال عمار:

-بعد هذه القصة سأفكر إذا كنت سأخطبك أم لا.

قالت تسوغيك:

-سنفور غبي إنها عادات قديمة وفي زواجي من ليفون لم أقم بالطبع بكل هذه العادات

فقد كنت كالذاجة المتوفة المساقة للذبح في يوم عرسى.

نهضت حنين ورافقتها تسوغيك إلى الباب

-عليّ الذهاب إلى المكتب فهناك الكثير من المعلومات عليّ إدخالها لهذا سأستغل

يوم العطلة وقد طلب منى المحامي ذلك لكثرة الشغل المتراكم.

-أأنت سعيدة في العمل ؟

-أفضل من لا شيء..

حين أغلقت تسوغيك الباب أحضرت الأوراق التي اشترتها من المكتبة.

-الآن سنقص هذه الأوراق إلى قطع صغيرة، ونكتب جميع الأحرف وعلى كل

حرف كلمة واحدة ... ولكنى لا أستطيع الرسم

رفع عمار يده

-أنا أعرف معلتي

-حسنًا

-وباتيل ستلونها ومن ثم سنلصقها على الثلاجة وهكذا ستتعلم باتيل العربية سريعاً

قالت باتيل

-mais pourquoi sur le frigo ?

(لماذا على الثلاجة ؟)

قالت تسوغيك: وهي تلم الأوراق متجهة إلى المطبخ

-parce que tu ne penses qu'à manger et chaque fois quand tu ouvres le frigo،tu vas lire les mots collés en arabe.

(لأنك لا تفكرين إلا بالأكل وفي كل مرة تفتحين فيها الثلاجة ستقرأين الكلمات الملتصقة بالعربية)

ضحك عمار وهو يمسك اللاصق

-إنك شرشيل بحق

-سنفور غبي ضع اللاصق على الورقة

-.....

-ما بك إلى ماذا تنظر ؟

هز عمار رأسه

-إلى السقف

-مم السقف جميل استمر في ذلك

-عيناك مزروعتان هناك

قالت تسوغيك

-سينشف اللاصق وأنت تحديق بعيني هناك

-إنك تفسدين اللحظات
 -لست أصور الآن فيلم عاطفي
 صفن عمار وقبلته تسوغيك فجأة على خده
 -لا تغضب أحب أن أستفزك
 مررت أصابعها على شعره
 -لو فكرت بالإنجاب لتمنيت أن يأتيني طفل مثلك بنفس غمازتي عينيك
 غمزها عمار فنظرت إلى باتيل الواقعة وتحقق بهما، فحملها عمار كي تلتصق ورقة في
 أعلى الثلاجة.

(٤٨)

باريس ٢٠١١

"أتى من هاوية مظلمة وننتهي إلى مثلتها، أما المسافة المضيئة بين الهاويتين فنسميها الحياة. لحظة أن نولد تبدأ رحلة العودة. الإنطلاق والعودة في آن. كل لحظة نموت. لهذا جاهر كثيرون أنّ هدف الحياة هو الموت. ما إن نولد حتى تبدأ محاولتنا في أن نخلق ونبتكر، أن نجعل للهادة حياة. كل لحظة نولد. لهذا جاهر كثيرون أن هدف الحياة هو الخلود.

أسأل وأكرر السؤال طارقا أبواب الهاوية : من الذي يبدننا في هذه الأرض دون إذن يطلب منا ؟ ومن الذي يقتلنا من هذه الأرض من دون إذن منا ؟!!!!

أريد أسن أجد مبررا لكي أستمّر على قيد الحياة، ولكي أتحمل المشهد اليومي المرعب للمرض والقيح والظلم والموت".

قرر صحو أن تكون هذه الكلمات التي خطتها أصابع (نيكوس كزنتزاكيس) مقدمة لفيلمه الأخير، وقرر أن يغرق في العمل من جديد كي يهرب من يأسه.

راشيل تريد أن أصدق أنك تحيين الآن في قبر ألا نقرأ الصلوات ونبحث القرابين للموتى، ألا نتذكرهم عندما نضع رأسنا على المائدة..

لماذا بي شعور أنك تحيين في مكان ما، لو أطوي الكرة الأرضية وآتي إليك.

حين قررت أمام راشيل أن أتوقف عن البحث عنك، وأوقن أنك مت، وأنّ الدود

قد قضم جسدك الطري ولكني لم أستطع أن أتوقف عن البحث عنك في داخلي وهذا ما لا أقوى على تغييره. أن أزيلك من جلدي، إنك وشمي المخفي ...
 ألا يقولون في علم النفس أنك إن كنت تفكر في الشخص مليا فهو يفكر فيك أيضا، والموتى لا يفكرون بل ينامون فقط. أكنت أعزي نفسي بتلك الفكرة وأظل أفكر فيك؟
 لم أتوقف عن حملك طيلة هذه السنوات وأخشى أن يخذلني الموت فيأكل ذاكرتي فتبقين تفكرين بي. ليس للموت وقت وليس للحب وقت! كيف سأضحك على الموت لأؤجل موتي حتى أجذك؟!! لا أدري لماذا كلما اشتقت إليك أفكر بالموت أكثر؟
 رن هاتفه

-آلو تسوغيك أنت بخير؟

-بخير صحو، كنت أحضر لمحاضرة الأدب وعثرت على رواية (الدرس الأخير) ل (نويل شاتليه).

-حسنا.. قرأتها وقد تحولت إلى فيلم.

-الأم في الرواية حددت موعد موتها وطلبت من أبنائها تقبل ذلك.

-إنّ الكتاب عن قصة حقيقة يتحدث عن أم نويل التي كانت وزيرة، وأرادت أن تنحصر كي تموت بكرامة

-ألا تجد في ذلك أي تشابه مع ما حصل مع آني.

-ماذا؟ أتقصدين أنّ آني انتحرت. لا يعقل تسوغيك فكلنا نعرف أنّ آني كانت متشبثة بالحياة لأقصى حد.

- ولكن التاريخ الذي حددته هو نفس التاريخ الذي ماتت فيه أختها كوهار.
 -معك حق وكيف سنتأكد ؟
 -يجب أن تتأكد من الممرضة التي كانت مرافقة لها.
 -ولكن لا تخبري إيليك بشيء الآن.
 -لا يوجد تواصل بيننا فهي غاضبة بشأن علاقتي بعمار وذهابي إلى تركيا.
 -لا تكوني عنيدة... ألا تعرفي قلبها الطيب ؟!!
 -ألا تدرك هي أنني لم أعد أقوى على التحمل بعد أربع سنوات هدرتها بلا شيء..
 -لا تقلقي سأتكلم معها وأقنعها بالعودة، هي تريد البقاء وحدها قليلا فهي تشعر بالذنب لأنها تركت آني.
 -ولكني أحتاج إليها، أظاھر فقط أمامها بأني قوية.
 -إني قلقة من أن تكون آني قد انتحرت .
 -ابقي هادئة
 -حسنا ماذا كنت تفعل ؟
 -قد اخترت مقدمة لفيلمي الجديد..سأبعث لك نسخة على الانترنت كي تعطيني رأيك
 -كما كنت أفعل قبل كل فيلم.
 -أنا ناقدتك الوحيدة هههههه
 -بالطبع أيتها الشقية.

(٤٩)

أربد ٢٠١١

حين أنهت تسوغيك المكالمة مع صحو، فتحت الفيسبوك وتفاجأت من كثرة التعليقات السلبية على صورتها وهي في تركيا، كانت تقرأ سريعا، وأكثر التعليقات كانت بنفس النبرة ألا وهي :

(أنسيت أنك أرمينية، أنسيت المليون والنصف شهيد أرميني الذين ذبحهم الأتراك، أنسيت عظامهم التي ما زالت في صحراء دير الزور، أنسيت أنهم منذ ١٩١٥ إلى الآن لم يقدموا أي اعتذار... كيف صاغت من قتلوا شعبك وشردوهم ؟!!!! إما ان تبرري أو تتخلي عن كونك أرمينية.) قررت تسوغيك أن تكتب منشورا على الفيس بوك : قررت أن اكتب هذا المنشور بالأرمينية كي لا يزايد أحد أنه أرميني أكثر مني في حين أن هناك الكثيرون في عمري لا يعرفون معنى صباح الخير بالأرمينية، وربما سيقول الكثيرون منكم ليست اللغة هي ما تجعل الانسان ينتمي إلى بلد ما.

قد تعلمنا نحن الأرمن في أي مكان كَمَا أن يجمعنا شيء واحد وهو كره الأتراك وفي كل ذكرى للمذبحة نحرق علم تركيا، فهم الذين قتلوا أجدادنا وساروا في مسيرات الموت بلا طعام أو شراب عراة تحت الشمس، في الشهر التي كانت تفتح فيه الزهور كانت دماء شعبنا تسقي الزهور، وعظامهم التي ما زالت منسية في صحراء دير الزور إلى الآن.

إنّ أمي أرمنية وأبي فلسطيني، وولدت في فرنسا أيّ أني خليط من كل شيء.. فعليّ أن أحتفل بثلاث بلدان، وأتكلّم لغة ثلاث بلدان، وأن أسمع موسيقى ثلاث بلدان، وأن ارفع علم ثلاث بلدان ... وعندما سأحدث عن الإنسانية وتقبل الآخر كما قالت المسيحية التي كان أول من اعتنقها الشعب الأرمني كي نستمر، سيعترض أحكم ويقول أنّ للغفران حدود وليس مع قاتل أجدادنا.

حسنًا ولكن لو أنّ أخت جدة أحكم قد تربت مع الأتراك وأصبحت مسلمة ولها أبناء، هل ستركبونهم كي تكونوا أوفياء لحقكم كما فعلت جدتي التي رفضت لقاء أختها لأنها تزوجت من تركي وهي التي أخذت وهي في عمر الثلاث سنوات ولم تكن قادرة على أن تقرر حتى تسريحة شعرها. أأتّرك أقربائي بعد أن وجدتهم ؟!!!!

ولأنّ كما يقول المثل الأرمني : الأرز لا يطبخ بالكلمات، سأعطيك أدلة على أنه ليس كل الأتراك مدانون. لماذا تسيحون بنظركم عن الأصوات التركية التي تطالب بالاعتراف بالإبادة الأرمنية كما في عام ٢٠٠٨، حين أطلق أربعة مثقفين هم أحمد أنسل، وعلي يبرم أوغلو، وجنكيز أكرت، وباسكن واران عريضة وقع عليها ٣٢ ألف تركي تطلب المغفرة من

الأرمن. ستقولون أنّ تسعة بالمائة فقط من الشعب التركي يؤيدون الإعراف بالإبادة الأرمنية، وكيف لشعب أن يؤيد الإبادة إذا كان لا يعرف عنها من الأصل، أقصد الجيل الجديد من الأتراك. أنسيتم فيلم (القطع) للمخرج الألماني التركي الأصل (فاتح أكين) والتي جاءت شهادته بالقول : (الشعب التركي يعتبر الحديث عن الجرائم التي

ارتكبتها الدولة العثمانية بحق الأرمن خلال الحرب العالمية الأولى من المحرمات التي يخشى الحديث حولها من قريب أو بعيد. أنا بالأساس أنتمي لأصول تركية، وهو ما يعني أنّ أهلي وأجدادي هم من قاموا بهذه الجريمة، وهناك الكثيرون منهم حتى الآن لا يريدون الاعتراف بهذه المجزرة، وهو ما جعلني أعتبر الفيلم نوعا من التكفير عن هذه الجريمة لتوضيح الحقيقة أمام العالم كله). وإنّ كثيرا من الأتراك بدأوا أخيرا باستيعاب ما جرى ضد الأرمن موضحا تمكين أنه اختار عدم تكرار كلمة (المذبحة) في الفيلم لأنّ الكلمة عندما تتكرر لا يكون لها معنى. ألم يقف الكاتب التركي (أورهان باموق) معنا حين كتب في عام ٢٠٠٥ أنّ مليون ونصف أرمنيا ذبحوا في تركيا، وتقريبا لا أحد يجرؤ على تذكر هذه المذبحة إلّا ي. أعرف أنّ هذا العدد ضئيل، ولكنها شمعة سأضيئها كي أتواصل مع عائلتي الجديدة. ألا يوجد أتراك ساعدوا شعبنا يوم المذبحة، ألا يوجد منهم من قتل في الحرب العالمية، ومؤكّد أنّي لا أقارن عدد الذين قتلوا منا بعدد من قتلوا من الأتراك، ولكن أريد أن أقول أنّ تعميم الشر هو خطيئة. إنّنا نطالبهم بالاعتذار عما حدث في عام ١٩١٥. هل الاعتذار سيعيد الموتى؟! إنّنا فقط نسقط حقدنا على العثمانيين على شعب تركيا الجديد.

هل سنغفر لهم إذا اعترفوا بالمذبحة وحكومتهم تحكم على أيّ حد بالسجن إذا تفوه بكلمة عنها .

بالنهاية أنا لا أتجاهل آلام شعبنا ومعاناته ولكن ألمي لن يمنعني أن أتواصل مع عائلتي التركية الجديدة.

(٥٠)

مارسيليا ٢٠١١

جلست (إيليك) في غرفة (آني) مسكت الدفتر الذي تركته لها آني التي جلست معها في الغرفة

كانت آني تروي وإيليك تصغي كمليدة في الصف.
قالت آني :

ولدنا أنا وكوهار في نيسان مع الربيع قبل ثلاث سنوات من المذبحة، ولم تنجب أُمي (يوفينوغ) غيرنا كمّا نرى أُمي وهي تزرع البطاطا والخيار كعادة الأرمن كانت تقول دوما وهي تزرع : يا رب ارزق غيرنا قبل أن ترزقنا، واعط غيرنا قبل أن تعطينا وكانت تقول لكلانا : الرب يتكلم مع كل البشر ولكن ليس كل البشر يسمع إليه ويفهم كلامه.

كانت كوهار تسألها : هل الرب يتحدث معي كما تتحدث آني معي؟
كانت أُمي تبتم وتقول لها : بل يسمعك ويتحدث معك ويحبك أكثر من آني.
كمّا أنا وكوهار نجلس في حديقة المنزل الصغيرة كي نسمع الرب وكما نصلي له كي تكبر البذور التي زرعها أُمي التي كانت تقول ليس الماء الذي يجعل الزرع يكبر بل الصلاة.
كمّا نصلي بلا توقف.

كان أبي (إتيان) كاتب وكان يروي لنا دوما القصص قبل النوم التي صرت أرويها لك ولتسويغيك وباتيل، نحن ننسى في الحقيقة مع الزمن كل شيء إلا القصص حين تروى بصدق، كَمَا أنا وكوهار متعلقين جدا بأبي وأمي والله.

كانت أمي تخطط لنا نفس الثياب، وأبي وأمي الوحيدان الذين كانا يميزان بيننا، وكانت أمي تقول لنا وهي تحمنا: الله أعطاكم نعمة كبيرة بأن منحكم نفس الوجه كي نحسَّ ببعضكم دوما، وكي لا تفترقا حتى لو افترقتما في المكان ستظلان معا. كَمَا نحضن بعضنا بشدة وكأننا لن نفترق أبدا.

أمي التي كانت حامل وأكدت لها الداية أنها ستنجب ولدا، والتي اختارت له اسم آوادييس كي يكون دوما خيرا سارا لنا.

قبل أسبوعين من المذبحة جاء أربعة جنود وأخذوا أبي الذي كان مشغولا بالكتابة كان ذلك قبل عيد الفصح .. اقترب منا بعد أن احتضن أمي.

-عداني أن تكلم الكآب عني

هزنا رأسينا

همس لنا

-لونا البيض ريثما أعود.

لم ينتهي صوم أبي لكنهم أخذوه، هو الذي لم يصم يوما عن الكتابة.

جاء أرتين الشاب الذي يعمل بالصحافة وجارنا. حين سمعت أمي بجيئه ركضت سريعا إلى بيتهم ببطنها المنتفخ

-أرتين أين إتيان ؟

.....-

-أرتين ماذا حدث ؟

-قد أعدموه مع أكثر من ثلاثمائة مفكر وسياسي.

عصرت أمي آلامها وخبأتها في قاع قلبها وعرفت أن الشؤم قادم، أحضرت امرأة إلى بيتنا كان جسدها مليئا بالأوشام.

اقتربت أمي مني ومن كوهار

-يا روحي اسمعا جيدا، أتعرفان لماذا سمي أسبوع الآلام بهذا الاسم ؟

نظرنا إليها بلا جواب ثم قلت لها

-لأنّ يسوع ابتعد عن أمه

-لا يا روحي ليس هذا فقط لأنهم وضعوا المسامير في جسده وتألّم لأجلنا.

قالت كوهار

-ألم تبكي أمه عليه ؟

قالت أمي

-بكت كثيرا وعلينا نحن الثلاثة الآن أن نتحمل الألم كيسوع..فقط اغمضا أعينكما

اقتربت منا تلك المرأة بعينها المكحلتين الحادتين، كان الألم شديدا ولا أدري كيف احتملت أمي أن ترى ابنتها تتعذبان أمامها، حين كانت المرأة تدق الوشم على ذراعينا.

رسمت المراسة على ذراعينا إشارة الصليب وعلى ذراعي أول حرف من اسم كوهار
وعلى ذراع كوهار أول حرف من اسمي.
وبعد سنوات عرفت لماذا أُمي لم تنفوه بكلمة وهي ترى أَلَمنا لأنَّ أَلَم الموت والفراق
أصعب من أَلَم مؤقت يدوم وجعه ليوم، أما أَلَم الفراق فتبقى ندوبه حتى الموت.
وعلى ذراعها كان هناك إشارة الصليب وأول حرف من أسماءنا جميعا.
قبلتنا أُمي قبل النوم.
-هكذا ستبقين مسيحتين إلى الأبد، وحتى لو افترقتما بالجسد لن تفترقا بالروح.
قالت لها كوهار
-أُمي ما زالت ذراعي تؤلمني
-إذا كنت تحبين المسيح عليك أن تتحملي الآلام مثله بصمت.
لم أنفوه أنا بكلمة، همست لي أُمي.
-روحي آتي طالما كنت صبورة على الأَلَم أنت التي ستحمين أختك دوما.
ولم تعرف أُمي أنني كنت أخبئ أَلَمي كي لا أوجع قلبها، ولم أكن يوما يسوعا كنت
فقط أستطيع الابتسام رغم وجعي.
دخلت أُمي إلى غرفة أبي وتناولت المخطوط الذي على الطاولة، ذلك المخطوط الذي
لم يكتمل، وضعته في كيس، ثم حملت فأسا ونبشت في زاوية من حديقة بيتنا،
ودفنت المخطوط كما دفن أبي في مكان مجهول أو ربما لم يدفن.

كَمَا نَتَرَقَّبُ مَجِيئَهُمْ بَيْنَ لَحْظَةٍ وَأُخْرَى ...

لَوْنَا بِيضَ الْعِيدِ بِأَصَابِعِ خَائِفَةٍ وَمَرْتَعِشَةٍ

كَانَتْ أُمِّي تَعْرِفُ أَنَّ الْبِيضَ سَيَكْسِرُ وَالزَّيْنَةَ سَتَمُوتُ لَكِنَهَا أَرَادَتْ أَنْ تَقَاوِمَ بِالْفَرْحِ.
كَانَ تَقْتَمُّ وَهِيَ تَوَارِي دُمُوعَهَا : يَا يَسُوعَ، يَا يَسُوعَ يَا ابْنَ اللَّهِ الْحَيِّ، هَا نَحْنُ قَدْ مَرَرْنَا
فِي أَسْبُوعِ الْآمَلِكِ الَّتِي صَارَتْ آلَامَنَا، دَرَبَ آلَامِنَا سَيَكُونُ طَوِيلًا، بِشَفَاعَةِ أَمَلِكِ
الْمَقْدَسَةِ الْمُنْزَهَةِ عَنِ الْخَطِيئَةِ لَا تَدْخُلْنَا فِي التَّجْرِبَةِ.

لَنْ نَقْدِرَ مِثْلَكَ عَلَى تَحْمِلِ الْآلَامِ.

ازدادت أوجاع أُمِّي، جَاءَتْ جَارَتُنَا مَعَ ابْنِهَا الْوَحِيدِ. وَبَقُوا مَعَنَا فِي الْبَيْتِ.

كُلُّ الْأَخْبَارِ انْقَطَعَتْ مِنْ أَرْتِينَ.

جاء ٢٤ / نيسان / ١٩١٥

جَاءُوا فِي الْفَجْرِ اعْتَقَلُوا الشَّبَابَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَطِيعُوا الْفِرَارَ إِلَى الْجِبَالِ، وَأَمَرُوا جَمِيعَ
النِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ أَنْ يَسِيرُوا فِي الصَّحْرَاءِ بِلَا طَعَامٍ وَلَا شَرَابٍ.

تَرَكَوا الْبِيضَ الْمُلَوَّنَ وَالزَّيْنَةَ وَيَسُوعَ الْمَصْلُوبَ وَسَرْنَا فِي صَحْرَاءِ الْآلَامِ.

أَتَذْكُرُ كُلَّ شَيْءٍ كُلَّ شَيْءٍ، رَائِحَةُ الْمَوْتِ، دَمُ خَالَتِي الَّذِي نَزَفَ بَعْدَ أَنْ اغْتَصَبُوهَا
أَمَامَ زَوْجِهَا.

الْفَتَيَاتُ اللَّاقِي رَمِينَ أَنْفُسَهُنَّ فِي النَّهْرِ كَي لَا يَغْتَصَبُوهُنَّ.

كَنتُ أَحْسَسُ بَوَجْعِ أُمِّي الَّذِي كَانَتْ تَخْفِيهِ، وَلَكِنْ إِلَى مَتَى فَقَدْ كَانَ مَقْدَّرَ لَأَوَادِيسَ
أَنْ يَخْرُجَ.

ما زالت الترنيمة التي كان يرددوها الجميع في مسيرات الموت في رأسي.. كَمَا نردد جميعا

همسا

يا رب ارحم

يا رب ارحم

يا رب ارحم

نطلب منك يا رب أن تساعدنا

وفي الإيمان تثبتنا

وبقوة روح القدس تلهمنا

أن نصلي من أجل أعداءنا الذين لا يعرفون ماذا يفعلون

ونصلي من أجل العالم.

كَمَا نردد الترتيلة وعيوننا في الأرض، ولكن الله لم يسمع دعاء أمي، خلعت قرطيا

الذان لم يغادرا أذنيها منذ جئت إلى الدنيا، أعطيتني واحدا وأعطت الآخر لكوهار، في

تلك اللحظة جاء جندي واغتصبها ثم فغر بطنها وعلق آواديس على عصا.

كانت أمي تشير إلي وإلى كوهار بالمسير، وقد أغمضت خالتي أعيننا وهي تبكي.

سرنا وسرنا بلا توقف كانت الشمس لا ترحم والأرض لا ترحم، كان كل شيء

ضدنا.

اقتربوا من خالتي التي رمت نفسها في النهر وهي تردد لن أدعكم تنجسوني.

التفت فلم أجد كوهار كانت يدي وحيدة بدون كوهار وبدون أبي وأمي وخالتي.

سرت وحدي على درب الآلام.

كَمَا نسير بلا توقف كي لا نثير غضب الجنود.

أين أنت يا الله ؟ ألا ترانا ؟ ألا تسمع دعائنا هكذا كانت آخر كلمات إحدى العجائز

قبل أن يذبحوها وهم يقولون : كيف سينقذك إلهك ؟ أين هو ؟

توقفت وصرت أبحث عن الله الذي يسأل عنه الجندي كي يساعدنا، مضوا الناس في

المسير وبقيت أبحث عن الله ولم يحس بوجودي أحد، بقيت وحيدة في الصحراء

وبيدي فردة من قرط أُمي. أين أنت يا كوهار ؟

في ذلك الوقت أخذني رجل كبير في غفلة عن الجنود واختبئنا خلف شجرة، حملني

على كتفه وصعد بي إلى الجبل حيث كان يختبئ العديد من الأرمن.

سألني الرجل

-هل أنت جائعة ؟

هزرت رأسي وأنا أمسك بشدة القرط كي لا يضيع.

حين أحضر لي الرجل الطعام سألني

-هل أنت ابنة إتيان.

-نعم

-وما اسمك يا روحي

-آني

نادى على ابنه

-نیشان تعال وخذ آني إلى الخيمة.

كان نیشان في مثل عمري وكان الرجل جده وقد قتل والداه مثلي، كان في الخيمة الكثير من الأطفال الذين فقدوا آبائهم مثلي، ولم أشعر أنني وحيدة فقد كان اليم يوحدا.

كانت هناك فتاة شابة تعني بنا، وكانت تسلينا باللعب والأغنيات والقصص وعلقت بيالي قصة (سارق الكرز).

قالت المعلبة بعد أن أنهت القصة: لهذا لن ننسى من نحبهم لأننا نحبهم من قلوبنا. أحببت تلك القصة لأنني لن أنسى أبي وأمي وكوهار.

بعد أسابيع صار الأتراك يبحثون عنا في الجبال، وقد كان الرجال مستعدون للقائهم فقد سمع الأتراك عن حملات خارجية آتية بالسفن لإنقاذ ما تبقى من الأرمن وقد حاولو تفجير أكثر من سفينة آتية من أمريكا وقد غرق أكثرهم في البحر.

في الليل بدأ القتال، كانت المعلبة تطمئننا وهي لا تتوقف عن سرد الحكايات بأن سفينة كسفينة نوح التي صنعها الله ستأتي بعد قليل لإنقاذنا، وقد جاءت تلك السفينة ومسكت بيد نیشان كانت أصوات المدافع تطنى على صلوات الموتى، ركبنا في السفينة الذاهبة إلى فرنسا وقد قتل الكثير من الرجال كي نستطيع الصعود في السفينة، وقد جاء الرجل العجوز واحتضننا أنا ونیشان كانت رائحته كرائحة أبي.

كانت النجوم ساطعة ونحن في وسط البحر باحثين عن الحياة وصوت أمي لا يتوقف عن حثي على الاستمرار في المسير. كان الفضاء ينقل صوتها: آني لا تتوقفي، يجب أن

تبقى على قيد الحياة كي تروي ما حدث، ستكون درب الآلام طويلة، ستغرس مسامير الوحدة في يديك، وستحملين صليبك وحدك لكنك ستبقين على قيد الحياة. في أي بقعة من الأرض سيكون هناك أرميني ولكنهم سيتوحدون على شيء واحد هو الألم.

وصلنا إلى مارسيليا

وضعت آني الوحيدة قدمها في أرض غريبة، وما زالت تمسك بيد نيشان إلى أن كبرت قامتها، وأصبحت في الثامنة عشرة وقادتها يده إلى الكنيسة وتزوجت آني. كان أول ما تعلمناه أنا ونيشان من الجد العجوز التركية، فكان يقول عليكم أن تتعلموا لغة عدوكم كي تأمنوا شره.

منذ أن رأيت أُمِّي تغتصب وتذبح أمامي، وحين اختطفوا كوهار وأعدموا أبي، أصبح جميع الأتراك أعدائي والذي كان يمدني بالحياة كرهى لهم، علّمني الجد حياكة السجاد فقد كان الأرمن يشتهرون بالأعمال الحرفية وكانوا يقولون أنك إذا أردت أن تستلم عملا متقنا فأعطه لأرميني.

كان نيشان يحب التصوير ولم يقف الجد في طريقه بل وافق على أن يتعلم بعد العصر التصوير عند مصور أرميني قد هاجر إلى فرنسا قبل سنوات من المذبحة. كان أول ما فعله الأرمن حين جاؤوا إلى فرنسا هو بناء الكنائس فالكنيسة هي الوطن الوحيد الذي تبقى لهم، وقد بنوا بيوتهم كما في أرمينيا التي كانت تشتهر بالقرميد الأحمر

...وزرعوا أمام بيوتهم الخيار والبندورة كما كانوا يفعلوا في أرمينيا، كانوا يرمون أنفسهم ببطء.

وقد جاءت رسالة الأب (بالاكان) عزاء لنا :

لأننا غرباء ونعيش في الخارج، قدموا لبعضكم يد الأخوة، وامسحوا دموع بعضكم البعض، فجميعكم أصدقاء بالألم، وتعرفون جيدا أن الذين يشتركون بالحزن والألم وعاشوا نفس المصير، لن يخضعوا أبدا.

مات الجد العجوز ولم يبارك زواجي بنیشان.

أصبح نیشان مصورا محترفا وفتح استوديو صغير وفتحت أنا مطعما للأكلات الأرمينية وأسميته آارات على اسم الجبل الذي في أرمينيا الذي رست عليه سفينة نوح.

قد انجبتك بعد مدة طويلة من زواجنا حين تجاوزنا الثالثة والثلاثين وبعدها مرض نیشان بالسرطان، وقد عدت للحياة وحيدة مرة أخرى، كنت أعمل بجد حتى أصبح الجميع يأتي إلى المطعم وقد اشترت واحدا أكبر وظل الجميع يسأل عن سر النكحة وكان الجواب عليك أن تكون أرمينيا فقط. تزوجت مرة أخرى في سن متأخرة وقد توفي بجادث سيارة، وكأنه كان مكتوبا عليّ أن أسير وحيدة في درب الآلام.

وقد ظلت كوهار شوكة عالقة في حلقي إلى أن جاءت تلك الرسالة بعد سنوات وقالت أن كوهار تزوجت من تركي، وأصبحت مسلمة كم فرحت لأنني وجدتها وكم كرهتها لأنها تزوجت من من قتل والديها.

قاطعت جميع الرسائل ولم اقرأها ثم قرأتها بعد زمن، وعرفت أنها ماتت وعادت إلى المسيحية وقد أجبرت على أن تصبح مسلمة، وهي طفلة كي تبقى على قيد الحياة حين ربّتها عائلة تركية..، وكم تعذبت بالبحث عني.

لم أسأح نفسي لأنني لم ألتقي بها وخالفت وصية أمي، لم أستطع أن أتصور أن في عروقها دماء تركية ولو كنت مكانها لانتحرت.

ندمت لأنني لم أطفئ عطش كل هذي السنوات وطغى علي كرهى.
هي التي تعذبت أكثر مني وهي تخفي ديانتها وتعيش مع من قتل أبويها، كيف لم أفهم ألمها، كيف لم أضمها، كم مرة ستلعني أمي لأنني نبذت أختي وأول حرف من اسمها محفور على ذراعي.

كم تستحقين الموت يا آني وستظلين على درب الآلام حتى تلفظين النفس الأخير.

(٥١)

مارسيليّا ٢٠١١

حين سمعت إيليك جرس البيت یرن مسحت دموعها، وبقي الدفتر في يدها.

-روحي آواديس مفاجأة جميلة.

قبلها آواديس وهو يدخل إلى الصالة.

-أكنت تبكين ؟

بقيت صامته وهي تتحسس بأصابعها دفتر آني

-كنت اقرأ مذكرات آني، إنها نادمة لأنها لم تلتقي بأختها.

-حقا ؟ كانت تسوغيك إذن على حقك بذهابها إلى تركيا.

-ليتني كنت جريئة كتسوغيك.

-ماما سأقول لك شيئا إنّ آني لم تمت.

-ماذا تقول يا آواديس ؟!!!!

-أقصد أنها انتحرت.

-آواديس ماذا تقول ؟!!!!

-أتذكرين اليوم الذي سافرت فيه مع تسوغيك إلى الأردن، ألم تستوقفك آني يومها

بتحديدها تاريخ موتها ؟ ولم نأخذ كلامها على محمل الجدل لأنها قد تجاوزت المائة وتريد

فقط أن تمنعكما من السفر.

-أتذكر ذلك وما علاقة ذلك بانتحارها ؟

-قد قررت الموت في نفس التاريخ الذي ماتت فيه أختها كوهار،أي أنها أرادت أن تعذب نفسها لأنها لم تلتقي بأختها.

-آواديس لا أستطيع احتمال كل هذا.

-قد أجبرت الممرضة على الإعتراف، فقد وجدت علبة دواء بجانب سرير آني، وقد أخفتها قبل مجيئي فقد كانت خائفة.

غرقت إيليك بالبكاء وهي تردد : لماذا يا أمي ؟ لماذا ؟ لماذا كل هذا العذاب ؟!ألأنا فقط خلقنا أرمن علينا أن نحمل كل هذه الآلام !!!!!!!

حين نهضت إيليك عن الكنبه وقعت ع الأرض، وضعها آواديس في السرير، وقد استعادت وعيها بعد دقائق.

قالت إيليك:

-آواديس أريد أن أعود سريعا إلى تسوغيك.

ابتسم صحو

-إنها مشتاقة لك كثيرا

-أعرف ذلك ولكنها عنيدة كآني، تتظاهر دوما بالقوة كي لا تعبر عن مشاعرها.

-حقا هي كذلك عكس أبي نديم الذي كان يعبر عن عواطفه بسهولة.

-كان كالأطفال لا يخفي أبدا ما بداخله

ضحك آواديس وهو ينظر إلى إيليك فضحكت وهي تقول

-توقف عن تقليد ضحكته.. كم تشبهه !!

احتضنته إيليك بقوة

-كم اشتقت إليه

-وأنا أيضا، احجز لي بعد غد قد اشتقت كثيرا لباتيل ولتسويك

-وأنا أيضا وماذا بشأن ليفون إنه يرغب برؤية باتيل ؟

-أفكر أن آخذها معي بعد عيد الميلاد سأمكث شهر ثم نعود

-فكرة جيدا إنه مؤلم أن يبقى الطفل بلا أب.

وضعت إيليك رأس صحو على ركبته وهي تلاعب بأصابعها شعره الناعم.

- أعراف ذلك يا روحي فقد عشته أنا أيضا أتعلّم أن أبي نيشان كان يحب التصوير...

قلبت إيليك دفتر آني، وتناولت الصورة التي كانت محتبئة في إحدى صفحاته.

-هذه ماما آني وأبي نيشان.

أمسك صحو الصورة وقلبها كانت مكتوبا عليها التاريخ

-١٧ / آذار / ١٩٣٥ ... كانت آني جميلة

-هذه الصورة بعد سنتين من زواجهما، أتعرف لماذا أسمتني آني (آوايس) ؟

هز صحو رأسه بالنفي.

-كما قرأت في مذكراتها كان لها أخ سيولد، وجدتي كانت تريد أن تسميه آوايس

ليكون خيرا سارا...وقد جاءها ألم الولادة في يوم المذبحة، فاعتصب الجنود جدتي ثم

فغروا بطنها ووضعوا الطفل على الحربة.

- وأين الخبر السار في ذلك ؟
- إنَّ آني قد تفاءلت بقدومك إلى العائلة.
- كم تحبني آني من الأسرار.
- نهضت إليك
- أريد أن أذهب إلى قبرها.
- حين دخلا المقبرة قالت تسوغيك.
- إنهم محظوظون فقد حجزوا لهم قبورا فليس من السهل أن نحجز قبورا.
- معك حق علينا أن نحجزه مسبقا كما نحجز مقعدا في طائرة.
- وضعت إليك الزهور على قبر آني.
- أتعلم آني لا أخاف من زيارة المقبرة ليلا، كانت تستهويني وأنا صغيرة تلك الفكرة
- بأن الموتى يستيقظون ليلا ويتعرفون على بعضهم.
- هذا خيال كاتبة لماذا لا تفكرين بالكاتبة ؟
- إنها تحتاج لتفرغ دائم فحياة الكاتب كحياة الراهب.
- انظري إلى هذا القبر لا اسم على شاهده أو تاريخ وفاة.
- إنه لرجل أرمني قد وجد مشوها، ولم يكن معه أي إثبات لهويته، وقد اجتمعت
- يومها معظم الطائفة الأرمنية وذهبت إلى المقبرة للصلاة عليه.
- إنه جار آني الآن.
- كفّ عن ذلك.

-ماذا سأقرأ الفاتحة أم آية من الإنجيل.

أخفت إيليك ضحكتها.

-ألم تكن تجبرك على الذهاب معها إلى الكنيسة وأتذكر يوم صلبت على وجهك وقلت
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. لا أدري كيف كانت تحبك لهذا الحد وتحمل شقاوتك ؟!!!!

-هيا تعالي إن تلوت الفاتحة ستخرج من قبرها وتطردنا.

اقتربت إيليك من شاهد قبرها، كان مكتوب عليه مقاطع شعرية للشاعر الأرميني
(ساهيان)، قرأتها إيليك وهي تدمع.

(أنا ضميركم، لا تخدعوني

أنا أجنحتكم، لا تقيدوني

أنا شرايينكم، لا تقطعوني

أنا دمكم، لا تهدروني)

قال صحو:

-تلك كانت وصيتها أن تكتب هذه المقاطع على شاهد قبرها.

-كانت دوما تهتم بالتفاصيل حتى بتفاصيل موتها.

-والتفاصيل هي التي تؤلنا دوما.

-هناك قصيدة كانت تحبها أيضا وقد حفظتها منها للشاعر الأرميني (هوانيس شيراز) .

(كلما ابيضت شعرة في رأسك يا أمي

بكتها أوتار قلبي.

فأنت، وإن لم تفقدي ولدا في الحرب
 إنما الذين فقدوا أولادا هناك
 جلبوا بياض الثلج إلى شعرك
 أنا لا أريد شيئا من الدنيا
 سوى ألا يتساقط ثلج جديد
 فوق ثلج شعرك.)
 مسك صحو يدها وهمس لها.
 -هيا ...

على باب المقبرة قال لها صحو.
 -لماذا لا تأتي معي إلى باريس قبل أن تذهبي إلى الأردن ونسهر مع راشيل ونشرب
 نخب حياتنا؟
 مسحت إيليك دموعها بطرف كمها وهي توميء له برأسها، وقد كانت تبكي في داخلها
 قبرا آخر.

(٥٢)

اربء ٢٠١١

جاءت جميلة إلى مكتب تسوغيك
 - ما بك جميلة غاضبة ؟
 أغلقت جميلة باب المكتب
 -لا يكفي أن زوجي قبل ن تعمل تلك الفتاة السورية عنده، وهي لا تملك إلا شهادة
 الثانوية
 -انتظري لم أفهم
 -جاء زوجي يوم الخميس غاضبا لأن تلك الفتاة تحرشت به، وقد طلبت منه أن يعمل
 يوم السبت كي تبقى معه.
 -توقفي لكن زوجك من طلب منها أن تأتي يوم السبت لكثرة العمل المتراكم.
 -أهذا ما أخبرتك به تلك الكاذبة ؟
 -لا تشتميا من فضلك بهذه الطريقة.
 -أندافعين عنها ألا يكفي أننا آويناهم في بلدنا ؟!!!
 -كيف تفكرين بهذه الطريقة البشعة، ألم يجبروا على الخروج من بلدهم، ألم نخرج
 نحن الأرمن مثلهم ألم يخرج الفلسطينيون مثلهم ؟!!!
 -لم أقصد ذلك.

-جميلة توقفي عن الحديث عن حنين فهي رفيقتي وأثق بها.

-أفضلينها علي ؟!!!!

.....-

فتحت جميلة الباب بقوة.

كانت تسوغيك تحرك ساقها اليمنى بسرعة وتقضم أظافرها وهي تكلم نفسها : ألا يكفي

المهاجرون ما بهم من ألم حتى يهانون بهذا الشكل ؟!!!!

كانت تنتظر تسوغيك أن تنتهي المحاضرة حتى تعود إلى البيت وترى حنين.

أخذت باتيل من الحضانة وقالت لها المعلمة أن حنين قد جاءت في الصباح وأخذت الآن.

حين فتحت حنين الباب ورأت تسوغيك غرقت بالبكاء.

-لماذا لم تخبريني يوم الخميس ؟

-خفت أن لا تصدقيني.

-كيف تقولين ذلك يا روجي إنك رفيقتي.

-خفت أن تصدقني جميلة فهي متعلمة مثلك.

-حنين كيف تظنين أنني أفكر بك بهذه الطريقة، إني أثق بك أخبريني ماذا حدث ؟

-في البداية لم يفعل زوج جميلة شيئاً، كان يضع يده على كتفي وكنت أظن أنه يفكر

بي كابنته فقد تجاوز الخمسين، مرة طلب مني أن آتي إلى المكتب يوم السبت لكثرة

العمل، ولم يطلب ذلك من السكرتيرة الأخرى.

كنت جالسة على المكتب وقد طلبت منه الأوراق التي علي إدخالها، فطلب مني أن
آتي إلى مكتبه وأغلق الباب.

اقترب مني

-هذا هو العمل الإضافي الذي عليك فعله.

أبعدته عني، اقترب مني مرة أخرى.

-لا تمثلي هذا الدور، فأمثالك يتزوجون مجاناً، ألا تعرفي العرض الجديد أنّ من يتزوج
فتاة سورية يأخذ الثانية مجاناً.

صفعته على وجهه.

-أتعرف ماذا تعني سوريا أي الكرامة ؟

-أنت الآن لا تسوين شيئاً فقد ذهبت سوريا ... هيا

شدني إليه فأبعدته عني، ووقع على الأرض ركضت بسرعة، وخرجت وهو يتعود أنه
سيخبر جميلة.

اقتربت منها تسوغيك واحتضنتها

-لا تبكي سيكون كل شيء على ما يرام.

-على الانسان أن يموت في بلده من أن يهان في بلد آخر

-ليس كل الناس كذلك الرجل إنه نموذج فاشل، لا تقلقي سنجد عملاً آخر.

عادت حنين إلى البكاء

-حنين ما بك ؟

أخرجت ورقة من حقيبتها

- قد أخذت آلان اليوم صباحا إلى الطبيب كي أخذ التحاليل

- وماذا قال؟

- معه التهاب حاد في القصبات الهوائية لكثرة ما استنشقت من الغاز الكيماوي والقنابل

العنقودية التي كانت تضرب حلب ويحتاج إلى عملية مكلفة.

- لا تقلقي سيكون بخير

- لو عملت لسنوات لن أجمع ربع تكاليف العملية، لن أستطيع أن أبقى في هذه الشقة

فبمقدوري فقط أن أدفع لشهرين.

- لا ستبقين هنا وسأدفع أنا الإيجار وسنجد حلا.

- ولكن ؟

أمسكت تسوغيك بيدها

- اسمعي قد ذقت معنى أن أكون وحيدة، وأن أكون بلا وطن، لذلك أفهمك جيدا

أكثر مما تظنين. كلانا نعيش ذات الألم.

احتضنتها حنين.

-ماذا يمكن أن أفعل لو لم تكوني موجودة !!؟

-وماذا كنت سأفعل أنا لو لم تكوني معي ؟!!!!

.....

التقت تسوغيك عمار في الحديقة

- ما بك مكتئبة حين اتصلت بي شعرت أنّ صوتك مخنوق ؟

وضعت رأسها على كتفه.

- بي أشياء كثيرة لا أستطيع فهمها، لا أفهم لماذا يطرد شعب ويهجر ويشرد ويموت قهرا وجوعا، كانت تظن أنّ الشعب الأرميني هو الشعب الوحيد الذي هجر وتأم، لكنها لم ترى ما مر به الفلسطينيون وما يمر به السوريون الآن، وكأنّ التاريخ يعيد نفسه

كل مرة مع شعب آخر.

ستقول الآن عني ساذجة، لماذا الحروب إذا كان الجميع سيموت يوما ما ؟ لماذا كل

هذا الشر على هذا الكوكب الصغير ؟!!

لماذا لا أستطيع أن أكون حادة كآني أن أحب بتطرف وأكره بتطرف.

لماذا لا أستطيع أن أكره الأتراك مثلها ؟ ألاني أوّمن أنّ منهم من هم مثلي يفكرون بالألم المشترك لكلا الشعبين، وأنّ منهم من يملك قلبا طيبا ويكره الشر. لماذا لا أستطيع إلا أن أرى الحقيقة بحياد، وأن أرى الخير في كل مكان .

لماذا عليّ أن أفزع حقدي على أشخاص ربما يكونون أفضل مني، وقد أرسل الرب لي رسالة عن طريق كوهار حين تزوجت من تركي وأنجبت منه كي لا تنقطع علاقتي مع ذلك الشعب، وأنه لا يوجد شر مطلق على هذه الأرض.

ألم يمت الكثير منهم أيضا في الحرب ؟!!

ألم تتوجع أمهاتهم كما تتوجعت آني ؟

ألم يقتل الأرمن الأتراك في الحرب ؟ وحين تتقاتل القوى يدفع الشعب الضريبة.
لو رأيت اليوم كم جرحت حنين لأنها طردت من بلدها، وعليها أن ترضى بأي شيء
كونها سورية مهجرة.

قال عمار:

-إنّ حنين مثال صغير على ما يعيشه المهاجر خارج بلده، وقد عانى الفلسطينيون قبلهم
ثم العراقيون. الألم لا ينقسم، الألم هو الألم في أي بقعة.
-قد جرحت كثيرا من كلام جميلة فلو أُتيح لأي شخص أن يبقى في وطنه أسيخرج
منه !!!

-وأظن أنك فهمت الآن تطرف جدتك آني وتشبها الشديد بأنها أرمينية.
-فهمت ذلك متأخرة، ولكن لن أكره مثلها شعبا بأكمله.
مسك عمار يدها

-لا يستطيع قلب كقلبك أن يكره، إنه جبل على المحبة فقط.
-وكلما أنظر في عينيك أستعيد سلامي الداخلي، وأحس أنني في مكان لا شر فيه ولا
حروب.

إنّ آلان ابن حنين يحتاج إلى عملية باهظة الثمن.
-سأبحث عن جمعيات تساعد السوريين.

حدق عمار بها

-كم أحب عينيك الدامعتين

كمطر نجول يبلل الطرقات
 كأصابع باردة وعاشقة تنتظر على شباك
 كموعد منسي
 وكقعد ذابل
 الآن دورك لتقولي لي شعراء، مسكت تسوغيك أطراف أكام بلوزتها ورفعت كتفها
 -لا أستطيع أن أكتب الشعر مثلك.
 داعب بإصبعه أنفها
 - لكنك تحفظين الشعر، هيا أيتها الطفلة المشاكسة.
 -حسنا أيها السنفور، هنالك قصيدة أحبها كثيرا لشاعر أرميني اسمه (صاري أصلان)
 واسمها (أنت الحب)،
 بردت فأدفأتني
 عطشت فسقيتني
 تألمت فسكّنت آلامي
 أخطأت فهديتني
 أظلمت فنورتني
 ذبلت فأزهرتني
 مرضت فشفيتني
 أخطأت فأصلحتني

أهملت فقدرتني

ضعت فوجدتني

لقد مت

فأعد إليّ الحياة

أعد إليّ الحياة

أيها الحب.

-هذا هو عمار الذي في القصيدة

-إنك تقولين الشعر كأنك أنت التي تكتبينه.

-حين نحب نصنع أي شيء.

- يا طفلي الحلوة.

جاءت باتيل تبكي وقد جرحت ركبها

-maman، regarde

(ماما انظري)

-Batile tu exagères،ce n'est qu'une petite blessure

(باتيل إنك تضخمين دوما الأشياء إنه جرح صغير.)

اقتربت من عمار

-Ammar regarde la plaie est grande

(انظر عمار إلى الجرح إنه كبير.)

قالت تسوغيك

-Donc، rentrons à la maison

(إذن لنعود إلى البيت.)

-mais je veux jouer à la balançoire

(لكني أريد أن ألعب على المرجوحة.)

-oh mon Dieu، tu souffrais il y a quelques minutes

(يا إلهي قبل قليل كنت تحسّن بالوجع.)

نهض عمار وهو يبتسم

-عندي طفلتان وليست واحدة سنلعب على المرجوحة.

جلس عمار على المرجوحة ووضع باتيل في حضنه وجلست تسوغيك على الأخرى.

أرادت تسوغيك أن تحلق بها المرجوحة عاليا لتنسى الألم الذي على الأرض، وتكون

فقط مع عمار وباتيل ولا شيء أبعد. أغمضت عينيها وحلقت فوق الألم بقليل.

(٥٣)

باريس ٢٠١١

وصل صحو وإيليك إلى باريس في الثانية عشر ليلا، كانت راشيل باستقبالهما.
 أحضرت راشيل الويسكي من المطبخ، وبعد أن شربت إيليك قالت لراشيل.
 -إنك صديقة صحو الوفية، يكفي أن تكوني وفية في الفراش، فهذا ما يريده الرجل
 دوما أن لا تخوني جسده.
 كانت تضحك بصوت عال، قال لها صحو الذي لم يشرب كثيرا، وكان فرحا برؤية
 إليك بهذه الطريقة.

-لم أراك منذ زمن بعيد تشربينهم ها أنت سعيدة الآن.
 -معك حق، نديم من كان يشجعني على الشرب، وتسوغيك الوحيدة التي في العائلة
 التي لم تشرب يوما، ولم تتم مع رجل غير ليفون كما فعلت آني وهذا هو فقط القاسم
 المشترك بينهما.

جلس صحو بقربها:
 -ما أجملك وأنت ثملة.
 -أريد أن أشرب الليلة نخب آني، هيا أحضر أشرطة شارل أزنافور التي أهدتك إياها
 آني. قالت راشيل.
 -وأنا سأعزف لحنا لشارل أزنافور أيضا. قال صحو.

-قد أكل الواحد والتسعين عاما وما زال يغني.

قالت إيليك:

-أنسيت أنه أرميني.

قال صحو: متهمكا وهو ذاهب إلى الغرفة

-الأرمن تذكرة دائمة بالبقاء على قيد الحياة.

قالت إيليك.

-لا إنهم يعيشون الحياة، ويتشبثون بها كي لا تضيع منهم مرة أخرى.

جلس صحو على السرير وحين أخرج العلبة التي لم يلمسها منذ أن أعطته إياها إيليك،

اختار عدة أشرطة بشكل عشوائي ووجد في قاع العلبة ورقة صغيرة مطوية.

فتح الورقة التي كتبت بخط آني الذي لم يخطئه يوما: أبحث عن الشريط الذي يحتوي

أغنية la bohème

أفرغ العلبة ووضع جميع الأشرطة على السرير، كانوا خمسين شريطا، قرأها واحدا

واحد، إلى أن وجد الشريط الذي يحتوي على الأغنية، فتح الغطاء وأخرج الشريط،

فوجد ورقة أخرى مكتوبة بخطها أيضا.

فتحتها :

روحي آواديس قد اخترت أن أضع هذه الورقة في الشريط الذي يحتوي على أغنية

la bohème لما تعنيه تلك الأغنية لنديم، والتي تعبر عن الحياة اللامألوفة، أن تعيش

هكذا بدون أن تحمل هم غد ... أن تكون حالما دوما، أن تعرف أنك أتيت من العدم

وستعود إلى العدم، أن لا تكون مباليا بشيء، وأن لا تأخذ حياتك على محمل الجد، بل أن تأخذها بكامل خفتها بأيامها التي تسيل كل يوم من بين أصابعنا الملساء، وأن يتساوى لديك الموت والأحياء وأن تعتبر الأبدية هي اللحظة التي نعيشها، أن نشك بكل شيء حتى بالله كي نفهمه، وهذا ما تمنيت أن أفعله طيلة حياتي لا أن أبقى جاثية أمام العذراء كي تحمل عني آلامي.

وحين نفكر أن ننهي حياتنا أن ننهيها كما نشاء بدون أن نشعر بأي ذنب أو ألم، وهذا ما فعله أباك نديم حين أبعدت إيليك عنه، وأصبحت حياته بلا معنى، ألقى نفسه أمام سكة الحديد، أنا التي ساعدته على الانتحار حين جاء وتوسل إلي أن لا أبعد إيليك عنه، ولكني مددت له يدا مليئة بالموت.

كم كان شجاعا حين سبق موته، وأفكر في يوم ما أن أجرب أن أموت مثله، بدون أن أطلب من العذراء ذلك، العذراء التي لم تسمع يوما دعائي بأن تميتني، سأجرب أن أموت بدون مساعدتها، فلم يكن لي الخيار بأن آتي إلى الحياة ولكني سأختار موتي. طوى صحو الورقة.

طلب من راشيل أن تعزف وتغني أغنية *la bohème*، كانت إيليك نصف مستيقظة.
- أين ذهبت ؟

- كنت أبحث عن أغنية آتي المفضلة.. *la bohème* لها لرقص ضحكك إيليك

- هل سنرقص على هذه الأغنية المؤلمة !!؟

-نعم سراقص الألم.

نهضت إليك مترنحة، حين بدأت أصابع راشيل الحزينة بعزف الأغنية (La bohème)

أخبركم عن سنين

من هم دون العشرين

حتما لم يعرفوها

بومتارتر آنذاك

تزهو بكل شباك

ليالكة الظليلة

ولإن كان بيتنا

ذاك الذي ضمنا

متواضعا سقيما

ففيه ألتقيك

أنا الجائع

الذي أرسمك عاريا

La bohème

معناها أننا سعداء...

.....

حين انتهت راشيل من العزف والغناء أشار لها صحو بأن تعيد الأغنية.
قال صحو: لإيليك وهما يرقصان
-أبي نديم كان عاشقا كالذي في الأغنية
ضحكت إيليك
-حقا كان نديم بوهيميا، وقد أحبني بجنون
-لذلك ألقى بنفسه على سكة الحديد.
تركت إيليك يده، وألقت بنفسها على الكنبه وأغمضت عينيها، أمسك صحو يدها،
وساعدها على النهوض وهو يصرخ.
-هيا انهضي
توقفت راشيل عن العزف
-صحو اتركها ما بك ؟!!!
-لا شأن لك فقط استمري بالعزف
-يا إلهي أجننت ؟!!
-راشيل عودي إلى لبيانو.
حمل صحو إيليك، وذهب بها إلى الحمام وأجبرها على التقيؤ
-هيا اغسلي وجهك، أنتظرك أمام الباب.
وقعت على الأرض فجاءت راشيل، وخلعت عنها ثيابها ووضعتها تحت الدوش.
كان صحو يدخن بشراهة منتظرا أن تستعيد إيليك توازنها..

جاءت بها راشيل إلى الصالة، أغلق صحو باب الشرفة وجلس بجانبها وأعطاه رسالة
آني، قرأتها إليك وقد بللت الورقة بدموعها.

سألها صحو

-هل هذا صحيح ؟

أجابته إليك التي لم تتوقف بعد عن البكاء

-نعم صحيح

رمى صحو علبة الدخان على الأرض

- لم تنكري إذن، ولماذا لم تخبريني، لماذا جعلتني أتعلق بأمل أنّ أبي سيعود

يوما، لماذا جعلتني أصاب بمرض الانتظار وإني محجوز في قبر ؟!!

- أكنت ستسامحني لو أخبرتك، أكنت ستعيش طفولتك كباقي الأطفال ؟

ماذا سأقول لك أنه غرق في الشرب بعد أن منعتني آني من لقائه، ثم انتحر بدون أن
يعرف أنّ تسوغيك كانت في أحشائي ولم أكن أعرف يومها أنا ذلك.

- ولكنك قد كذبت علي، وعشت طيلة هذه السنوات كذبة أنّ أبي سيعود

كما يعود كل مسافر.

- إلى الآن لم أصدق ماذا حدث، والذنب هو ذنب آني التي رحلت، وكشفت

كل الأسرار لأواجهها وحدي.

- كيف حدث ذلك ؟

- حين علمت آني بقاءنا هددته أنها ستخبر الشرطة بأن إقامته في فرنسا غير شرعية، ومع ذلك أصرّ على لقائي، فأخبرت آني الشرطة بدون علمي وهددتني آني إن لم أبتعد عنه ستطردني من البيت، ولن تعطيني مصروفاً، وقد كنت يومها في العشرين، ونديم لم يعد يعمل في الميناء لذلك وضعك في بيت صديقه العربي ليختبيء. بحث عنه كثيراً إلى أن وجدته كان غارقاً في الشرب ورائحته لا تطاق، أخبرته أننا يجب أن نفترق كي لا نخبر آني الشرطة، ولكن آني كانت قد أخبرت الشرطة، فأوصاني بك وقلت له أن يتوقف عن الشرب لأجلك، وبعد يوم قرأت في الجريدة عن عربي ألقى بنفسه أمام سكة الحديد. ولتكفّر آني عن ذنوبها قالت للشرطة أنّ نديم كان جارنا وهي ستكفل بدفنه.

- وذلك القبر الذي بلا اسم له ؟

- نعم ولم تكتب اسمه كي لا يعرف أحد عنه، وعلمت بعدها آني حامل وطلبت مني أن أجهض تسوغيك فلن يكون دما أرمينيا تماماً، لكنني تركت المنزل وأخذتك معي إلى بيت صديقتي الفرنسية وجاءت إلي بعد شهر، وقد حملتها ذنب موت نديم وقد قبلت بناً الثلاثة على أن تسمى أنت اسماً أرمينيا، وعلى أن توضع تسوغيك على اسمي وإنّ لا أب لها.

- كم حملت آني من الذنوب كي تكون أرمينية بحق وكى لا يضيع نسلها !

خرج صحو .. قالت إيليك:

-إنه غاضب جداً

قالت راشيل:

-لا تقلقي سيعود، الحقيقة توجع فقط ولا نستطيع احتمالها.

تاه صحو في الطرقات باحثا عن أبيه في وجوه الغرباء ...

لو تعرف يا أبي كم اشتقت إليك ها هي آتي قد قتلت أمني بعودتك، فالمسافرون
يختلفون عن الموتى بأن المسافرين هناك أمل بعودتهم في أي لحظة، أما الموتى فهم
ثابتون في قبورهم.

دخل حانة بعد أن اشترى قنينة ويسكي، وطلب من عازف البيانو الحزين الذي ينتظر
طيلة النهار أن يلتفت إليه الزبائن ويعطونه بعض القروش ليشتري حسائه ليلا

طلب منه أن يعزف *la bohème* ...

طالما علمه أبوه نديم أن ينتمي للأحياء الفقيرة، للمقاهي والحانات المجهولة، للناس التي
تعود ليلا مرهقة وجيوبها فارغة على أمل أن يغير الرب في يوم ما حياتهم، ويموتون
في نفس المكان ولم يخسروا أحلامهم بعد الموت.

كان يأخذه إلى الأحياء العربية كي لا يصاب بفرح فرنسا، ولكي ينتمي دوما إلى
المهمشين والمتعبين على هذه الأرض، وقد علم ذلك لتسويغك حين كان يصطحبها
أيضا للأحياء العربية لتلمس جراح المهجرين والذين يجددوا وفائهم للموت في كل
صباح.

وجد نفسه في المقبرة أمام قبر سعيد، وقنينة الويسكي في يده، وحمد السماء لأنه لا
يوجد ساعات دوام للمقبرة فالموتى متاحون في أي وقت.

يشرب نخب موت أبيه مع سعيد، يشكو له ألمه، وبأن الوحدة ألم لا يطاق، لا نستطيع
احتماله وحدنا، فنحن لا نحتاج أحدا يزيل عنا وحدتنا بل أن يقاسمنا إياها.
تعال إلي الآن أيها الموت... ستائر الكون مغلقة والأماكن فارغة بانتظارك اقرب
كثيرا إني بحاجة إليك أكثر من أي وقت مضى تعال مرتديا ثياب ممثل يكره الأضواء
لا نخجل.. قبلني في العتمة فسينفضح أمرنا غدا في الضوء !
تعال أيها الموت كم أحتاج إليك أكثر من أي وقت مضى، ها هو أول مسافر قد انضم
إلى قائمة الموتى، لم يبقى إلا سما التي بقيت وحيدة في قائمة المسافرين ولم أعثر بعد على
قبرها.

نهض صحو وصار يمشي بين القبور باحثا عن اسم سما، ربما اختارت اسما مستعارا على
شاهد قبرها، فالأسماء تخدع الأحياء ولا تخدع الموت.
كم هو موجه حين يختفي الذي نحب، وكأنّ الكون غرفة صغيرة يختبئ فيها من نحبهم
ويظنون أننا بمقدورنا أن نجدهم حين نشاق إليهم.
قل لي يا سعيد كيف تشعر وانت وحيد هنا ؟!!!

إني وحيد ولم أحجز بعد قبراً، تخفني هذه الحياة، دائما علي أن أبدأ من الصفر، وأنتهي
بالصفر وأخفي ألي خلف عدسة الكاميرا، إنني ثمل بالألم يا يوسف.
أضحك على راشيل وأمنحها جسدي، وكلّي لامرأة أشتبهها غيابا.
تعبت يا سعيد من البحث عني فيها، بداخلي شيء يقول أنها في مكان وتشتاق إلي.
أليس للعشاق حاسة حب وحاسة ألم كي يحسون ببعضهم.

انهض يا سعبد، أريد أن ينصت لي أحد ما بدون أن يحكم علي. أتدري لماذا أخاف
أن أقيم علاقة مع الله كي لا يحكم علي بعد أن نصبح أصدقاء، الله الذي ينصت إلينا
ثم يعمل بصمت.

لماذا باحت آني بكل شيء قبل رحيلها، لأنها تعرف أن الموتى لا يملكون أسراراً،
وعليهم أن يتخلصوا منها قبل أن يذهبوا للعالم الآخر.
لماذا تركت كل هذا الألم وراءها؟؟

جاء حارس المقبرة وأيقظه في الفجر وأوقف له تاكسي..
حين عاد فتح الباب وهو ثمل كانت إيليك وراشيل بانتظاره
ركضت إليه إيليك

-أين كنت يا روحي؟

ساعدته راشيل على خلع معطفه، وأوصلته إلى الحمام، ووضعت في السرير ثم عادت
إلى الصالون.

قالت راشيل :

-ألا ترغبين بالنوم؟

-لم يبق إلا خمس ساعات على موعد الطائرة.

-إذن سنشرب القهوة معا

أومأت إيليك برأسها

أحضرت راشيل غطائين وكوبتي القهوة.

سألتها إيليك

-لماذا بقيت مع آواديس كل هذه السنوات ولم تتزوجا ؟

ابتسمت راشيل وهي تتحسس بأصابعها كوب القهوة

-كي لا نفترق، ولأن قلبه مع امرأة أخرى.

-من ؟ آواديس؟!!! إنك تمزحين فهو لم يمارس الحب إلا معك

-ليس بالضرورة ولكن قلبه معها منذ كان في الثامنة عشر.

-آه تقصدين سما التي اختفت فجأة..

-نعم

-لكن مضى على ذلك زمن طويل، لا أنكر أنهما كانا في نفس المدرسة في الأردن

كما روى لي نديم لكنه حبه الأول عندما كان صغيرا.

-يقول ميلان كونديرا : كلما امتد الزمن الذي نتركه وراءنا، كلما أصبح الصوت الذي

يدعونا للعودة لا يقاوم.

وهكذا آواديس كلما امتد به العمر يزداد حبه لها شراهة، وكأنّ حبه لا يتربى إلا على

الغياب والحرمان، قد قال لي حين عاد من حيفا أنه أيقن أنها ماتت وعلينا أن نبقي

معا. تظاهرت يومها بأني أصدقه لكن ملامحه تفضحه، حتى أصابعه ترتبك حين يتحدث

عنها وتلك عادة العشاق.

-ولماذا بقيت معه ؟

-لأنه كان معي حين كنت في أمس الحاجة إليه، حين جئت مع والدي إلى فرنسا كي نعالج أُمِّي، وماتت بعد شهر وبعد خمس سنين مات أبي صرت أعزف في الحانات كي أعيش، وهو الذي أمسك بيدي، ربما كان بحاجة لأحد معطوب مثله لا لكي يرمه بل ليتقاسم معه ألمه لا أن يخلصه منه. وكان جسدي مسكّن الآلام لآواديس.
-كم هو مؤلم أن تحبي شخصا، وقلبه وفي لغياب امرأة أخرى، كم هو آواديس غريب الأطوار منذ كان صغيرا.

-وأنت ؟

-ماذا ؟

-كيف أحببت نديم، ولماذا لم تتزوجي بعد نديم، أو تقيمي علاقة ما ؟
-بلى قد أقيمت علاقات عابرة بعد نديم ولا ألوم آواديس، فلم أنسى يوما نديم فالحب الذي يؤلنا لا يموت ولا يتقلص مع الزمن والآآن أنا مع بريفير.
-ألهذا الدرجة أحبته ؟

-أكثر من عشقك لآواديس، أترين وسامته وشقاره، كان أبوه نديم أكثر وسامة منه.
ابتسمت راشيل

-حقا ؟

فتحت إيليك هاتفها، وأررتها صورة نديم التي وضعتها على الشاشة. قالت راشيل :
-معك حق لو التقيت به لما أفلته من يدي
ضحكت إيليك

- كان يحبني كثيرا وأكثر مما أستحق

- كيف تعارفتما ؟

- كان يعمل في الميناء وكنت أذهب مع صديقاتي خلسة عن أمي إلى هناك لنرى الشباب العرب، فأنت تعرفين الفتيات في ذلك العمر.. لم أكمل يومها العشرين، لم يكثرث لوجودنا، واكتفى فقط بتبادل النظرات، اقتربت منه وكان يتحدث الانجليزية بطلاقة ... تعارفنا سريعا بأكثر مما كنت أظن

- وهل فعلتماها؟

- لم نستطع إلا أن نفعلها.

كان يصطحبني إلى الحى العربي حيث تعلمت العربية بالطبع بقيت لغتي العربية مكسرة، ولم أتعقها جيدا عكس تسوغيك، لكنني كنت أريد أن أكون قريبة منه، وأنا أقول له (أحبك) بلغته. حدث كل شيء بسرعة، ونسيت عيني آني المسلطتين دوما عليّ. نسيت كل شيء ومضيت خلفه، لم تعطنا آني الفرصة حتى أن نتزوج، وأن أقول له أن في أحشائي طفل يشبهه أو طفلة تشبهه، وبعد موته قررت آني أن تكفر عن ذنوبها بآواديس لكنها بالطبع لم تعترف بذلك، وكنت أرى نديم بآواديس لذلك تعلقت به كثيرا وربما أكثر من تسوغيك. أقمت علاقات عابرة ثم انشغلت بالدراسة وبآواديس وتسوغيك. إن الجسد إن لم يسقه رجل سيبدل سريعا ولا أستطيع أن أقول أن بريفير عوّضني عن نديم. نهضت راشيل وغمرت إيليك.

-معك حق لذلك أتعلق بآواديس، سأذهب لأوقفه قبل أن تذهبي.

جلس صحو كان عيناه منفخوتين ... قالت له إيليك:

-آوادييس لا تخبر تسوغيك الآن بشي.

-بالطبع لن أخبرها الآن كي تحلم دوما بأن أبيها سيعود في يوم ما.

ضمته إيليك بين ذراعيها

-تعال إليّ يا روحي، متأسفة لأنني سببت لك كل هذه الألم.

وضع رأسه على ركبته. قالت إيليك:

-لطالما كنت طفلي المدلل.

نظر إليها بحنو

-وما زلت.

-حتى باتيل لم تستطع أن تأخذ مكانك في قلبي.

-لماذا فعلت آني كل هذا ؟

-لم أفهمها يوما.

-ولا أنا.

-لا يهم يكفي أن نحبها كما هي، سأنهض لارتداء ثيابي وأذهب إلى المطار.

-سأذهب معك.

-لا يا روحي استرح فلم تتم طوال الليل.

نظرت إيليك إلى باريس من نافذه التاكسي، كانت مبلة بحب متأخر كأرملة تخاف

أن يذبل جسدها، فتغرقه بالمواعيد وبالفرح ذلك الذي نسيته في زحمة الوقت.

(٥٤)

أربد ٢٠١١

خرجت اليوم من صومعتي وجميع الراهبات ظنن أنني اعتزلتهن لأنّ الرب قد طلبني،
لكنني أنهيت في هذا الشهر الجزء الثاني من كتابي (اعترافات راهبة).
أليست الكتابة بالنهاية خلوة مع الله، وتفريغ لأخطائنا وحولتنا على ورق.
كم ساعدتني يا رب في هذا الشهر أن أكتب كل شيء قبل أن يأتي يوم والذي حتما
سيأتي، وسأنسى كل شيء..

حلمت بصحو مرتين الكثيرة ما كتبت عنه أم لأنّ جسده ما زال يسكنني كان يبكي
في زاوية المدرسة، ويناديني فركضت إليه وجلست بقربه ومسكت بيده ومشينا معا
ولم نفترق.

لماذا لم أترك يده، وأنا التي تركتها منذ سنين.

وفي الحلم الثاني كانت أمه إيليك تبسم في وجهي ونحن في مارسيليا، وتمسك بيدي
وتشير لي بأنّ صحو في الصالون، وقد تكرر نفس المشهد حين كنت أذهب إلى صحو
فأجد إيليك هناك وهي تتلعم بالعربية، وكما تتكلم معها أنا وصحو بالفرنسية التي كانت
تدهش من اتقاننا لها وقد كنا نعلمها العربية.

وضعت المخطوط في مغلف وأعطيته لرني.

-خذي هذا للطبع سأنسى أنني أعطيتك إياه، وستذكريني بذلك

- كتبت كل شيء؟

- كل شيء حد الخطيئة.

- سأذهب غدا إلى المطبعة فقد اتصل بي المدير كثيرا يسألني اذا انتهت الكاتبة المجهولة من الجزء الثاني.

- إذن اذهبي بدون ثياب الراهبة

- حسنا

- رنيم

- نعم

- عديني أن تكوني ذا كرتي.

مسكت رنيم يدها

-دوما كنت كذلك وسأظل

-قد اشتقت إلى عمار

- سأتصل به كي يأتي فقد جاء كثيرا وسأل عنك حين كنت في الخلوة.

أومأت سما برأسها وشيعت بنظراتها خطوات رنيم وهي تحمل بيدها خطيئتها.

(٥٥)

أربد ٢٠١١

استيقظت باتيل على صوت طرقات الباب

-maman c'est le voleur qui vient la nuit pour voler les enfants

(ماما إنه السارق الذي يأتي ليلا ليسرق الأطفال)

نهضت تسوغيك ونظرت في ساعتها كانت الواحدة ليلا

-oh seigneur aide-moi, ce n'est pas le temps pour écouter tes conneries

(رباه ساعدني فليس هذا الوقت لسماع تفاهاتك.)

-maman sois prudente, le voleur a peut-etre de la magie, il va te transformer en un morceau de biscuit et il te mangera.

(ماما انتبهي فرمما يكون مع السارق سحر وسيحولك إلى قطعة بسكويت ويأكلك.)

-Batile, tu peux manger un biscuit pour te taire

(باتيل هل تستطيعين أن تأكلي قطعة بسكويت لتصمتي.)

حين ذهبت تسوغيك لحقتها باتيل

-تسوغيك أنا إليك

فتحت الباب بسرعة واحتضنتها.

-ماما ظننت أنك لن تعودى.

-لا أستطيع فعل ذلك.

حملت إيليك باتيل وقالت لها بالأرمنية

-روحي وصغيرتي الشقية.

حين عادت تسوغيك إلى الصالون بعد أن وضعت الحقيبة، اقتربت منها باتيل.

-maman، est-ce possible que le voleur a usurpé l'identité de mamie Iliket et il est venu pour m'enlever?

(ماما هل يعقل أن السارق قد اتحل شخصية جدتي وجاء ليخطفني؟)

كانت إيليك تضحك سرا. قالت لها تسوغيك

-ne t'inquiète pas،celui qui va t'enlever،il te rendra rapidement،il ne supportera ton bavardage،et préférerait se suicider.

(أووف لا تقلقي من سيسرقك، سيعيدك إليّ سريعا فلن يتحمل ثروتك وسيفضل

الانتحار)

قالت إيليك.

-لم يتغير عليك شيء منذ تركتما وكأنكما في نفس السن، تعالا سأعطيكما شيئا.

ذهبوا إلى الغرفة وفتحت إيليك الحقيبة، وأخرجت اللعبة التي تركتها آني..

-قد تركت أني قبل رجليها لكل واحد منا هدية، فردة الحلق هذه لباتيل وهذه الصور والأوراق لتسوغيك.

أخذت باتيل فردة الحلق ووقفت أمام المرأة.

-maman، qu'est-ce que je fais avec une boucle d'oreille ?!!!

(ماما ماذا سأفعل بفردة واحدة ؟!!!!!!)

نهضت تسوغيك وفتحت خزانتها

-j'ai l'autre

(معي الفردة الأخرى)

قالت إيليك

-حقا ؟

أحضرت تسوغيك الفردة الأخرى وجلست مجددا على السرير

-أعطاني إياها كاجين حفيد كوهار.

وضعت تسوغيك زوج الحلق في نفس العلبة

قالت باتيل

-elles sont désormais à moi

(إنهما من الآن لي)

-Malheureusement, elles sont à toi mais je vais te les donner quand tu seras grande mademoiselle Batile et pas maintenant. n'ajoute aucun mot, au lit.

(للأسف إنها لك سيدة باتيل حين تكبرين قليلا سأعطيك إياه، ولا تنفوهي بكلمة واحد هيا عودي إلى السرير.)
تمتت وهي تذهب إلى غرفتها

-tu prends toujours mes cadeaux

(إنك تأخذين دائما هداياي)

-ne bavarde pas, je vais garder le coffre et je ne l'ouvrirai pas, je ne suis pas cendrillon comme toi

(لا تثرثي كثيرا سأخبأه، ولن أفتح العلبة فلست ساندريلا مثلك.)
حين نامت باتيل جلستا في المطبخ بعد أن صنعت تسوغيك فنجاني نسكافيه.
قالت إيليك:

-قد تركت لي آني دفتر مذكراتها إنها لم تمت

قاطعتها تسوغيك

-بل انتحرت أنا من اثرت الشك في عقل آوادييس حين أخبرني كاجين بتاريخ موت كوهار.

-قد شعرت بالندم كما كتبت في مذكراتها لأنها لم تلتق بكوهار.

-ولكن ندمها جاء متأخرا كالعادة.

-كيف رأيت عائلة كوهار ؟

-طيبة جدا ومنهم من يقف معنا في مأساتنا، وكثير منهم لا يعرف أصلا عن المذبحة،

وآني كانت تحقد على شعب وهمي لا يعيش إلا في مخيلتها.

-أريد أن ألتقي بهم.

-ماذا ماما ؟

-لا أريد أن أشعر بالندم كآني

نهضت تسوغيك وقبلت إيليك.

-ماما أنت متأكدة ؟

-بالطبع متأكدة.

-حسننا سأريك صورة عائلتها.

فتحت تسوغيك هاتفها فرحة.

-هذا أبو كاجين وزوجته وهذا الشقي كاجين وزوجته وأخته وطفليته، وواحدة منهما

اسمها كوهار.

-حقا ؟

-نعم لأنه يؤمن أنّ المأساة واحدة، كم أنا سعيدة في هذه اللحظة يا ماما.

-كان معك الحق في معارضتي، والسفر إليهم لم أكن يوما مثلك

اقتربت منها تسوغيك وداعبت خديها.

-أنت أجهل مني بكثير، وأحن من بكثير، ألا يكفي أنك تملكين عينان أرمنيتان
تذوّبان الرجال.

-مم تسوغيك قد كبرت على هذا الكلام، وجسدي بدأ يذبل.

ذهبت كل واحدة إلى سريرها، قالت إيليك:

-و..؟

- تقصدين عمار؟

-أحبه يا ماما كما كنت تحبين أبي نديم، أعشقه أكثر مما تتصورين.

-لا داعي لأن تصفي لي ذلك فعيناك تفضحان كل شيء، وتلمعان حين تتحدثان عنه.

أشارت لها إيليك بالاقتراب منها

-تعالى فقد اشتقت إليك كثيرا

قالت تسوغيك: بنبرة طفولية

-لكنك كنت تحبين دوما آوايس أكثر مني.

-لا أنكر أنني كنت أظهر اهتمامي الشديد به، وكنت أنت دوما عنيدة، وتكتمين

مشاعرك وابتعدت عني وحققت علي حين تزوجت بليفون والآن عدنا صديقتين.

-بالطبع.

نامتا وهما تحتضان بعضهما، وعادت تسوغيك طفلة وعاد حضن أمها وطنها الذي لا

حدود له. لأول مرة حضنتها تسوغيك بهذه القوة أرادت أن تتشبث بها كي لا تترك

أي فراغ للموت الذي يسدّ حين يأتي كل المنافذ كي لا نرى من نحبهم.

الفصل الخامس

(٥٦)

اربد ٢٠١١

عزيزي صحو

أكتب إليك لأني لا أجيد سوى الكتابة إليك حين أخاف أن يسرق الموت أحدا منكم، أنت وعمار وإيليك وباتيل.

كلها أوغل في الحب أفكر في الموت كثيرا.

الحب المتطرف الذي نظل مرتبكين ومترقبين دوما في حضرته.

كم أحب قول (جون كوكتو) عن الحب حين قال : الفعل (يحب) من الصعب تصريفه، فإاضي هذا الفعل ليس سهلا، وحاضره حتمي ومستقبله مشروط بغده.

كم اختصر جون حياتنا بتصريف هذا الفعل حسب أزمنة قلوبنا لذلك كان الموت ملاصقا للحب لأن الموت غامض دوما، ويأتي في أي لحظة وكذلك الحب. كلاهما

لا يراعيان نشرتنا العاطفية وخدوش ألما من حب سابق أو من موت عزيز.

منذ تورطت بعمار وأنا خائفة يا صحو.

أخاف أن أصحو فلا أجده بعد أن بعته لي بريد السماء مغلف بالحب.

إني ألتصق به لأني لا أحو ذاتي بوجوده بل ألتصق به لأني أحس أنني ذرة كونية لا تتكرر لهذا أحبني.

مؤكد أنك تعرف أنّ أُمّي قد عادت، وإني فرحة لأنها تريد أن تتواصل مع عائلة كوهار.

إنّ آني تحرك حياتنا وهي في العالم الآخر، وتغيّر مواقفنا ومشاعرنا اتجاه الأشخاص برسائلها التي تركتها، كيف بمقدورها أن تفعل بنا كل هذا وتغير حياتي وهي خارج الحياة.

لم أتفق يوما معها، ولكنني كنت أحب شخصيتها لأنها كانت متطرفة بحبها وكرهها ومؤمنة حد الحياة بآرائها وبقضيتها.

قد حدثك عن جازي السورية حنين إنّ ابنها يحتاج إلى عملية بأسرع وقت، وأتمنى أن نساعدنا جميعا فكلنا بالنهاية لاجئون بطريقة ما على هذه الأرض.

كن دوما بخير وعلى قيد حب.

وسأبقىك دوما على قيد ورقة.

(٥٧)

اربد ٢٠١١

حين بعثت تسوغيك الرسالة أغلقت الآبياد، وذهبت إلى المسرح حيث كان الطلاب بانتظارها للتخضير لأسبوع الفرنكفونية.

-صباح الخير، سنجلس أولاً على شكل دائرة كي نكون أكثر حميمية.

بعد أن جلسوا، جلست تسوغيك

-حسنًا في كل سنة جميع الدول الناطقة بالفرنسية تخصص أسبوعاً كاملاً للاحتفال باللغة الفرنسية.

رفع أحد الطلاب يده.

-ولماذا لا نحتفل باللغة العربية كما يحتفل الفرنسيون بلغتهم ؟

-لأننا لم ندرك قيمتها بعد، فحين نعشق اللغة وندرك أنها الوحيدة التي تعبر عن هويتنا

وعليها أن نعرف ما يميز كل لغة كي نحباها، فحين لا يوجد تقريباً بالفرنسية إلا كلمة

واحدة لقول (أحبك) نجد أنّ العربية مليئة بكلمات الحب وقد صنفته حسب درجاته

ومراتبه فهناك (الهوى، والصبوة، والشغف، والوجد، والكلف، والعشق، والنجوى،

والشوق، والثوب، والاستكانة، والودّ، والخلّة، والغرام، والهيام، الذي هو أعلى

درجات الحب) ولكل واحدة من هذه الكلمات معنى يعتمد على درجة حبنا للآخر.

كان الجميع ينظر إليها. قالت إحدى الطالبات.

-لأول مرة أسمع معظم هذه الكلمات. قالت تسوغيك.
 -وكيف سنحب لغة ما إذا لم نعرف كيف نحب بها ونحلم بها ونشتم بها ؟
 ضحك الجميع، كان عمار جالسا على كرسي ولم تنتبه تسوغيك إلى قدومه إلى أن نهتها
 إحدى الطالبات، فاحمرّ وجهها فالتفتت إليه ثم نهضت.
 -انهضوا الآن قبل أن نبدأ بحفظ النصوص علينا أن نقوم ببعض التمارين المسرحية
 ستقفز ببطيء، ونأخذ نفسا عميقا ثم نخرج النفس من الأنف.
 بدأ الطلاب بالضحك وهم يفعلون ذلك. قالت تسوغيك: وهي تقفز
 -لا تضحكوا كالأرانب وخذوا الأمر بجدية هيا.
 توقفوا الآن، هذه هي النصوص، على كل واحد أن يحفظ دوره، فلن نبدأ بالتمثيل
 إذا لم تحفظوا أدواركم. نزلت من المسرح، وجلست بالقرب من عمار الذي ظلّ يحدق
 بها:

-إلى ماذا تنظر ؟

-مم..... لا شيء..

-كيف ذلك ؟

-أيجب أن أقول بأني أهدق بك ؟

-غبي.

ابتسم عمار أمام وجهها الغاضب.

-بالتأكيد لا أهدق بالسقف بل بك، وبكلامك عن الحب.

-هل كنت..

-نعم وسمعت جميع درجات الحب التي تحدثت عنها ولا أدري كيف حفظتها.

-صحو من علّني إياها كي أحب العربية

-ولأي درجة تحبيني ؟

-هذا شأنني.

-قولي أيتها الشرشبية اللثيمة.

-مم حدّ الكره الشديد

-ماذا ولكنها ليست من الدرجات التي ذكرتها.

-ولن تكون موجودة فحين تكره أحدا لكثرة ما يشبهك، ولكثرة حبك له فتكرهه لتكون

أنايا لبعض الوقت وتحس بذاتك بعيدا عنه.

-مم حسنا أيتها الفيلسوفة الكرهيني إذن كما تشائين، يبدو أنك تحبين المسرح.

-بالطبع فقد تخصصت بالمسرح، هذا المكان المحدد هو قمة الدهشة، فيمكنك أن

تتمصص على خشبته أيّ دور تريده. أحبه لأنني أستطيع أن أتألم بتطرف وأن أضحك

بتطرف. كيف لا أحب المسرح ونحن بالنهاية ممثلون على خشبة الحياة، منا من يتقن

دوره ومنا من يفشل بذلك كما قال شكسبير: الدنيا مسرح وكل الرجال والنساء ما

هم إلا ممثلون على هذا المسرح.

انتظرو. أخرجت هاتفها ونادت على الطلاب ليأخذوا صورة جماعية. ونشرتها على

الفيس بوك وكتبت : ومعك تعلمت أن أتقن دوري على خشبة الحياة بأن أكون لك بكلي.

(٥٨)

أربد ٢٠١١

في ليلة الميلاد وصل كاجين وزوجته عائشة وابنتيه بعد أن دعتهما إليك ليحتفلوا معا بعيد الميلاد.

كانت باتيل مشغولة مع تسوغيك بتزيين شجرة العيد
قالت باتيل.

-on va finalement décorer le sapin.pourquoi l'a-t-on apporté depuis deux moi si on ne le décorera qu'à la veille de Noel ?!!
(وأخيرا سنزين الشجرة لماذا وضعناها قبل شهرين إن كَّا سنزينها في ليلة الميلاد ؟!!)
قالت تسوغيك:

-Ainsi nos habitudes,pour que le sapin nous porte la bénédiction.c'est ce que dit Annie.

(هكذا هي عادتنا كي تجلب لنا البركة هكذا تقول آني.)

-et c'est quoi la bénédiction ?

(وماذا تعني البركة؟)

-ça veut dire que Jésus restes chez nous, c'est ce qu'Ammar m'a dit

(مم أي يبقى يسوع دوما في بيتنا هكذا قال لي عمار.)

ثم قالت تسوغيك: :

-mettons les guirlandes، le petit ange، le petit sapin

(هات نعلق الشرائط ثم الملاك الصغير ثم شجرة الميلاد الصغيرة.)

-puis je vais mettre mon nom en haut du sapin،celui d'Annie،d'Ilik،de Livon،d'Ammar et le tien et finalement d'Awedis.

ثم سأضع اسمي في أعلى الشجرة ثم اسم جدتي آني، ثم جدتي إيليك ثم أبي ليفون ثم أنت وعمار واخيرا اسم آوادييس).

-Attends، je vais mettre aussi le nom de Kajine et de sa famille

(انتظري سأضع أيضا اسم كاجين وعائلته.)

نظرت إليهم باتيل..كانتا تجلسان على الكنبه

-mais pourquoi ?!! va-t-on mettre tous les noms du monde ?!!

Notre sapin est très petit.

(لماذا؟ لماذا ؟ أسنضع أسماء العالم ؟!! إن شجرتنا صغيرة جدا.)

(باتيل لا تكوني أنانية.)

-D'acc،mais ne mets pas leurs noms à coté de mon nom، en haut du sapin.

(حسنًا ولكن لا تضيي أسماءهم في أعلى الشجرة بجانب اسمي.)

-mon Dieu,aide-moi ... Eh bien Batile,j'écirai ton nom sur
un grand panneau que j'accrocherai sur tous les murs.

(رباه أعني.. حسنًا باتيل سأكتب اسمك على لوحة كبيرة وألصقها على كل الجدران.)

tu te moques de moi ? où est papa noel que tu m'as promis ?-

(أُتسخرين مني وأين بابا نويل الذي وعدتني به؟)

-Quoi ?!!ce n'est pas moi qui t'ai promis c'est Awedis.

(ماذا ؟ أنا التي وعدتك أم آوادييس الذي فعل ذلك؟!!!)

رن جرس الباب.. نهضت باتيل عن الأرض مسرعة.

-je suis sure que c'est papa noel

(ماما مؤكّد أنّه بابا نويل.)

فتحت تسوغيك الباب

-tu as raison

(إنك على حق إسنه بابا نويل)

جاءت بنات كاجين لرؤيته

نظرت إليه تسوغيك فأشار إليها بالصمت

أخرج بابا نويل الهدايا

mettons les cadeaux sous le sapin,Allons-

(هيا فلنضع الهدايا تحت الشجرة)

قالت له تسوغيك همسا

-صحو كم أنا فرحة بقدومك، إنك أجمل هدية في عيد الميلاد.

-تسوغيك لا أستطيع عناقك الآن فسنفسد فرحة باتيل.

جلست باتيل في حضنه.

-j'étais sur que tu viennes car Awedis ne ment jamais

(كنت موقنة أنك ستأتي لأن آواديس لا يكذب أبدا)

قال آواديس

-Bien sur، papa noel t'aime Batile.

(بالطبع باتيل بابا نويل يحبك.)

-tu connais mon nom ?

(أتعرف اسمي !!؟)

-Bien sur، papa noel connaît tous les noms des enfants pour

leur apporter les cadeaux.

(بالطبع، بابا نويل يعرف جميع أسماء الأطفال كي يجلب لهم الهدايا.)

-je vais téléphoner à Awedis pour lui dire que tu es là.

(سأذهب وأتصل بآواديس كي أخبره أنك هنا.)

نظر آواديس إلى تسوغيك وذهب إلى الغرفة، عانقته تسوغيك حين أغلقت الباب.

- كم اشتقت إليك وإلى رائحتك.

- وأنا أيضا يا صغيرتي، أعطني الهاتف سأتصل بها.

بدل آوادييس ثياب بابا نويل، وخرج من الغرفة بعد أن تأكدت تسوغيك أن باتيل ما زالت في الغرفة التي رآته جالسا في الصلاة فهرعت إليه.

- Quand es-tu venu Awedis ? papa noel était là, pourquoi il est parti ?

(آوادييس متى جئت ؟ إن بابا نويل كان هنا لماذا رحل ؟)

- parce qu'il doit donner les cadeaux à tous les enfants sur cette terre.

(لأن عليه أن يوزع الهدايا على جميع الأطفال على هذه الأرض.)

قالت تسوغيك: تعال سأعرفك على كاجين وزوجته.

قال صحو: بالانجليزية

- متأسف لعدم قدرتي على أن أسلم عليكما في البداية كي لا أفسد فرحة باتيل.

ضمته إليك

- لا تقلق حبيبي إنها أجمل مفاجأة في هذا اليوم.

ضمته إليك بقوة.

قالت تسوغيك:

- لماذا لم تأت راشيل معك ؟

- كانت تود ذلك لكن لديها حفلة ربما ستلحق بي.
- جاءت حنين ويدها صحن الكبة الذي حضرته مع تسوغيك صباحا، نكرت تسوغيك صحو الذي صرخ ضاحكا
- يكفي تسوغيك لا أستطيع أن أمدّ يدي لأسلم عليها، ألم تري كيف وضعت يدها على صدرها
- وماذا يعني ذلك؟
- يعني أنّ المرأة في الإسلام لا يجوز أن تصاغ الغرباء.
- قالت تسوغيك: ضاحكة
- ولماذا ؟ أستماسان الحب إن تصافحتما ؟
- قالت حنين
- للرأة جسد مقدس ولا يجوز أن يمسه الغرباء، فهو لزوجها فقط.
- غمز صحو تسوغيك
- أسمعت ؟
- سمعت ولكن لم تعلني ذلك من قبل.
- نسيت ذلك آنسة تسوغيك، ومن ننتظر نحن الآن ؟ إني جائع.
- ننتظر عمار.
- آه حسنا لا أستطيع التكلم عن العشاق
- قالت تسوغيك: وهي تجلس على حافة الكنبه وتداعب شعر صحو

-بالطبع

أشار نحو لآلان للاقتراب منه وأجلسه في حصنه، لامس بيده شعره الناعم

-ما أجمل هذا الأمير الصغير ما اسمك ؟

ظل آلان صامتا فأجابت حنين.

-آلان.

-اسم جميل وماذا يعني ؟

أجابت تسوغيك

-ممم آلان هو اسم كردي يعني حامل الراية في مقدمة الجيش.

-هكذا هي تسوغيك دوما تظن أنني ما زلت أعلمها في بيتنا في مارسيليا حين كانت في

العاشرة، وكانت تتلف للإجابة بالعربية كي أجلب لها هدية.

احتضنته تسوغيك

-إنك ستبقى معلمي الأول.

جاءت إليك

-الطعام جاهز

دق الباب.. قفزت تسوغيك

-إنه عمار

قال نحو: ضاحكا

-انتبهي فقلبك سيتكسر

فتحت الباب كان عمار يحمل الجيتار، احتضنته بقوة وهمست له

- كم تبدو اليوم وسيمًا.

وأزاحت بأصابعها شعره عن عينيه

- كم أحب غمازة عينيك

- انتبهي إنهم ينظرون إلينا

أمسكت بيده

- تعال فخرجك العظيم هنا.

- ماذا ؟

ضحكت تسوغيك

- لماذا احمرّ وجهك كالأطفال ؟!

سلمّ عمار على الجميع

قال صحو:

- كم هذا الكون صغير من قال أننا سنلتقي مجددًا.

قال عمار:

- إنه قدر جميل

مسكت تسوغيك بيده مجددًا

- أنا هو القدر الجميل

ضحك صحو

-ومن قال غير ذلك يا صغيرتي ؟!!!

قال كاجين:

-إننا لا نفهم شيئا

قال صحو:

-لحسن حظك فتسوغيك طفلة مشاكسة

ضحكوا جميعهم وجلسوا على المائدة.

قال صحو: بالإنجليزية

-جميع الأطباق الأرمينية هنا

قالت عائشة:

-إنّ البسطرمة والسجق من الأكلات المشتركة بين الأرمن والأتراك

قال كاجين:

-هذا يدل على أنهما كانا شعب واحد

قال صحو:

-ماذا تعمل ؟

-دكتور في الجامعة أعلم مادة التاريخ وزوجتي أيضا.

-آه فأنتما مثل السلطان سليمان و السلطانة هيام.

ضحكت عائشة

-إني أغار عليه مثلها لكن لا أقتل احدا للاحتفاظ به.

سألت تسوغيك

-ومن هو السلطان سليمان والسلطانة هيام.

قال كاجين:

-إنّ السلطان سليمان كان من أعظم السلاطين في العالم، كان لديه الكثير من الجواري، ولكن حين رأى هيام فقد أحبا حدّ الجنون، وقد أنجبت منه خمسة أولاد ولم ينم من بعدها مع جارية أخرى، وكان الجميع يعرف قصة حبه لها وتعلقه بها وكانت تغار عليه حد الجنون، وقد تخلصت من وزيره الأعظم الذي كان صديقه المقرب ومن ابنه البكر كي يتولى ابنها العرش وكان يكتب لأجلها الأشعار.

قالت تسوغيك:

-كل شيء في الحب مبرر.

حدق بها عمار

-حتى القتل؟؟!!

-بالطبع.. فكيف سأراك مع امرأة أخرى وأبارك لكما؟؟!!

قالت إيليك: لتسوغيك

- Tsougik jan الأكل سيبرد وسنموت من غيرتك، إنّ تسوغيك تغار بشكل مرضي.

همس عمار لتسوغيك

-ماذا قالت أمك في البداية ؟

jan - كلمة أرمينية نضيفها بعد كل كلمة وتعني روجي مثلاً روجي عمار، فالأرمن يحبون استخدام هذه الكلمات لإظهار الحب، والذي نعشقه كحالي مثلاً نستخدم كلمة (kyanq) أي حياتي.

قالت عائشة:

-ونحن أيضاً نستخدم كلمة روجي قبل كل كلمة.

قال كاجين:

-إنّ كوهار كانت تقول لي دائماً وأنا صغير حين أشكو لها من والداي Tsavet tanème، ولم أكن أفهم ما تقول وعرفت بعد سنين أنها جملة أرمينية تقال للأصدقاء بمعنى أستطيع أن أتحمل أو أزيل ألمك أو وجعك.

قال صحو:

-وآني كانت تقول لي ذات الشيء، هل لديك صورة لكوهار؟
-بالطبع.

ناولته كاجين الهاتف، كان يضع صورتها على شاشة هاتفه.

قال صحو:

-آه كم تشبه آني !!!

قالت إيليك

-دعني أرى.

حدقت إيليك بالصورة، وبدت الدموع على أطراف عينيها، اقترب منها صحو وقبلها.

-لا داعي للبكاء الليلة هي للفرح.

قالت إيليك

-معك حق علينا أن نكون سعداء.

مسحت دموعها ووزعت الصحن

-حسنًا سأشرح لكم عن الأطباق الأرمينية، هذا هو الحمل يوضع في الفرن ويأخذ

طعم ورق العنب، ويسمى الحمل المشوي (كوران). وهذه هي الدولما وهي محشي

ورق العنب بالبرغل.

قال عمار: وهو يتذوق طعمها

-ولماذا اسمها الدولما ؟

-لأنّ الأرمن كانوا يقدسون العنب منذ أيام سيدنا نوح. فلنكل وهذه الهريسة.

غمز صحو عمار.

-لا تظن أن هذه الحلوى التي تباع على الطرقات.

قالت إيليك: باللهجة التي يتكلم بها صحو.

-هي يفهمني وبتعرف إنو هادا منو هريسة حلو

ضحك صحو أمام دهشة عمار

همست له تسوغيك

-لا تتلق فأمي تعرف أنك شاب ولكن الأرمينية عكس العربية في المذكر والمؤنث

فالذكر بالعربية مؤنث بالأرمينية، والمؤنث بالعربية مذكر بالأرمينية.

قال عمار: وهو يضحك

-أظن من الأفضل أن تعود للإنجليزية

شرح صحو لكاجين و ماذا قالت إيليك: فتبادلا الضحك

قالت إيليك:

-هيا سنعود للهريسة هي أنواع لحوم مختلفة مثل البقر والضأن يهرس اللحم مع الدقيق والقمح ويقدم في الأعياد الأرمنية، وهذه الأكلة من التراث ولم تنقرض مثلها مثل الوجبة التي بجانب كاجين التي تسمى القرع العسلي المحشو بالأرز المخلوط بالزبيب، وهذه الوجبة لها مغزى خاص لأنّ الأرز يرمز إلى البشر والقرع العسلي يرمز إلى الكرة الارضية والزبيب يمثل المؤمنين ومعنى الوجبة أنها حلقة الوصل بين الشعوب لنشر المحبة.

قالت عائشة: :

-إنها لذيذة وحديثك الروحاني عن كل وجبة يجعلها أطيب.

قالت تسوغيك.

-كفى يا عائشة فأمي قد احمرت وجنتها سأكمل عنها ذلك الطبق الذي بجانب صحو هو (كاش كا) وهي أكلة تقدم في عيد رأس السنة الأرمنية وليس الآن اي في ١١ اغسطس، ولكن صنعها أُمي لأجلكم اليوم.

قالت حنين بالعربية

-إنّ هذه الوجبة كان يصنعها أرمن حلب من لحوم الهريسة التي تحدثت عنها إليك
وكنت أدهش أنّ كل نوع من اللحم يقدم على حدة
ابتسمت تسوغيك

-عندما كنت صغيرة سألت آني ذات السؤال أجابتي بأن المغزى من عدم خلط هذه
للحوم على بعضها يؤدي إلى مرور السنة بسلام.
قال عمار:

- لكل وجبة أرمنية مغزى فإنّ كما سنطبق ذلك على الأكلات العربية فلن ننتهي.
قال صحو:

-المهم أن تتلذذ بالطعم
قرصته تسوغيك

-لا تقل هذا حتما نستطيع أن نقول أنّ معظم الوجبات الأرمنية لها مناسبة.
قال كاجين:

-حقا فقد روت لي كوهار مؤخرا أنّ في الافراح الأرمنية التقليدية تضع العروس
نوعا من الخبز على كتفها وإذا وقع من على كتفها تصبح غير صالحة للزواج.
قالت إليك:

-ويصحب هذا الخبز أيضا العسل يوضع على الكتف كي تصبح حياتهم كلها عسل
في عسل.
ضحك صحو

-بهذه الطريقة ستصبح الفتيات جميعهن غير صالحات للزواج.
نهضوا عن المائدة وجلسوا في غرفة الضيوف وذهبت حنين وتسويك إلى المطبخ
لصنع القهوة .

-ما بك حنين ثقي بي سيكون كل شيء على ما يرام.
-إنّ صحته تزداد سوءا وحين أسمع سعاله في الليل أغرق بالبكاء ولا أستطيع النوم.
ضمّتها تسويك

-قد كلمت صحو ووعدني بأن يجد حلا،إنهم يقبلون الآن اللاجئين السوريين في أوروبا
ويساعدونهم ثقي بي حنين هيا لنعود وننضم إليهم.

سأل كاجين صحو

-ما مجال عملك ؟

-في البداية درست التمريض لأحقق رغبة آني ثم درست الإخراج.

قالت تسويك

-إنه لا يستطيع كعاداته أن يعرف عن نفسه، آواديس مخرج مشهور حصل على الجائزة
الأولى لأفضل فيلم العام لسنوات عدة، وكان أول فيلم الذي أضاء له الشهرة هو الفيلم
الذي يروي معاناة الأرمن.

قال صحو:

-إنك تبالغين

قال عمار:

-بلى هي الحقيقية وأفلامه تدرّس في جامعتنا.

قال صحو: :

-ربما هو تعبيرنا الصادق عن الألم هو الذي يجعلنا مشهورين لهذا حين اخترت أن أخرج فيلم عن الأرمن قررت أن أعيش مأساة آني.

قالت عائشة:

-وعلينا أن لا ننسى أننا نملك ذاكرة ألم مشتركة.

قال إيليك باهتمام.

-وكيف علينا أن نتحدث عن ألم واحد إذ ما زال الجرح ينزف، ألم يقتل المثقف الأرمني هارنت دينك أمام صحيفته في اسطنبول عام ٢٠٠٧ ؟!!!

قالت تسوغيك:

-ماما الليلة هي ليلة العيد !

ابتسمت عائشة

-دعها فجرحنا واحد ولن يندمل إلا إذا فتحنا الجرح وتحدثنا عنه، قد شاهدت فيلم اسمه (ذاكرة الألم المشترك بين الأرمن والأتراك) وسأحدثك عن أهم الوثائق الذي جاءت به ويمكنك مشاهدته ومما جاء به أنّ هارنت دينك المثقف الأرمني كان يدعو دوماً إلى الحوار المشترك بين الأرمن والأتراك وقال : إنّ الأرمن يعيشون صدمة كبرى ضد الأتراك، والأتراك يعانون من جنون العظمة حيال الأرمن، وكلانا نعاني

من حالة مرضية، فمن سيعالجنا من تلك الحالة ؟ قرار مجلس الشيوخ الفرنسي أم
الأمريكي ؟! من هو طبيينا ؟

إنّ الأرمن هم أطباء الأتراك، والأتراك هم أطباء الأرمن، ولا طيب ولا دواء
ولا وصفة خارج هذا الإطار. والوصفة هي الحوار.

قال كاجين:

-إنّ هارنت كان رمزاً للتغيير ومعروفاً بدفاعه عن الحوار التركي الأرمني.

قالت إيليك

-ليوجد بالنهاية مقتولا !

قالت عائشة:

-قد شارك مئات الآلاف من المواطنين الأتراك في مراسم جنازته ورفعوا شعار: كلنا
هارنت دينك، كلنا أرمن.

قالت إيليك:

-ولماذا القتل إلى الآن ؟!!

قال صحو:

-لأننا لا نحب أنفسنا فكيف سنحب الآخر !

قالت حنين

-وإنّ ما حدث مع الأرمن يحدث الآن معنا نحن السوريون مع اختلاف الظروف.

قال عمار:

-حقا وقد حدث من قبل للفلسطينيين وكأنّ القتل أصبح دينا للجميع.

قالت إيليك:

-ما ذنب كوهار وآني أن يفترقا !!!

قالت حنين

-وما ذنب زوجي أن يقتل وكأننا أصبحنا كلنا متساويين بالقتل.

اقتربت عائشة من إيليك وقبلتها

-أحس بألمك كأنه ألمي مع أني تركية، أتعلمين أنّ أغلب الأتراك لا يعلمون عن هذه المذابح. سأقول لك شيئا كي لا أظلم جميع الأتراك فمنهم من وقف بجانب الأرمن كما جاء بالفيلم فعام ١٩١٩ القائد الأرمني الذي ترأس الوفد الأرمني في مؤتمر السلام الذي انعقد في باريس قد خط رسالة قال فيها أنّ خسائر الأتراك لم تكن تقلّ عن خسائر الأرمن، فالأوبئة والأمراض في وقت المذبحة لم تكن تميز بين السكان المسلمين الأتراك أو الأرمن.

قال كاجين:

-هناك الكثير من الأتراك قد ساعدوا الأرمن في علم ١٩١٥ وقد عوقبوا، فحسين نسيني قائم مقام محافظة ليجا في ديار بكر قد قتل بسبب محاولته حماية ممتلكات الأرمن ولاحتجاجاته على الأحداث الغير مرغوب فيها التي وقعت أثناء عملية التهجير. وقد قرر والي كوتاهيا عدم تهجير الأرمن، ولم يتم تهجير أي أسرة منهم، وقد تم استدعائه إلى اسطنبول لإبذاره.

الأرمن الكاثوليك والبروتستانت والعاملون في الجيش لم يشملهم التهجير وموظفو الدولة في الأقاليم البعيدة، وأما اليتامى والأرامل قد تم إيواءهم في دور الأيتام وفي القرى المجاورة ولم يتم تهجير التجار الأرمن الحرفيين.

قالت تسوغيك:

-صحيح لي صديقة تركية تعرفت عليها قبل شهر عن طريق الفيس بوك قالت لي أنّ أمها مسلمة وأبوها أرمني كان يعمل طحانا، وقد نجا من بين الذين كانوا يساقون إلى التهجير ذلك لأنّ الأرمن من الحرفيين الذين كانوا يلعبون دورا هاما في تلك الفترة، الحرفيون الأرمن لم يتم تهجيرهم فقد كان المجتمع ينقسم إلى حرفيين متخصصين وغير متخصصين وجدها قد نجا لأنه كان طحانا.

قالت عائشة:

-بالضبط فالأرمن كانوا وما زالوا مشهورين بالأعمال الحرفية وإتقانهم لها، وأيضا والي علي فائق قد ساعد الأرمن باسم الإنسانية وجلال بيتك والي قونيا والتي كانت المنطقة الأولى التي أتى إليها الأرمن المهجرون من غرب الأناضول لنقلهم إلى سوريا، وكان جلال بيك والسكان يقدمون الأكل والمساعدة للمهجرين الأرمن ولم يقم جلال بيك بتنفيذ قرار التهجير بل قام بتوزيع الأرمن على القرى المجاورة.

قال كاجين:

-روى لي جدي أنّ أبوه كان له جار تركي غني وقد خبأ الأرمن في شقة له بدون مقابل لمدة سنة وكان يؤمّن لهم الطعام والشراب.

قالت إيليك:

-هل سمحت كوهار من قتلوا عائلتها قبل أن تموت ؟

ابتسم كاجين

-حين كنت أذهب معها سرا إلى الكنيسة سألتها نفس السؤال لكنها كانت تظل صامته، وهي على فراش الموت سألتها ذات السؤال فهزت رأسها بالإيجاب ومسكت بيدها. ماتت براحة.

تهتد إيليك

-ربما لو كانت آني بيننا لقبليكما كما قبلت صحو من قبل مع أنها قد اختارت له اسما أرمينيا وأرادت منه أن يكون أرمينيا بصفاته لكن صحو ظل كما هو وأحبته بالنهاية كما هو. إن آني قد قتلت نفسها فقد تدمت لأنها لم تلتقي بكوهار، ولا أظن أنها كانت ستسامح كما فعلت كوهار، فقد كانت تدعو على من قتل عائلتها مع كل لقمة تأكلها وبعد كل كلمة تنفوه بها كانت تحيا لتركه أعدائها. لا أستطيع أن أكون مثلها، كنت أفعل ذلك لإرضائها وقد فعلت ما لم تجرؤ هي على فعله. شكراً لأنكما قبلتما المجيء..

قال كاجين:

-الحياة قصيرة

قالت إيليك:

-حقا

نهضت تسوغيك

-اكتفيت الآن يا أمي ... سنفرح الآن

أحضرت الجيتار وأعطته لعمار

-ماذا سنغني ؟

جاءت باتيل وآلان وابتا كاجين بعد أن انتهوا من اللعب

قالت باتيل

-je veux chanter pour papa noel

(أريد الغناء لبابا نويل)

قال عمار:

-Tu connais cette chanson M petit papa noel ?

(أعرفين M petit papa Noël ؟)

قالت وهي تبعد شعرها عن عينيها

-آه

قالت تسوغيك

-الآن ستنفخ نفسها لا ينقصها إلا الغرور

ابتسم صحو

-viens ma belle pour chanter ensemble

(تعال يا حلوتي إلي لنغني معا)

جلست باتيل في حضنه وهي ترفع حاجبيها

قالت تسوغيك: لصحو بالعربية

-انظر كيف تغيطني

قالت باتيل

-Tu ne pas m'énervé quand tu parles en arabe car je connais maintenant quelques mots en arabe et Awedis va m'apprendre aussi d'avantage .

(لن تثيريني لأنك تتكلمين بالعربية فأعرف الآن بضع كلمات وآوايس سيعلمني أكثر)

داعب صحو خديها

-Bien sur ma belle, chantons car Ammar nous attend avec sa guitare

(بالطبع يا حلوتي فلنغني الآن فعمار ينتظر مع جيتاره)

-Ammar m'aime, il est mon meilleur ami

(عمار يحبني وهو صديقي المفضل)

ابتسم عمار

-chantons ensemble mon amie

(فلنغني معا يا صديقتي)

جلست تسوغيك بجانب إيليك ووضعت رأسها على كتفها وبدأو بالغناء صحو وعمار
وباتيل وتسوغيك وإيليك

Petit papa Noël

Quand tu descendras du ciel

Avec des jouets par milliers

N'oublie pas mon petit soulie.....

قالت تسوغيك:

-نريد أن نسمع شيئاً في التركية

قال كاجين:

-ستصابون بجلطة إذا سمعتم صوتي..عائشة صوتها جميل

احمر وجه عائشة بخجلا، أصلحت منديلها الملون الذي يعكس جمالا على بشرتها البيضاء

-حسننا سأغني أغنية كانت أول رسالة بعثتها لكاجين

قالت تسوغيك: لكاجين

-أما زلت تحتفظ بها ؟

غمزها كاجين

-بالطبع لا

قالت عائشة:

-ماذا ؟

-أمرح فقط

بدأت عائشة بالغناء والجميع ينصت إليها بدون أن يفهموا الكلمات وقد حاولت ترجمة معناها للإنجليزية

نحن مثل نصفي تفاحة

نصف أنت والآخر أنا

تعال نبني عالما جديدا معا

نحن الإثنين فقط

دع طفلين صغيرين ولد وبنت يلعبان هناك

غزالان صغيران

واحد أنت والآخر أنا

عندليبان في قفص

واحد أنت والآخر أنا.

صرخت تسوغيك

-ما أجمل الكلمات

صحو:

-حقا إنها جميلة.

نهضت حنين ولحقتها تسوغيك

-ابقي قليلا

-على آلان أن يشرب الدواء وعليه أن يأخذ الدواء بموعده قد اهترأ جسده لكثرة الأدوية

-سيكون غدا أجمل

-إن شاء الله.

في الساعة الواحدة نهض عمار.. قال له صحو

-تعال غدا وتناول الفطور معنا

-يسعدني ذلك

ضحكت تسوغيك

-وأنا كذلك

وضع ذراعه على كتفها وهما يودعان عمار

قال له صحو

-قد أخذت صغيرتي مني

-إنها مشاغبة

جاءت إيليك وهمست لتسوغيك بالأرمينية

-إنه وسيم لا بأس به

قالت تسوغيك: لعمار وهي تضحك

-أمي تقول بأنك وسيم لا بأس بك وكأنها في سوق الخضار

قال عمار لصحو:

-أرأيت شرشيل ؟

قالت تسوغيك:

-سنفور غبي

قال صحو:

-لا أفضل هذا ولا ذاك أفضل بيل وسباستيان.

قالت إيليك:

-أنت حلوة

قالت تسوغيك

-ماما حلو وليس حلوة

قال عمار:

-اتركيها تقول ما تشاء المهم أني أعجبته

قالت تسوغيك لصحو:

-إنّ عمار يكتب الشعر

-حقا ؟

-خرشات

-أحضر غدا تلك الخرشات

-حسنا تصبحون على خير

قال صحو:

-وأنت بخير

حين أغلق صو الباب همس لتسوغيك

-حقا إنه وسيم

-يشبهك في شبابك وإلى الآن طبعا

قبلته تسوغيك

-ستظل عندي أجمل شاب.

حين نامت باتيل أحضرت إليك الويسكي كانت الساعة الثانية صباحا.

قالت إليك

-تسوغيك ألن تجربيه مرة في حياتك؟

-قد جربت مرة السجائر وأجبرت على الزواج بليفون.

قال صحو:

-ها هي قد بدأت وكيف ستصمت الآن؟!

التصقت تسوغيك به وشدت أذنه

-كنت ترجوني أن أكتب لك كل شيء بالتفصيل

-لتعليمك العربية فقط

-ولأني كنت أخاف أن تموت ...

-اذهي وضعي أغنية avec le temps (مع الزمن)

نهضت تسوغيك

-ولماذا كل هذا الحزن ؟

صبّت إيليك كأسين وأعطت واحدا لصحو

قال صحو:

-الحزن فتيل الفرح وموقد للذكريات

قالت إيليك

-آواديس لماذا لم تتزوج بعد من راشيل مع أنك لم تقم علاقة مع غيرها ؟

-لم تسأليني من قبل هذا السؤال

-ربما لأنني أشبهك فأنا أقيم علاقة منذ زمن مع بريفير، إنّ بريفير يريد ذلك بشدة.

قالت تسوغيك

-ولماذا ترفضين؟

-أخاف أن أخون نديم

ضحكت تسوغيك بسخرية

-ألم تخونيه بعد حين تنامين مع رجل آخر؟!!!

-تسوغيك إنّ ذلك أمر يصعب عليك فهمه، فحين تسلين جسدك لرجل هذا لا يعني

بالضرورة أنّ قلبك معه.

قال صحو: وهو يصّب كأسا آخر

-بالضبط هذا ما يحدث معي مع راشيل

قالت تسوغيك

-ألدك إذن امرأة أخرى تملك قلبك كما تقول ماما ؟!!!

-ليس بالضرورة فللجسد مزاجيته وللقلب مزاجيته أيضا.

قالت تسوغيك

-لا أؤمن بذلك فقلبي وجسدي يجب أن يكونا ملك رجل واحد، أحفظ حدود

جسده وقلبه عن ظهر حب

نهضت إيليك

- لو أستطيع أن أكون مثلك ... سأذهب للنوم

قال صحو:

-ولماذا لم يأت بريفير ليقضي العيد معنا ؟

-قال إنه يريد أن يقضيه مع أمه الوحيدة في إيطاليا أو ربما مع امرأة أخرى.

قالت تسوغيك

-أسمحين له بذلك ؟

قالت إيليك: وهي في منتصف الممر

-قلت لك أن قلبي ليس معه، صحو إن راشيل تحبك

كان صوت إيليك يردد مع الأغنية pour qu'on se traîne comme traîne

le chien

تهد صحو وهو يردد كلمات الأغنية

avec le temps va tout s'en va l'autre qu'on adorait qu'on -
 cherchait sous la pluie

أطفأت تسويك النور وتركنا نورا خافتا وعادت ووضعت رأسها على صدره.

-اشتقت إليك كثيرا

ضمها صحو إليه أكثر

-وأنا أيضا

-لماذا أشعر أنك دوما حزين ؟

ابتسم صحو

-أنا ؟

-آه وتخفيه دوما بضحكة مواربة.

-ما هو تعريف الفرح بالنسبة لديك، وكيف بمقدورنا أن ننتمي لفريق السعداء ؟

-أن أبقى مع من أحب، أن أفعل كل ما أريده، التفاصيل الصغيرة هي حياتنا وهي

التي تجعلنا سعداء.

قال صحو:

-بالنسبة لي الألم هو السعادة بمعنى أن أتألم بمن أحب.

-إنك متطرف

-والفرح الزائد تطرف أيضا.

-وما الذي يجعلك متطرف بألمك لهذه الدرجة ؟

- غياب أبي مبكرا و.....

- وماذا هل أحبيت وأنت صغير ؟

- بالطبع

- ما اسمها ؟

- سما

- هل تتواصل معها الآن ؟

- لا لا أستطيع ذلك

- ولماذا ؟

- لأنني لا أعرف أين هي، اختفت فجأة، وما زلت إلى الآن أبحث عنها بعد كل هذه السنوات.

- لهذا لم تتزوج راشيل ؟

- ولا أحد يعرف السبب سوى أنت وراشيل.

- وكيف اختفت ؟

- لا أعرف وكأنها ذابت في هذا الكون.

- الآن أفهم ألمك إنك أحبيتها حد ألم فقدانها.

- أليديك صورة لها ؟

- وهي في سن السابعة عشر، أتذكر قولاً لروز في فيلم التيتانك حين كانت تتحدث عن

جاك، وينطبق الآن على سما : كان يوجد شاب اسمه جاك وأنقذني بكل قواه، لا

أملك حتى صورة له، لا يوجد الآن إلا في ذاكرتي.
وأقول مثل روز: كان يوجد فتاة اسمها سما أنقذت قلبي من الغرق، ولا أملك حتى صورة لها، لا توجد الآن إلا في ذاكرتي.

- الذين نحبهم بعمق تنتفسهم في كل لحظة، إنهم لا مرثيون للآخرين، وبالنسبة لنا يعيشون في داخلنا ويمارسون معنا أدق تفاصيلينا، يستيقظون معنا ويأكلون معنا، ويحلمون معنا ويغارون إن أحببنا في غيابهم غيرهم، وكأنهم في غيابهم الوهمي أقوى.
-إني أحس حقاً بذلك.

-وكيف تتقبل راشيل ذلك ؟

-إنها تغار من حيي لامرأة ليست موجودة إلا في ذاكرتي، فتقول لي لو أني أحب امرأة غيرها لتنافست معها، فكيف ستحارب امرأة ليس موجودة.
-أتعرف مدى حزن امرأة عاشقة تفضل عليها امرأة في ذاكرتك !
-تعالى معي سأريك شيئاً، تناول علاقة مفاتيحه من على الطاولة، وصعدوا إلى الشقة المقابلة لشقة حنين.

قالت تسوغيك

-لماذا جئنا إلى هنا إنها مغلقة ؟

-انتظري فمعي المفتاح.

-كيف ذلك ؟

فتح صحو باب الشقة وأشعل الضوء.

- كنت أسكن هنا أنا وأبي وجدتي قبل أن تتوفى جدتي، وحين سافرنا كان أبي يدفع إيجارها كل شهر وفعلت أنا الشيء ذاته.

-إنك شرير لماذا لم تقل لي ذلك من قبل؟

-لأنني لو قلت لك سيعمل خيالك الروائي، وستنبش كل زاوية فيها وستسكنين فيها وترمين كل هذا الأثاث.

كان الأثاث مغطا بالشراشف البيضاء، نظرت تسوغيك إلى الصورة المعلقة على الحائط في الصالون.

- أظن أنّ الذي في الصورة جدتي وأبي وأنت، كم كان أبي وسيما ليس كالصورة التي كانت مع أمي التي يبدو فيها شاحبا.الآن أدرك سبب تعلق أمي بك إنك جميل مثله لو التقيت به لما أفلتته من يدي.

ضحك صحو.

-لست وحدك أذكر أنّ جميع الفتيات كان يلاحقنه حين كان يأخذني في وقت فراغه من المدرسة.

دخل صحو إلى غرفة أخرى، وأخرج من تحت السرير صندوقا وعاد إلى الصالون.

-صحو ما هذا؟ افتحه بسرعة وكأنني في رواية.

-تمهلي تسوغيك

-هذا الصندوق يحتوي على جميع ذكرياتي، قبل أن تغادر إلى فرنسا طلبت من أبي أن يشتري لي هذا الصندوق ووضعت فيه كل أوراقي. انظري هذه أوراق امتحاناتي

وأنا في الصف السادس وهذا امتحان اللغة الفرنسية.

قرأت تسوغيك في أعلى الورقة

-مدرسة الراهبات الوردية اريد / امتحان اللغة الفرنسية / التاريخ ١٣ / ٤ / ١٩٧٥...-

كنت طالبا مجد جميع علاماتك شبه كاملة

-بالطبع فلست وحدك المتفوقة

-أعرف هذه المدرسة وقد ذهبت إليها مع عمار لتعليم الأطفال اللاجئين.

-حقا كم أحب زيارتها بعد كل هذه السنين. انظري هذه صورة تخرجنا، وهذه

الصورة تجمع الطلاب الذي نجحوا في امتحان الـ Delf b2. كآ في الصف العاشر.

-من هذه ؟

-إنها سما

-حقا إنها جميلة بجديلتها، هناك راهبة في المدرسة تحمل الاسم ذاته.

-حقا ؟

ضحكت تسوغيك

-ليست بالطبع حبيبتك فلماذا ستعود من فرنسا إلى نفس المدرسة ولا تشبه تلك التي

في الصورة.

-أريد زيارتها.

-آه صحو إنك مجنون حسنا سأخبر عمار أظن أنهم يمنعون أي شخص بالدخول إلى مبنى

الراهبات إلا بإذن.

-صحو

.....-

-صحو أما زلت تفكر بتلك الراهبة ؟

-لا لا هيا لنعود

-سأخذ صورة أبي.

-حسنا ... تسوغيك قد قلت لك أنّ ليفون يريد أن يرى باتيل.

- لا أستطيع الابتعاد عنها لشهر

- لا تكوني حمقاء فهي ابنته أيضا

- ولماذا تذكرني بذلك ؟

- ستذهب مع إيليك

- حسنا

- ألا يكفي أنه يعتني بقطك

- حقا ألم يعطي لا يكو لراشيل؟

-لا فقد قرر أن يعتني بلا يكو بنفسه إنه سمين الآن.

-مؤكد إنه مشتاق إلي.

-قد التقطت له صورة

-أصبحت تسوغيك تحديق بالصورة وتحدث القط.

- عزيزي لا يكو، هل يعتني بك ليفون جيداً، فهو لا يعتني إلا بتلاميذه الأرمن في مدارس الأحد.

ضحك صحو

- كم أنت مسلية يا تسوغيك سأذهب للنوم إنها الرابعة فجراً.

نظرت تسوغيك في عينيه

- لماذا كل هذا الحزن حسناً سأكلم اليوم عمار عندما يأتي للافطار كي نزور الراهبة.

قبلها صحو

- أريد أن أنام بجانبك كالسابق

- حسناً تعالي

- ماذا ستغني لي كي أنام ؟

- لا شيء سننام فقط ألا تري عيني كيف تغمضان ؟!!!!

فتحت تسوغيك جفنه

- صحو

- أيتها المشاكسة أرغب بالنوم، الحمد لله أنك وجدت عمار.

- هيا نامي كي ينام الحمام

ويصلي النمل ليجمع قوت الشتاء

نامي يا صغيرتي على كتف غيمة

وتغطي بسنابل القمح

نامي كي تستيقظي كالعصافير.

نظر إليها فوجدها نائمة.

كان ضوء خافت يضيئ صدره مُدْ قالت له تسوغيك أنّ راهبة اسمها سما في مدرسة
الراهبات.

ابتسم وهو يتذكر وجه سما وهي تقلد بطلّة في فيلم قد شاهداه معا.

-أأستطيع البقاء لحظة ؟

وقد لعب هو دور البطل فأجابها :

-تستطيعين البقاء للأبد.

(٥٩)

أربد ٢٠١١

الفجر هو النفس الأول ليومنا ...

هو الولادة الأولى للحياة، الفجر يولد من رحم الليل كما الأفراح تولد من رحم
الآلام، وكما يولد الحب من رحم الفراق والغياب.

يستنشق صحو الهواء البارد وهو على الشرفة فلم يستطع النوم.
أمام فنجان القهوة الذي يحتسيه بشوق عاشق، تمتد يده إلى الراديو، فيروز تغني لعاشقين
نسيهما الكون.

وحدن يبقو مثل زهر البيلسان

وحدهن يقطفو وراق الزمان

يسكرو الغابي بيضلهن مثل الشتي يدقو على بوابي.

عاشقان على أطراف الكون يلهمان الندى ولا يملكان إلا اللحظة.

يقلب ذكرياته التي ما هي إلا ألبوم أفلام كثيرة، وحيوات خلف عدسة الكاميرا.
يتذكر حين كان يتفق مع سما أن يشاهدا يوم الخميس فيلما ويأتیان يوم السبت إلى
المدرسة وقد دونا الجمل التي أعجبتهما من الفيلم حتى أنمخت ذاكرته بذاكرة الأفلام.
أتذكرين يا سما فيلم "entre deux rives" يوم انتقيت أجمل جملة منه : الحياة
ليست كغابا، الحياة لحظة وانتهت "

وحياي لحظة منذ عرفتك لحظة للفرح الذي ذاب كشمعة تصلي وقد ذابت لكثرة
ما حملوها من النذور.

أشتاقك كما يشواق الندى لقم الوردة، كما يشواق اليتيم لحضن أمه الذي لا يحفظ حتى
اسمها، كما اشتياق المقاعد إلى العشاق كما تشواق أناي إلى أناك.

وقفت تسوغيك أمام باب الشرفة ويدها جاكيت صوف.. قبلته
-ارتديه ستبرد، كم اشتقت أن أحتمي فيروز معك.

-منذ متى وأنت جالس هنا ؟

-لم أتم وأشعر بالجوع، اتصلي بعمار كي يجلب معه حُصّ وفلافل، اشتقت لأيام
المدرسة يوم كّا نشتري السندويشات من مطعم أحمد الفلافل.

-كم الساعة الآن ؟

-الثامنة والنصف.

-أليس الوقت مبكرا ؟

-لا فلدينا مشوار مهم.

-آه لا تنسى أبدا سأحضر هاتفني

حين عادت تسوغيك

-قد اتصل بي قبل خمس دقائق

-تسوغيك أنا قادم إليكم هل أحضر معي شيئا

-مخرجك العظيم يريد حُصّ وفلافل

-حسنا هل لديك شيء اليوم ؟

-لا

-أريد أن نزور معا معلمتي سما

-.....

-ماذا بك تسوغيك ؟

-سأخبرك حين تجيء.

أنهت المكالمّة

-يريد زيارة الراهبة اليوم ويريدني أن أذهب معه

-ممتاز فلتخبريه أنني سأذهب معكما.

-ولكن صحو

-ماذا ؟

-أخاف أن لا تكون هي.

-أريد فقط زيارة المدرسة.

-إني أعرفك جيدا

جاءت إيليك مترنحة جلست على الكرسي متعبة.

-أشعر بالدوار مع أنني لم أشرب كثيرا هو بريفير من سبّب لي الصداع فقد اتصل بي

وهو سكران، ويريد أن يأتي إلى بيتي لنمارس الحب معا.

سألها تسوغيك وهي تضحك

-وماذا أجبتة ؟

-أعطني سيجارة أولاً.

ناولتها تسوغيك سيجارة

-قلت له أني سأركب الطائرة وآتي إليه.

التفت صحو

-mon amie s'est réveillée

(ها هي صديقتي قد استيقظت.)

كانت باتيل تفرك عيناها بيدها، جلست في حضن صحو وبدأت تلعب بأذنه.

-Tu ressemble vraiment à l'ours en peluche que maman m'a
acheté

(حقاً إنك تشبه الدب الذي اشتريته لي ماما)

قالت تسوغيك

-لأول مرة تنادييني ماما بهذه الطريقة

-maman écoute, j'ai revé hier que je portais une robe comme
cendrillon et tu étais la fée qui m'a offert les boucles d'oreilles
de mamie Annie.

(ماما اسمعي قد حلمت البارحة بأني أرتدي فستانا كسندريلا، وكنت أنت الساحرة

التي ألبستني قرطي جدتي آني.)

ضحكت إيليك سرا

قال صحو

-Et après ?

(آه وماذا حصل بعد ؟)

قالت تسوغيك:

-je vais continuer، et les deux filles de Kajine étaient des
bonnes chez toi، je ne serai pas séduite par tes rêves، je ne te
donnerai pas les boucles d'oreilles.

(أنا سأكل حللها، وكانت ابنتا كاجين خادمتين لديك، لن تنطلي عليّ أحلامك فلن
أعطيك القرطين الآن.)

خبئت باتيل وجهها في صدر صحو

قالت لها إيليك

-ne sois pas triste ma chérie، j'ai entendu que tu apprends
l'arabe، c'est vrai ?

(لا تحزني يا حلوتي، سمعت أنك تتعلمين العربية، حقا ؟)

هزت باتيل رأسها

-oui، je travaille dur

(نعم، إني اعمل بجِد)

-Et on reprend l'arménien

(وسنكمل معا دروس الأرمينية)

فتحت تسوغيك الباب لعمار

-آه ما ألد رائحة الفلافل !

اقترب منها عمار

- كم أنت جميلة حينما تستيقظين من النوم إنك تفيضين أنوثة.

-وأنا أراك في عين قلبي في كل الأوقات .

أمسكت بيده

-تعال

مشيا ووضعت رأسها على كتفه

قال صحو:

-ها هما العاشقان قد جاءا هيا لنحضر الفطور معا.

قالت تسوغيك:

-لا داعي اجلسا وسأحضره فورا

قال صحو:

-شرّحي البندورة فهي لذيذة مع الفلافل

كان عمار يحمل بيده كّابا

قال له صحو

- ما هذا ؟

- إنه الجزء الثاني من كتاب الراهبة الذي أعطيتك الجزء الأول منه في الطائرة.

- حسنا

- وهذه نسختك.

- ألم تعرف إلى الآن من هي تلك الراهبة ؟

- لا

قالت تسوغيك:

- الفطور جاهز سأوقف كاجين وعائشة

جلسوا جميعا على الطاولة كانت تسوغيك فرحة بعائلتها الجديدة التي بدأت تكبر خارج حدود كتاب، لم تعد عناوين الكتب فقط هي التي تواسيها، ولم تعد مجبرة على أن تلبس أبطال الروايات لحما ودماء وتمنحهم العواطف كي يكونوا أصدقاءها. إنها الآن محاطة بالحب حد الامتلاء.

رن هاتفها :

- معك حق تسوغيك فحين بريرة

- لا يهم ذلك فأنا واثقة منها

بدأت جميلة بالبكاء

-أأنت بخير جميلة؟

-إنه يخونني مع كل سكرتيرة جديدة وحنين الوحيدة التي رفضت ذلك

- جميلة اهدئي

-إنه لا يستطيع الإنجاب.

-ولكن؟؟؟؟!!!

-أخفي ذلك دوماً بأننا لا نحب إنجاب الأولاد، قد مرت ثمانية عشر عاماً وأنا أتمنى

أن يكبر بطني، وأن أتوجع بكافي النسوة، أن أصحو في الليل على صوت طفلي ...

سأطلب الطلاق.

-تمهلي جميلة ريثما نلتقي في الجامعة.

-لا فلا شأن لأحد بقراري هذا

-حسننا ولكن كوني متأكدة قبل أن تقرري

-لأول مرة أعرف ما أريد.

حين أنهت تسويق المكالمات عادت إلى المطبخ

-سأذهب قليلاً لأرى حنين.

دقت تسويق الباب عدة مرات لكن يدها عادت خائبة إلى أن وجدت مغلفاً عند

الباب فتحت به بسرعة كان به مفتاح البيت وورقة، جلست على الأرض وبدأت بقراءتها.

عزيزتي تسويق أو أختي التي لم تلدها لي أُمي.

أتمنى أن تستطعي أن تقرأي خطي فأنا لم أكمل الثانوية العامة ...

لا تسألني ما معنى السعادة في الحياة، هل السعادة حين تحتضني أمي، ويضع أبي يده على شعري، فأشعر بأن الحياة قد اكتملت إذا كانت السعادة كذلك، فأمي قد ماتت وتركتني في زاوية غرفة وقلب أبي لم يتسع لي فأهداني لزوجي الذي أصبح كل عالمي، أصبح أمي وأبي وأختي فأخذته الحرب، وبقينا أنا وآلان وحيدين في قارب الحياة أجدف بيد واحدة حتى لم يعد لي وطن.

خرجت من حلب بعشر ذهبات كنت أعدها كل يوم كي لا تنقص، فوجدتك أنت. أنا لم أدرس حقاً ولم أقابل أناساً كثيرين لكنني أعرف سريعاً القلوب الطيبة التي تكسر وتتألم بسرعة، لا تعرفين كم خففت عني ثقل الغربة، وكنت أتعجب كيف لإنسان أن يكون بهذه الطيبة إلا لأنه تألم بحق وذاق طعم الوحدة واليتم. حين ساعدتني ووجدت عملاً شعرت أنّ الحياة ضحكت لي من جديد وصرت أنظر لنفسي بالمرآة من جديد، ولكن سعادتي لم تدم وكانت السعادة بخيلة علي. فقدت عملي ومرض آلان.

أتعرفين ماذا يعني إن فقدت آلان فهو آخر شخص بقي لي. لم أستطع أن أكون عبثاً عليك، فبعد شهر لن أستطيع أن أدفع إيجار الشقة، وأعرف أنك ستفعلين المستحيل كي تأمني لي مصاريف العملية. صرت لاجئة ثقيلة على كل وطن وعلى كل أحد في الحياة. لاجئة لا تثير إلا الشفقة ويتوجب عليها أن ترضى أن تكون زوجة بالهجان كي تبقى على قيد الحياة وتجد لقمة الخبز.

اشتقت لسوريا لبنتنا الصغير وأن يعود زوجي متعباً بثيابه المتسخة وأن نلحم معا ونحن
نجمع القرش فوق القرش، وأن نتخيل آلان وهو في الجامعة، وأن نعطيه ما حرمننا منه
نحن الإثنين.

خارج الوطن نحن عبارة عن مشردين يعيشون على هامش الحياة.
سأذكرك دائماً.

بكت تسوغيك كما لم تبكي يوماً، لأول مرة تشعر أنها هشة وغير قادرة على فعل أي
شيء، مكجلة باليأس.

نزلت الدرج وهي تبكي، كان عمار يجلس مع صحو ويريه الجريدة التي نشر بها حوار
معه ...

وكانت إيليك تمسك حجر الخاشكار الموجود في غرفة الضيوف وتشرح لكاجين ومريم
عن أصله ولم تلاحظ دموع تسوغيك.

رمز الثقافة الوطنية في أرمينيا هو **الخاشكار**، أو فن نحت الصليب في الحجر، الذي
يمارسه الأرمن وحدهم منذ القرن الرابع، مباشرة بعد أن اعتنقت البلاد الديانة
المسيحية، وكانت الأولى في اعتناقها هذه الديانة في التاريخ. وجود حجر الخاشكار في
أرض ما كان من شأنه أن يدل على ذكرى انتصار أو إتمام بناء معبد أو جسر، أو
شكر الله على امتلاك قطعة أرض، وكان يستخدم أيضاً كنصب في المدافن. يتوسط
الخاشكار صليب ينمو مثل الشجرة أو الزهرة، وهو رمز حياة أبدية جديدة، وكل
خاشكار هو فريد من نوعه ولا يوجد آخر مثله.

دخلت تسوغيك غرفتها ولم تتوقف عن البكاء دق صحو وعمار الباب

ضمها صحو

-هل آلان بخير؟

-إنّ حنين رحلت وتركت لي هذه الرسالة، رحلت لأنني لم أستطع مساعدتها.

سألها عمار

-إلى أين؟

-لا أدري ولا تعرف أحدا هنا غيري. صحو.. وبحياة أمنا مريم كنت سأساعدها.

ضمها صحو بقوة

-اهدئي يا حلوتي ربما لا تريد أن تكون عبئا عليك.

-ولكني لم أشتكي منها كيف سأعرف أين ستعيش هي وآلان الذي يشعر بالبرد

بجميع السوريين في المخيمات، وأنا هنا كالبلهاء أشعر بالدفء.

اقترب منها عمار

-أحيانا يصعب علينا أن نتقبل الصدقة، وأن نمدّ أيدينا، ألم تلاحظي كم كانت دوما

نحجولة وصامتة.

مسحت تسوغيك دموعها

-كانت تدفع لي الإيجار في كل شهر، وكانت تنجل أن تاكل معنا حين كنت أدعوها،

لم أرى أحدا مثلها.

أحضر صحو الطيب فقد ازدادت حرارتها وتحلّق الجميع حولها، تكورت تسوغيك على نفسها، وفكرة واحدة تدور في رأسها أنّ حنين وآلان في الشارع ويموتان من البرد والجوع.

ظلت في الفراش لأيام بعد أن عاد كاجين وعائشة إلى تركيا، وظلّ عمار ملاصقا لها وإيليك تصنع لها الأعشاب.

اقترب منها صحو

-أعرف الشيء الذي سيعيد لك صحتك. الكتب هي فيتامينك الوحيد.

ظل طول الليل بجانبها وهو يقرأ الكتاب الذي أعطاه إياه عمار وتسوغيك نائمة.

ظل صحو يمشي في الممر منتظرا الفجر.

استيقظت إيليك لتطمئن على تسوغيك

-أما زلت مستيقظا؟ أشكر الرب يسوع قد خفت حرارتها

-.....

-ما بك يا روجي؟

-لا شيء كنت فقط قلقا على تسوغيك

في الساعة الثامنة صباحا اتصل صحو برقم دار النشر التي أصدرت الكتاب، قالت له السكرتيرة أنّ المدير لا يأتي إلا في التاسعة، شعر أنّ الوقت يمشي كالسلفاة.

اتصل في التاسعة

-أهلاً سيد صحو، المدير معك على الخط

-صباح الخير سيد صحو كيف أستطيع مساعدتك ؟
 -حسنا بيدي الآن كتاب (كأني عشت) هل يمكنني أن أعرف عنوان الكاتبة (ليلي)
 أو رقم هاتفها
 -لا يمكنني أن أعطيك إياه فهذه معلومات سرية
 -ولكنني مهم جدا بالكتاب وأود أن أشكرها.
 -شكراً على اهتمامك، ولكن طلبك مرفوضا فحتى أنا لا أعرفها شخصيا
 -وإن قلت لك أنني الشخص الذي تحدثت عنه في الكتاب
 -أهذا خبر صحفي أم ماذا؟! لا يمكنني تصديق ذلك إني مضطر أن أنهي المكالمة.
 -ولكن..

قطع المكالمة..

جاءت تسوغيك

-ما بك متوتر ؟

-كنت فقط قلقا عليك.

-ولأننا لم نذهب لزيارة الراهبة بسبب مرضي.

-لا يا تسوغيك لا عليك قد تحمست أنا قليلا ربما فقط تشابه أسماء، سأذهب لأتمشى قليلا.

وضع السماعات في أذنيه، كانت عيناه تدمعان (وخوليو ايجليسياس) يذكره بالحنين المزمّن، ويذكره بأنّ الحنين كما هو لم ينقص أبدا.

الحنين كما هو
 أنت العطاء وكذلك أنا
 السنين أني أفكر فيها
 وأناديها في الليل
 هي تعيش هناك
 في أرض البرد القارص...

فتح الكتاب وقرأ الصفحة من جديد : كبرا معا وكأنهما في حلم، لم يفكرا مرة وهما في المدرسة حيث نما جبهما أن يتعريا أمام بعضهما بدافع الشهوة إلى أن ظنا أنه وقت الفراق، حين قرر أن يذهب مع أبيه إلى فرنسا ووجدت أن أمها ستفعل الشيء ذاته. جمعهما هناك بيت فارغ من الناس، كانت الشهوة الوحيدة التي تسيج جسدهما لأول مرة كانت تتعري أمام رجل، ولأول مرة كان يتعري أمام فتاة. لم تستطيع تحديد ذلك الوقت من عمرها لا تدري بعدها كيف كرهته وهي تلم ثيابها التي اختلطت مع ثيابه، وكأنها خانت الرب وستدفع ثمن خطيئتها تلك إلى أن تموت وحتى بعد موتها. لن يقبلها يسوع بعد الآن.

أوقفه رنين هاتفه

-السيد صحو؟

-نعم

-أنا الممرضة رنيم قد اتصل بي مدير دار النشر وأودّ مقابلتك.

-هل أنت ليلي صاحبة الكتاب ؟

-لا لا سنتحدث حين نتقابل هل يناسبك في العاشرة صباحا ؟

-بالطبع

عاد سريعا إلى البيت محاولا تجنب أسئلة تسوغيك وإيليك، بدّل ثيابه سريعا

قالت له تسوغيك

-ألن نذهب مع عمار لمقابلة الراهبة؟

-ليس الآن تسوغيك.

كانت رنيم بانتظاره وعرفها من ثوب الراهبة

-سيدة رنيم

ظلت رنيم دقائق وهي تحدق به وقد أصابها الارتباك.

-أأنت صحو ؟

-نعم

جلست على الكرسي

-ما شديني لمقابلتك هو كلام مدير دار النشر بأنك الشخص الموجود في الكتاب.

-لا أدري كيف أشرح لك ذلك، ولكن ما حدث معي هو بالضبط ما قرأته في

الكتاب.

- وتريد أن تقابل الكاتبة ؟
- بالضبط ولكنه رفض أن يساعدني
- أنا هنا لمساعدتك.
- حقا هل تعرفين ليل ؟
- تقصد سما
- حدق بها صحو طويلا
- أعرفين
- أعرف كل شيء وأعرف أين هي.
- هيا لنذهب إليها.
- إنها اختبأت منك كل هذه السنين.
- وقد بحثت عنها كل هذه السنين لم تكن خطيئي وحدي.
- أعرف ذلك أنّ سما كان تختبئ من نفسها وليس منك.
- كانت دموع صحو في عينيه
- لا أصدق أنها ما زالت على قيد الحياة.
- ولكنها كانت توقن أنك على قيد الحياة مع أنها كانت تختبئ بالرب لكنها لم تنسك يوما.
- ألهذا أصدرت الكتاب ؟
- كي تكفر عن خطيئتها التي ظلت توجعها طيلة حياتها.

-لماذا ما زلنا نجلس هنا وأنت تعرفين أين تكون ؟!!!

-حسنًا

اتصلت بالأب العازر وطلبت منه أن يذهب إلى سما ويدعوها إلى بيته.

ركبا في التاكسي كانت رنيم تتحدث إليه بدون أن تنظر في عينيه.

-إنها مريضة في الزهايمر.

-ماذا ؟

-بعد أن تراك ستنسى أنها رأتك.

-ماذا تقولين انظري إلي.

-تمامك أعصابك ذهبننا بها إلى الطبيب وقال أنه لا يوجد علاج، والعلاج الذي تتناوله

يؤخر نسيانها فقط لسنين عديدة، إنهى تنسى الأيام والشهور، ولا تستطيع حتى أن

تضرب رقما في الهاتف، إنها تتذكر الماضي جيدا أي تتذكرك.ليس من المفترض أن

تفعل أو أن تصاب بصدمة عاطفية.

مسح صحو دموعه بكم قيصه

-في كل يوم تتآكل ذاكرتها وتدخل في الفراغ.

توقف التاكسي عند مدرسة الراهبات الوردية

-لماذا نحن هنا ؟

-لأنّ سما هنا

-ماذا؟ أيعقل أن لا يفصلنا عن بعضنا سوى ربع ساعة في التاكسي وفرقتنا كل هذه السنين !!!

ظلت رنيم صامتة

-سأحدثها أنا أولاً كي لا تتفعل فهي تخاف من الغرباء.

ظل صحو واقفاً في الساحة ما يفصله عنها الآن سوى باب مغلق. عاد بشريط عمره حيث كانا يذرعان هذه الساحة ذهاباً وإياباً، رآها هناك في الكنيسة وهي تعزف على الجيتار حيث سمعها بأول ترنية (في ظل حمايتك نلتجىء يا مريم).
نظر إلى المبنى الجديد وغصّ قلبه بالحرقه، دهش من نفسه كيف لم يصبر على فراقها كل هذه السنين وما هو ينتظر الآن ويعرف أين هي. دق الباب.

منعته رنيم من الدخول

-إنها لا تريد أن تقابل أحدا اليوم .

-ماذا ؟ أقلت لها إنني صحو

-لا بل سألتها هناك ضيف ويود رؤيتك فرفضت ذلك

أبعدها صحو عن طريقه.

التقت نظراتهما وكأنهما لم يفترقا كل هذه السنين، كانت سما تحديق بملاحه، اقترب منها صحو ووضع رأسه على ركبته.

كان يشفق بالبكاء

-سما أنا صحو انظري في عيني، أتدرين كم احترقت وأنا أبحث عنك !!!!

-صحو؟ حقا أنت صحو.

-أنا هو ضعي يدك على رأسي.

قبل يديها من جديد اللتين أغرقتا بدموعه

-لماذا تبكي ؟

رفع رأسه وبدأ يصرخ

-لماذا أبكي لأني هدرت عمري وأنا أبحث عنك، وأنت قابضة هنا تهريين من خطيئة

ارتكبتها كلانا، الخطيئة الكبرى حين فقدتك. إذا كان الله سيسامحك على خطيئتك

باختباك هنا طيلة هذه السنوات، كيف سأغفر لك ضياع كل هذه السنوات بدونك

!!!!؟

أمرته رنيم بالخروج وهي تبكي

-أخرج من هنا فإنها خائفة منك

جاء الأب العازر ومسكه من يده بعد أن مسح دموعه بكم ثوبه

-تعال معي

أدخله إلى الكنيسة

-أصرخ وابكي هنا كما تشاء

عاد إليه بعد عشر دقائق

-هل هدأت يا بني؟

-كيف سأهدأ وآخر ما كنت أفكر به أن أجدها بلا ذاكرة ؟!!!

-إن كنت تحبها بحق كن ذاكرتها.

صمت صحو

كانت سما واقفة أمام باب الكنيسة. دخلت وجلست على مقعد في آخر الكنيسة، ابتسم لها الأب العازر وخرج وأغلق الباب. قالت سما:

-أتعرف أن هناك ثقب في رأسي وأنسى كل شيء؟، سأنسى بعد قليل أنك جئت. ضمها إليه. همست له:

-كم اشتقت إليك قالت لي رنيم كل شيء وسجلت على الدفتر أنك جئت كي لا أنسى -لكني سأبقى معك.

-ولكن

-ماذا أفعلتك من بين يدي بعدما وجدتك ؟!!!

-وخطيئتنا

-الخطيئة أن لا نكون معا

-أتذكر ما حدث بالتفصيل، ولن أنساه حتى لو أكلت كل ذاكرتي، لماذا لم يكن هناك أحدا في بيت أبي صديقك، لم نفكر يوما أن نكون وحدنا ولم أفكر بأن أقبلك، اعتدت على وجودك في حياتي لأننا كبرنا معا وضحكا معا ذلك اليوم الذي ماتت فيه أمي كنت أتعري أمامك في بيت لا يشبهنا في حارة شعبية في أحد أحياء فرنسا، لأول مرة كنا ننظر لبعضنا بهذه الطريقة.

سألتك: لماذا تأخر صديق أليك ؟

لم تجبني كان ارتباك جسدينا أقوى منا، لا أدري من الذي بدأ بارتداء الرغبة، بعد عشر دقائق اكتشفنا عرينا وكانت أمي في المستشفى تحتضر إثر حادث سيارة، لم نكمل يومها الثامنة عشر. كيف حدث ذلك بعشر دقائق وكأنّ الله عاقبني بموت أمي وعاقبك ببعدي عنك. إني أنسى كل شيء ولكن لم أنساك ولم أنسى خطيئتي، وقد عثرت عليّ من خلال كتاب..

.....

(٦٠)

أربد ٢٠١٢

- بماذا أنت غارقة يا تسويك تأتين إلى الجامعة وترجعين سريعاً، اليوم هي جلستي الأخيرة وبعدها سأطلق.. ما بك ؟
- إنَّ عمار مختلف منذ أن عاد صحو إلى فرنسا بشكل مفاجيء، وذهبت معه أمي وباتيل لتجلس مع أبيها أي منذ نصف شهر.
- هل سألت عنه صديقه؟
- يوسف بالطبع وقد أخبر الشرطة، ما يقلقني أنه ليس له أحد هنا.
- هل هاتفه يعمل ؟
- لا إنه دائماً مغلق، وها نحن في نهاية الفصل ولا يأتي إلى المحاضرات، لماذا يفعل بي هذا ؟
- لا تبكي يا حبيبي سيعود، وهل هناك خبر عن حنين ؟
- لا لا ماذا سأفعل يا جميلة إني أموت شوقاً إليه، أغراضه ما زالت في السكن.
- هل اتصلت بمعلمته؟
- ذهبت إلى المدرسة وطلبت أن أقابل الممرضة رنيم لكن الحارس منعني من الدخول، وسألته عن عمار وقال إنه لم يره.

حين أنهت المكالمة بحثت عن اسمه في الماسنجر بالرغم أنها كتبت له رسائل كثيرة ولم يصله شيء، كانت عاشقة ثملة وتبحث عن خيط أمل، وكأنها حين تكتب له تخفف من قهرها يكفي أن ترى صورته على الماسنجر.
 كتبت له : أين أنت؟ لا شيء أنا بدونك، إني أذوب في انتظارك، قلت لي أنك لن تتركني أنا طفلك المشاكسة، لا أستطيع التركيز في أي شيء، وجهك الذي يبقى في رأسي في كل لحظة، قل لي فقط أين أنت؟!!

أنا مريضة بك، بوجهك الذي أدمنته، بتفاصيل يديك حين تلمساني، اشتقت إلى غمزة عينيك، اشتقت إلي بوجودك.
 ظل ساعات مسمرة أمام الهاتف بانتظار أن تصبح الرسالة مقروءة.
 في اليوم التالي لم يأتي إلى الإمتحان النهائي.
 عادت منهكة وغرقت بالنوم
 حين استيقظت في الحادية عشر ليلاً، وجدت دفتره على ظهر الثلاجة حين جاء قبل نصف شهر وأحضر الحمص والفلافل فتحتهم بهم.
 إليك تسويك
 قد تواعدنا في المكتبة أن نكتب ما نحسه وقررت أن اكتبك
 يا كل الحنين
 يا بدايات الفصول

يا مواعيد العشاق المتأخرة
 وقطارات الوقت
 ووجع الفراق في محطات الشتاء
 كم فرح يلزميني لأكون أنت
 وكم ألم يلزميني لأنساك
 أيتها العصية على النسيان
 كيف لوّنت الربيع بأصابعك
 وأعطيت عمري ملاحك
 إني أتنفسك نفسا نفسا
 إلى أن يذوب العمر بيننا.
 شهقت تسوغيك، كان كل شيء حولها يخنقها، طرقت باب يوسف، وظلت تنتظر
 أمام الباب لأكثر من ربع ساعة وهي تطرق الباب.
 -لماذا تتهرب مني ؟
 -آسة تسوغيك قلت لك أني لا أعرف أين هو ؟
 -ولماذا تتكلم بكل هذا البرود وكأنك تعرف مكانه وتتهرب مني في الجامعة ؟
 حدّق بها
 -إنّ عينيك منتفختان

-لا يهمي سألقي هنا إلى أن تقول لي أين هو وإلا سأصل بالشرطة وأخبرهم أنك تعرف مكانه

-ولكن

-ولكن ماذا ألا ترى كيف أموت أمامك بحثا عنه ؟!!!

-إنه

-قل

-إنه عند الاب العازر في المدرسة

صفحته تسوغيك

-لن أغفر لك هذا.

أوقفت تاكسي، كانت تريد أن تطوي جميع الشوارع لتصل إليه، نزلت سريعا من التاكسي وأوقفها الحارس العجوز.

صرخت بوجهه

-ابتعد عني أعرف أنه هنا.

أبعدته بيدها ودخلت الى الساحة، رآته وهو يدخل إلى الكنيسة لحقته ودخلت الكنيسة.

-عمار

التفت إليها وظل صامتا ليتلذذ بصدى صوتها الذي لم يسمعه منذ نصف شهر، لكنه أدار وجهه مرة أخرى ومشى باتجاه المذبح.

لحقت به وهي تصرخ
 -عمار لماذا اختفيت فجأة ألم تعد تحبني، وما شأن ذلك بجامعةك إنه آخر فصل لك
 ؟!!؟

ظل صامتا وصلب على وجهه
 هزت كتفه
 -لماذا تكلم الله ؟

استمر بصمته واحمرت عيناه
 جلست تسوغيك على الأرض غارقة بالبكاء
 -أرجوك أجبني إني أختنق بدونك لماذا لم تعد تحبني ؟
 التفت إليها عمار وهو يبكي
 -وكيف سيحب المرء عمته كعاشق؟!!
 أزاحت شعرها بيدها الممتلئة بالدموع
 -ماذا تهذي أجننت ؟

-اتصل بي الاب العازر في الليل وطلب مني المجيء الى المدرسة وأمرني أن أبتعد
 عنك وحين جلسنا في الكنيسة أخبرني بكل شيء وقد أخبر أيضا صحو
 -أي أن سما هي حبيبة صحو يا إلهي
 مسكت تسوغيك يده
 -لا لا هناك خطأ ما

-ليس هناك خطأ بل خطيئة وكنت أنا ثمرتها
 غرقت تسوغيك بالبكاء...صرخت كما لم تصرخ يوماً أمام المصلوب
 -لماذا أيها المسمر على الصليب سمحت لكل هذا أن يحدث، لماذا وضعت في طريقي
 لأحبه لهذا الحد ثم لتبعده عني إلى الأبد، وأنت أيتها العذراء ألم تري كم أحبه ماذا
 سأفعل أنا من بعده لماذا حرقت قلبي أنا التي اقتربت منكما بفضلته والآن تتخليان عني.
 بكيا بألم، التصقا ببعضهما حد الذوبان..

كانت الساعة الواحدة صباحاً
 نهضت تسوغيك عن الأرض كالمجنونة، تائهة في الطرقات، وصوت عمار يطن في
 أذنيها وهي تذكر الأغنية التي كتبها في آخر صفحة من الدقتر
 دخلك لا ما تفل..... ضلك ليلة بعد..... بلكي نلاقي الحل...لما الليل يحل...تعا ننسى
 الكل.

وسهار شوية بعد... حتى الوقت يمل... حتى القلب يحن...حتى العقل يحن.. حتى
 الحب يذل

مش رح فيك تفل.. ما بخليك تفل.... صار لازم نختار... رح يطلع النهار... سبقنا
 الوقت وطار... وما فهمنا شو صار... بعرف رح بتفل... تهرب قبل الضوء... الوقت
 عم يبقل.. وتغير الجو... يمكن لو بتضل.... فينا نلاقي الحل... وتقلن للكل... إنك
 مش حتفل...بس أنا ما بحل.. عنك لو بتفل..يمكن فينا نضل.. نزرع ورد وفل...
 وكل الناس تدل.. ع تتين لقيو الحل.

دخلت البيت منهكة ويديها ثلاث قناني ويسكي أطفال النور، وجلست على الأرض
فتحت قنينة ومسكت الهاتف كتبت له :

حبيبي لأول مرة سأشرب الويسكي كي أنسى أنني لن أستطيع لمسك بعد اليوم، لن
أضحك ولن تكون لي، لن أتغزل بغمازتيك، بلون عينيك. سأراك مع امرأة أخرى وأنا
أحترق من بعيد، سأحترق بي، لن أكون لك بعد اليوم ولن تكون لي، سأشتاق إليك
وأنت أمامي ولن أبوح لك بذلك، لن أكون طفلتك المشاكسة ولن تكون سنفوري
الغبي.

لن تلمس شعري بعد الآن، ستكثر الخطوات التي بيننا، سنتألم حدّ الموت والفراق،
سنصير أبعد من أي عاشقين افترقا، وأقرب من أي عاشقين احترقا بالحب.
قرأ عمار الرسالة وهو يبكي ويتلوى في السرير.
كان الأب العازر بقربه، ضمه إليه.

-أتذكر حين كنت صغيرا، حين كانت تنتهي سما من تنظيفك، كنت دوما تمسك
بثوبي وآخذك معي إلى الكنيسة كنت تقضي معي جميع الأوقات.
-كنت أرطدي ثوبك حين تخلعه مساء وتضحك بأعلى صوتك.
-وأول تريلة علمتك إياها.

-ربي أنت طريقي الهمني هداك /ربي أنت رفيقي في وقت الصعاب / أنا طفلك
 الوحيد أعطني يديك / كي لا أضل دربي يا كل العطاء / أنت يا رياه
 -وبعدها دخلت الجامعة، وأردت أن تسكن وحدك، والآن عدت ابني، عدت إلى
 غرفتك.

بكي عمار مجددا

أمسك الأب العازر بيده

-هيا لنذهب إلى الكنسية فهناك سنجد السكينة
 نهض عمار متاثقا لا يجز نفسه وهو يمسح دموعه
 حين دخلا الكنيسة كانت الساعة الثالثة فجرا.

-انظر إلى المصلوب هل كان يتوجب عليه أن يتحمل كل هذا الألم، لكنه رضي به
 لأنه يثق بالله تعجبي آية في القرآن أن الله لا يحملنا ما لا طاقة لنا به، أي أن الله يعطينا
 ما نستطيع احتماله ليظهرنا وينقينا. أتظن أن جراح المسيح هي المهمة وهي التي تمسح
 خطايانا، بالنسبة لي لا فإني أنظر إلى الصليب بجهة أخرى أن يدي المسيح فارغتان من
 الدنيا ليعلمنا أن كل شيء زائل.

يقول القديس (باسيليوس الكبير) : (يا أصدقائي مهما أرسل الله من محن لا بد أن
 تتقبلها بالرضى وبدون تدمير حتى نستحق أن نكون في مدينة الله، بل أنك ستشعر
 بالألم والأسى بالحقيقة إذا حرمت من هذه المدينة، ولذلك تحمل كل شيء بحكمة

واتضاع نحو الله حتى تكون نفسك مستعدة وأهلاً لمواطنة هذه المدينة وهذا الفردوس وتكون إلى الأبد في العرس السماوي.

أسالك يا صديقي أن تضع اضطرابك ويأسك جانباً، ولا تسمح للألم أن يوصلك إلى اليأس من المستقبل).

هل تريد أن تطرد من مدينة الله أنت الذي لعبت على مقاعد هذه الكنيسة، قل لي ماذا حدث بينكما أخبرتها؟

كان عمار يتكلم وهو يبكي

-بالطبع فقد كانت تظن أنني توقفت عن حبها، خرجت ممثلة بالألم. قد أرسلت لي قبل قليل رسالة .. إني أموت وجعاً يا أبتى، لن أحلم بها بعد الآن يا أبتى، لن أقبلها، لن أضحكها، لن أنتظر الصباح كي أراها، إني مثقل بالوحدة يا أبتى، لم أشعر مرة باليتم كما شعرت حين فقدتها.

-هذا هو درب الآلام والوحدة، ولن تستطيع الهرب منه اطلب العون من الرب.
-إني أذوب كالشمعة كل ليلة أمامه، ولا يغيب وجهها عن رأسي وسما وصحو....
كيف جاءت سما الى هنا يا أبتى ؟

-أنا أعرف القصة من البداية يوم اتصل بي الراهب أنطون من فرنسا وقال لي أنّ هناك فتاة اسمها سما، أمها توفيت بحادث سيارة في فرنسا ستعود إلى الأردن إنها حامل ستلد وبعدها ستصبح راهبة

-وكيف بفتاة حبل أن تصبح راهبة؟

-تلك مشيئة الرب ونادرون هم من يختارهم الرب كي يكونوا نوره على الأرض.
استأجرت لها غرفة صغيرة بعد أن تكفل الأب أنطون بكل شيء، وكانت الممرضة
رنيم من تكفلت بالعناية بها وكأن كل شيء كان مخططا من الرب.
ولدت سما أجهل طفل في العالم هو أنت وأجرت عملية لتعود عذراء.
ألم تذهب إلى أمك ؟

أما زلت غاضبا منها منذ ذلك اليوم الذي جاء به صحو إلى الكنيسة ؟ دائما تسأل
عنك وأخفي عنها أنك هنا.
-نعم قدرت أن تخفيني كي تخفي خطيئتها.

-أندري ما هو ألم سما الوحيد أنها ستنسى بيوم كل شيء إلا الألم والحب لأننا نحب
بقولنا، وممحة النسيان لا تحو وجوه من أحبيناهم، رآحتهم. إن سما لم تتوقف عن
رعايتك لحظة واحدة وهي تتضرع إلى الله في الكنيسة أن يحرسك وأن تبقى بجانبها
وقد نسيت أنك ابنها وقد أكدت لي رنيم ذلك لكنها ظلت ترعاك لأنها تحبك . حتى
صحو عاد إلى فرنسا وتركها هنا حين أخبرته رنيم.

-وماذا سيفعل هو الذي ظل يبحث عنها طيلة هذه السنين ليجدها قابعة هنا ولديه ولد
منها ؟!!

-ليس علينا أن نحكم على الآخرين ونحاسبهم على أخطائهم، علينا أن نتقبلهم كما هم،
وأن نبقي بجانبهم ونساعدهم.

كانت سما تدق على الباب نظر إليه الأب العازر، وأشار إليه بالبقاء.

- عمار.. لماذا لم تخبرني أنك هنا ؟

مسح دموعه كي لا تراها
اقتربت منه

-لماذا تبكي أحدث معك شيء ما ؟
نظر إليه الأب العازر.
قال عمار:

-لا شيء كنت أصلي مع أيننا العازر، وبكيت لتأثري بصوته وهو يتلو المزامير.
وضعت يدها على جبينه
-حرارتك مرتفعة.

حضنها عمار وعاد للبكاء.

- كم اشتقت إليك
-وأنا أيضا، أريد أن آكل البوظة.
-إنها الآن الخامسة فجرا.

-آه نسيت الخامسة فجرا، حسنا الخامسة فجرا لماذا أتيت إلى هنا ؟ آه لا أدري كنت
أتصفح دفترتي جاء صحو قبل نصف شهر وجلسنا في الكنيسة، أين هو لماذا لم يأتي
لزيارتي ؟

-لأنك رفضت الذهاب معه ؟
-أنا ؟

-لا لا إني مشتاقة إليه كثيرا، إن رائحة عطره ما زالت عالقة في ثيابي، وطلبت من رنيم أن لا تغسلها كي لا تزول رائحته.
-أتحيينه؟

-بالطبع إنه حبيبي قد كبر قليلا، ولكنه ما زال وسيما متى سيأتي ليأخذني ؟
حين لم يجبها أحد أكملت حديثها
- كما نلعب الغميضة في مارسيليا ثم اختفينا كلانا وبقينا نبحث عن بعضنا إنه يختبئ
مني دوما.

تمتم عمار: قد اختبئت سنيما وظل يبحث عنك.
قال عمار:

-وأنا ألت ابنك ؟

-ابني... ابني.. آه أنت ابني

-أتحييني مثله ؟

-بالطبع فأنت طالبي المفضل. قل لي لماذا تأخر صحو ؟ كما ندرس معا امتحان اللغة الفرنسية في هذه الساحة، ونحفظ أشعار فيكتور هيجور ونقرأ رواية البؤساء.
حين علمت أمي بسفر صحو مع أبيه أرادت السفر أيضا كي أبقى ملتصقة به ولا أصبح راهبة. انظر أأبدو جميلة ؟ قد طلبت من رنيم أن تشتري لي ملاقط الشعر هذه، فصحو يجبها وكنت أضعها كل صباح قبل ذهابي إلى المدرسة. قد تأخر صحو. سأذهب لأدرس قليلا قبل أن يأتي.

احضر عمار كُتاب الراهبة وجلست رنيم بجواره

قال عمار: وهويشيق بالبكاء

-لماذا لم تخبريني ؟ كم مرة حدثك عن الكُتاب، كم مرة شعرت باليتم أمامك، لماذا

انتظرت كل هذه السنين إلى أن أصبحت في ذاكرتها فقط طالبا مميزا ليس أكثر؟!!

مسحت رنيم دموعها

-كانت خطيئتها أكبر من كل شيء

صرخ عمار

-هل نسيتني حقا ؟

-طالما كنت أسألك عنك وكانت تجيبني أنك طالبا المفضل ولكنها لم تتوقف لحظة

عن الاعتناء بك.

مسك الكُتاب بين يديه بقوة

-ها هي قد كتبت خطيئتها كي تكفر عنها ونسيتني خارج حدود هذا الكُتاب

ضمته رنيم الى صدرها

-المهم أنك ما زلت تتذكر أنك ابنها

جاء الحارس مسرعا

-هناك سيدة على عجلة من أمرها تريد عمار تقول أنها جاءت بشأن تسوغيك.

لم يتوقف عمار عن البكاء، ركض مسرعا حين سمع اسم تسوغيك وكأنّ الحياة ردت

إليه من جديد.

(٦١)

باريس ٢٠١٢

حين عاد صحو من مارسيليا بعد أن أوصل إيليك وباتيل، اتصل براشيل وطلب منها أن تنتظره في البيت.

حين فتح الباب كانت راشيل ترتدي الروب دي شومبر وعلى الطاولة كأس شامبانيا احتضنته وقبلته على فمه

-أعرف أنك مشتاق إلي كثيرا.

جلس صحو على الكنبه متحاشيا قبلتها

جلست بجواره

-ما بك ؟

-لقد وجدتتها

-من ؟

-من غيرها سما

ضحكت راشيل

-لو وجدتتها لما تركتها وعدت إلى هنا.

-إني أقول الحقيقة

-وكيف ذلك ؟

- من خلال كُتاب سأروي لك القصة فيما بعد.
- وكل هذا الشوق لها كل هذا السنين تتركها وتعود إلى هنا ؟!!!
- إنها مصابة بالزهايمر وقد أصبحت راهبة.
- وماذا يعني هذا كله؟
- أنت من تقولين هذا ؟!!
- ولماذا لا أقول هذا، إنك دائماً تحب الهروب، ولا تواجه المصائب الآن أيقنت كم كان عشقك كاذباً.
- حقاً؟ لا أريد أن نبدأ بالشجار.
- حقاً.. وهل أغفر لك كل هذه السنين التي كنت تبحث عنها، وما كان يشدني إليك هو وفاؤك لامرأة غائبة،والآن عرفت كم كنت تتوارى خلفها لأنك لا تحبني.
- إنك لا تفهمين شيئاً.
- وماذا سأفهم ؟
- كانت حامل يوم اختفت ولدينا الآن ولد.
- وهل هذه هي المشكلة؟
- المشكلة أنّ ابني هو حبيب تسوغيك ذلك الشاب الذي أجرى معي الحوار، ركبت مع ابني في الطائرة وجلس بجواري وأجرى معي حواراً،ابني قد أحب عمته.
- صمتت راشيل
- يا إلهي لا يعقل هذا

-عدت لأني لم أقدر أن أنظر في عيني تسوغيك، هي التي كانت في كل رسالة تروي لي عن حبها الذي كانت تبحث عنه طيلة حياتها، كانت تتكلم عن ابني، ماذا سأقول لها أنك عمته، وقد أحبت ابن أخيك

-لكنها الآن بحاجتك، وابنك بحاجتك، وسما بحاجتك

-كنت تغارين منها عندما كنت أبحث عنها، والآن تطلين مني الذهاب إليها
-لم أستطع أن أنسيك إياها طيلة هذه السنوات. يجب أن تعود وتقف بجانبهم فهم بحاجة إليك أكثر مني.

ضمها صحو

-شكرا راشيل على كل شيء ولكن من الصعب أن أعود.
-والأصعب أن تبقى بعيدا عنها بعد أن وجدتها.. عليك أن تواجه كل شيء، فهذا هي سما قد توارت عنك واختفت طيلة هذه السنوات وما زالت بنفس الشوق إليك، وتسوغيك ستنسى ألمها مع الوقت

-تسوغيك عاطفية ولا تنسى بسرعة، إنَّ ألمها بحجم هذه الحياة.

رن هاتفه

-إنَّ هذا الرقم من الأردن

-أجب بسرعة

-ألو صحو

صمت حين سمع صوت عمار

-ألو صحو إن تسوغيك في المستشفى وقد حاولت الانتحار.

أغلق الهاتف بسرعة

-عليّ أن أعود حالا إلى الأردن.

-ماذا حدث ؟

-تسوغيك حاولت الانتحار.

ركب صحو في طائرة الواحدة ليلا كان برد باريس لا يحتمل، كان وجه تسوغيك لا

يفارق مخيلته وهي ممددة على سرير في مستشفى.

ماذا سأقول لها حين تتقابل عينانا.

أنا الذي ارتديت خطيئتي منذ سنين وقد دفعت هي ثمنها كما دفعت أمي ماريا ثمن

خطيئتها مع أبي نديم، وكما دفعها أبي أيضا حين ألقى بنفسه أمام سكة الحديد.

من منا دفع ثمن تلك الخطيئة أكثر أنا الذي بقيت أبحث طوال حياتي عن سما، أم

تسوغيك التي أحبت عمار من قلبها كما لم تحب أحدا التي ضحكت معه كما لم تضحك

مع أحد، هو الوحيد الذي أخرجها من عزلتها ومن الشخصيات النائمة في الكتب.

ماذا سأقول لها، أسأعتذر لها، وأقدم لها ابن أخيها بكثير من البرود والبساطة ؟!!!!

كم موجه أن أعود وكم موجه أن لا أعود. والممحة التي برأس سما كيف سأوقفها؟!!

وعيون عمار التي تطالبني بأبوتي له.

كانت الطائرة تمضي في السماء بهدوء كالملت في سيارة الموتى لا يبالي بالمطبات

وبالضجيج.

(٦٢)

أربد ٢٠١٢

كان الأب العازر جالسا على كرسي في ممر المستشفى ويصلي، وجميلة وعمار أمام
 النافذة الزجاجية يحدقان بحسد تسوغيك المليء بالأجهزة.
 كان عمار يبكي بصمت : انهضي يا تسوغيك ماذا سافعل أنا من بعدك، إن كل كلمة
 أرسلتها كانت تحرقني، وأنا عاجز عن فعل أي شيء..
 لماذا وضعوا هذا الجدار بيننا، حين علمت من الأب العازر من هما أبواي، شعرت
 حتى أن الله تخلى عني، ويريد أن يبعدك عني وكأنّ الحياة لا تقبل اتحاد عاشقين
 افترقا بطريقة لم تكن حتى بتفكيرنا، لو كنا بكافي العشاق نفترق على تفاصيل صغيرة
 لشهر أو شهرين وربما لسنوات لكان لدينا الأمل أن نعود.
 أنا وأنت لم نغضب من بعضنا إلا إذا ابتعدنا عن بعضنا قليلا، كنا كطفلين على أطراف
 الحياة يلهوان ولا يريدان شيئا من الدنيا إلا أن يبقيا معا، ماذا فعلنا كي لا نكون معا؟
 سأراك تكبرين أمامي ولن تكبر معا، لن أكون بقربك حين تستعينين بكنتي بدل
 العكاز، لن أذكرك بموعد الدواء، لن نشاهد فيلمنا المفضل معا ونحن في السرير في
 صباح شتائي ممل، لن أرى الحياة وهي ترسم التجاعيد على وجهك وأنت تملين منها،
 وأتغزل أنا بها وأطمئنتك بأنك ستبقين أجمل النساء في نظري حتى لو انحنى ظهرك

ونسيت الوقت وصرت طفلة مملّة. لن نعود معا حين نكبر طفلين يتشاجران على أُنْفِه
التفاصيل.

وصل صحو عابرا ممر المستشفى الصامت وضع يده على كتف عمار الذي ألقى برأسه
على النافذة الزجاجية وقد نسي كم من الزمن مضى وهو على نفس الحالة ضمه صحو
كأب.

قال عمار:

-لا تدري كم أحتاج إليها لأول مرة أشعر باليتم بهذه الطريقة.

-ولأول مرة أشعر أنني وحيد، ومذنب بهذه الطريقة.

-تعال لنجلس على الكرسي.

-يومان وهي على هذه الحالة.

-ماذا حدث ؟

-جاءت إلي كانت غاضبة جدا مني لأنني اختفيت وظنت أنني توقفت عن حبها وقد
أخبرتها بالحقيقة.

-عانتني وخرجت في الفجر جاءت جميلة وقالت إنها نقلت تسوغيك إلى المستشفى

حين خرجت تسوغيك من المدرسة اشترت الكثير من الويسكي، وظلت تشرب وكانت

قد ابتاعت الكثير من الحبوب من الصيدلية قد خلطتها مع بعضها، وقد اتصلت بجميلة

وقالت إنها تشتاق كثيرا لحنين، وأنها تودّ أن تموت وقد غرقت بنوبة من البكاء وقالت

لها جميلة أنها ستأتي إليها لكنها رفضت ذلك وقالت أنها ستغلق الباب وستموت وحيدة
 لأنني لم أعد لها. ماذا عليّ أن أفعل ؟
 -عليك أن تذهب من هنا قبل أن تستيقظ.
 -ماذا ؟ !!!

-إذا بقيت أمامها لن تنسى ما حدث، وستتعلقان ببعضكما أكثر، الألم لن يحى لكنه
 سيخف مع الزمن.
 -وَألم اشتياقي لك، لا أصدق أنني جلست بجوارك في الطائرة وأنت أبي، والآن نجلس
 على مقعد واحد في مستشفى، تحدد مصيري حياتي وتبعدني عن حبيتي لأنها عمتي،
 لو لم أعرف الحقيقة لبقينا أنا وتسوغيك معا.
 -هل تكرهني ؟

-لا أعرف تحديد مشاعري أشعر بالتيه لا أدري ما يجمعنا الآن هو تسوغيك، أحتاج
 لوقت كي أعتاد عليك.

-سأفعل ما بوسعي لنخرج جميعا من هذه الدائرة.
 -ولكن دوما الدائرة مغلقة ولا مخرج منها، والألم مدور كالدائرة لا نقطة بداية له ولا
 نهاية، كيف ستغير أن تسوغيك عمتي وأنتك أبي وأنّ سما أُمي.

جاء الطبيب

-من قريب المريضة تسوغيك ؟

نهض صحو

-أنا أخوها.

-إنّ حالتها قد استقرت الآن، ويجب أن تبتعد عن أي شيء يثيرها.

-أيمكنني رؤيتها؟

-بالطبع.

قال صحو: لعمار

-اذهب الآن هذا هو الحل الوحيد.

-واتركها هنا

-إذا كنت تحبها، افعل هذا لأجلها.

ظلّ عمار مسمرًا في مكانه.

-إنني أحترق

مدّ صحو أصابعه ومسح له دموعه.

-كيف لم ألاحظ أنك تشبهني، بل أجمل مني، أسمح لي بأن أضحك؟

زرع عمار رأسه بصدر صحو، وتمنى أن يغفو إلى الأبد وينسى كل شيء.

-هيا كن قويا لأجلها.

كانت خطوات عمار ثقيلة وهو يعبر الممر الصامت، وشعر أنها آخر مرة سيرى فيها

تسويغيك، ولن تصبح بعد الآن حبيبته. كانت خطواته تعزف لحنا حزينا كثيبا.

(لا حيلة معك أو بدونك

الحياة مستحيلة للأسف

بدون سبب من المستحيل أن نكون معا أو أن نفترق
 كانت أمنيّتنا أن نكون سعداء لا بالتخيلات ولا بالآمال
 لا أنت مذنب ولا أنا
 الآن أنا بدونك وأنت بدوني
 عندما تأتي اللحظة وتلاشي
 عندما تستريح قلوبنا
 عندما نجد المواساة في حب آخر
 في ذلك الوقت سنفكر
 وسيحيطنا فراغ لن ينتهي أبدا
 كل شيء سيكون بلحظة بلا معنى
 عندما تأتي اللحظة وتلاشي).

الفصل السادس

(٦٣)

مارسيليا/ ٢٠١٤

عزيزي وأخي الحبيب صحو.

هانا أعود للكتابة إليك بعد أن انقطعت عن فعل ذلك مدة طويلة، والتي كنت أخاف أن تموت فيها.

بقيت طيلة هذه السنوات أقيك من الموت بورقة، وحين قررت أنا الموت قبل سنة لم تقيني أي ورقة من الموت، أنا التي حبست نفسي منذ طفولتي بالكتب.

خرجت قبل أسبوع من مصح العلاج النفسي كي أكل العلاج في البيت، وقد قضيت بالمصح سنتين كاملتين منذ عودتنا إلى فرنسا وقد انقطعت عن العالم الخارجي.

كنت ترسل لي الكتب باستمرار، وقد أعدت قراءة جميع الكتب التي قرأتها في أيام طفولتي فقد بعثتها لي أمي من بيتنا في مارسيليا، وهي الوحيدة التي ساعدتني في شفائي، وأنا أقرأ فأرى ملاحظاتي في زوايا الصفحات، وأتذكر جلوسنا في المطبخ حين كنت تزورنا في عطلة نهاية الأسبوع حاملا معك لي كتبنا جديدة.

كما نجلس في المطبخ حين تمام أمي وآني، ونتناقش في الكتاب الذي قرأته خلال الأسبوع، وتصحح لي الرسالة التي كنت أكتبها لك بالعربية.

كم سهرنا مع دستوفسكي، وتولستوي، وكاتبتي المفضلة إيزابيل الليندي، وغابرييل غارسيا ماركيز، وفكتور هيجو.

اتفقنا أنّ الروايات هي أجمل ما في الأدب هناك حيث يظهر الموت والألم والحب المتطرف، والفراق الموجه، كل شيء في الرواية يأخذ مداه.

منذ محاولتي الموت انقسمت حياتي إلى قسمين قسم قبل الموت، وقسم ما بعد الموت. كان اختبار الموت مهما بالنسبة لي وبعثي من جديد للحياة، حين ترى الموت تتشبث بالحياة أكثر، وتعرف قيمة جسدك وتمسك بكل لحظة وكأنّ الموت به طاقة للحياة أكثر من الحياة نفسها.

طيلة هاتين السنتين وأنا في المصح النفسي بمارسيليا، بدأت بكتابة كتاب أسميته (سارق الكرز) يحمل اسم القصة التي كانت ترويها لنا جدتي آني، ذلك الفلاح الذي نسي كل شيء لكنه لم ينس من يحبهم، ولم ينس آلامه وآلامهم.

لا تخف قد نجحت بامتحان الأمل، وتخطيت تلك المرحلة في حياتي ليس لأنني حاولت نسيانها بل لأنني واجهتها وبدأت بكتابة ألي ومواجهته على ورق، فحين نستطيع أن نواجه آلامنا، ولا نهرب منها نراها كما هي ونحدث معها.

كتبت عن آني، وعنك، وعن سما، وعن الأرمن، وعن عمار. وكأنّ ما فرق بينك وبين سما، هو الشيء ذاته الذي فرق بيني وبين عمار، وبين حنين وزوجها، هو الوطن. لا تندهش مما أقول.

منذ كنت صغيرة وأنا أنتمي إلى وطن اسمه أرمينيا، كان عليّ أن أعيش طفولتي به، وأبني ذكرياتي فيه وأحفظ طرقاته بدون أن أعيش فيه.

حين نصبح بلا وطن نصبح مشردين لا نسيطر على قراراتنا في الحياة، نعيش حياة بوهيمية، الوطن هو غرفتنا السرية التي نخفي فيها المنا وذكرياتنا.

وأنت تقرأ رسالتي هذه ستدهش من قدرتي عن التكلم عن ألي بحيادية، ليس كما رأيتني قبل سنتين في المستشفى في الأردن، وأعرف أن الطبيب في مارسيليا قد منعك من زيارتي كي لا تتدهور حالتي النفسية، فقد كنت من الأشخاص الذي تسببوا لي بهذا الألم الكبير، متأسفة أن اقول لك هذا ولكن هذه هي الحقيقة، ولكن الطبيب لم يكن يعلم أنك وجعي وضمد جرحي أيضا، وأنتك روجي الأخرى حين تتألم أتالم معها، قالت لي ألي أنك كنت تأتي في موعد الزيارة وتقف بعيدا لثرائني.

علمت من ألي أيضا أنك عدت إلى الأردن بعد أن وضعتني في المصح لتحضر سما وعمار ليعيشا معك، كيف أقنعت سما بالهجي معك ؟ وماذا بشأن راشيل، كيف للمبت مشاعرها اتجاهك ؟

حين دخلت البيت كان لا يكو بانتظاري قطي الحبيب، ودهشت أن ليفون كان يعتني به طيلة إقامتي في الأردن قد ازداد وزنه ولم ينسني. باتيل كبرت قليلا قالت لي ألي أنك كنت تأخذها إلى باريس كما كنت تفعل معي، ولكننا لم نتوقف عن المشاجرة، ويبدو أنك قد علكتها العربية جيدا كما كنت تفعل معي، إنها لا تتوقف عن التحدث بالعربية وتبأهي أمامي بالتحدث بها وكأنها تستعيز بذلك عن تلك الأيام التي كنت أثيرها حين أتحدث أمامها بالعربية كي استفزها لتعلمها.

أما ليفون فلم يتركني لحظة واحدة طيلة علاجي، وقد اكتشفت به ذلك الجانب الحميمي الذي كان يخفيه بغير قصد منه، قد اعتدت على وجوده، وحين كان يغيب كنت أسأل عنه أُمي. هل الرجل بعد الطلاق يصبح صديقاً حميماً ومقرباً لطليقته؟! كم كنت أنتظر بسعادة قرار المحكمة بطلاقي منه، وحين نطق الحكم تلاشت رغبتني بالانتصار، وكأنني كنت أريد أن أتخلص منه وأخسره لأربحه من جديد. قد تغير ليفون كثيراً لم يعد يردد الإنجيل عن ظهر غيب، بل أصبح متديناً يرى الله في كل شيء..

أنت لا تستطيع أن تجد ذاك الفرق في تصرفاته لأنك لم تعيش معه، الآن بدأ يعترف بحبه لي ولا يخفيه بحمايتي وإغراقي بالدين، أصبح ينظر لي كأثني، والمرأة تشعر بالرجل الذي يبدأ بالاحساس بأنوثتها. ودهشت من نفسي أُنّي طلبت أن أعود الى بيتي مع ليفون وليس إلى بيت آني.

لا أستطيع تفسير مشاعري اتجاهه، ولكنني أرغب بوجوده وكفى. تعال مع أن الطبيب لم يسمح لي بعد برؤيتك، فحالي النفسية لم تستقر بعد، وماذا يعرف الطبيب عن مزاج القلب وتقلباته، وماذا يعرف عنك وعني؟!!!! أعرف أنك أجلت زواجك من سما إلى أن أشفى، ولكننا في الحقيقة نحن لا نشفى من ألما الذي يتغير فقط، إننا مع الزمن نعتاد عليه ويصبح جزءاً من يومنا، والطبيب لا يعرف ذلك هو يساعدني فقط على تقبل الألم في حياتي، وإدراجه في قائمة يومي. تعال فقد اشتقت إليك كثيراً. أحبك.

(٦٤)

باريس ٢٠١٤

قفز صحو فرحا وهو يقرأ أول رسالة من تسوغيك بعد سنتين كاملتين.
 كانت راشيل بجواره في المقهى.
 -إنّ تسوغيك بعث لي رسالة، وتريد أن تراني، إني أتعجب من قدرة تلك الفتاة على
 التأقلم مع الآلام والنهوض من القاع.
 -متى خرجت ؟
 -قبل أسبوع وهي الآن في بيتها مع ليفون.
 -في بيتها ؟!
 -هي من طلبت ذلك.
 -بعد أن كانت مصرة على الطلاق منه؟!
 -لم تنسى أنه وقف بجانبها طيلة فترة علاجها.
 -هل حدثك عن.... ؟
 -عن عمار بالطبع وكأنها تتحدث عن حالة الطقس، ألم أقل لك أنها لديها القدرة على
 التعايش مع ألمها وقد سألتني عنك.
 ابتسمت راشيل بحزن
 -تظن أنني تركتك؟

٥٠-

-هي لا تنسى أحدا، وتحس بنا جميعا، وماذا ستفعل أستذهب إليها ؟
 -ما زال الطيب يمنعها من رؤيتي، فأنا كنت بالنسبة لها كعمار نحن في نفس الخيانة.
 -بمعرفتي بها ستزاد حالتها سوءا إن لم ترها، فالطبيب يتبع العلاج بحذر، ولا يكثر
 بمشاعرنا العميقة التي نشعرنا بلذة التعايش مع أشخاص يسببون لنا الألم.
 مسك صحو يدها وقبلها

-شكرا على كل شيء..

تهدت راheel

-الحب مرض مزمن لا علاج له، والمريض لا يتقبل العلاج أيضا. ماذا ستفعل مع
 سما ؟

-إنّ حالتها تسوء يوما بعد يوم، أصبحت تنسى أكثر من ذي قبل، سأبحث عن بيت
 لمرضى الزهايمر.

-عليك أن تعود للإخراج فند سنة لم تفعل شيئا فقد بقيت ملازما لها، هناك سيعتنون
 بها أكثر.

-معك حق، إني نسيت أني مخرج، عليّ أن أعود قبل أن تستيقظ، وبعد ساعة سيذهب
 عمار إلى الجامعة.

-إنه شاب موهوب مثل أبيه

-إنه هديتي من السماء مع أني لم أكرث يوما بالأطفال، كنت أحبهم من بعيد، إنَّ به شيء سماوي لهذا أتفهم ألم تسوغيك ببعدها عنه.
حين عاد صحو إلى البيت كانت سما مازالت نائمة، وكان عمار يحضر نفسه للذهاب إلى الجامعة

-هل أفطرت ؟

-لا، لا أرغب بذلك.

-آه ما هذه الوسامة، ألم تقابل بعد إحدى الفتيات ؟

-ليس لدي الوقت، قد شاهدت فيلمك الأخير سأجري عليه بعض التعديلات.
-حسنًا أيها العبقري.

تهد صحو فيها هو قد أكمل عمار السنة ولم يتعرف بعد على فتاة واحدة في هذا البلد الذي يستهلك الحب كالخبز، ما زال يبحث عن صورة تسوغيك في ملاح كل فتاة، لكنه يواري ذلك بكثرة انشغاله بالعمل بعد أن درس الإخراج.

دخل صحو إلى المطبخ، كان قد ألصق على جميع الأدوات أوراق صغيرة، تحتوي أسماء كل غرض كي تذكرها سما.

بحث في اليوتيوب عن أغنية i wanna grow old with you

كان يغني مع الأغنية وهو يعدّ وجبة الفطور.

Another day، without your smile

Another day ;just passes by

But now i know

How much it means

For you to stay

Right here with me.....

استيقظت سما كانت تقف أمام باب المطبخ بجامتها الزهرية، وخفها الشتوي الكبير وهي تبسم وأصبحت تغني مع الأغنية.

-آه كم احبها أتذكر أول مرة سمعناها معا حين كنا في الصف العاشر، ونحن نضحك حين كنا نتخيل وجهينا حين نكبر ونصبح عجوزين. قل لي من أين هذه البيجاما وهذا الخلف ؟

ابتسم صحو

-تذكرين هذه الأغنية وتفاصيل حدثت معنا في الصف العاشر، ولا تتذكرين ما حدث الباردة ؟!!

-حقا اشتريناها الباردة ربما..مممم انتظر هناك أغنية أخرى، انتظر أتذكرها جيدا بدأ صحو بالغناء

-تعا ولا تجي، واكروب علي

قفزت سما فرحا

-آه (الكربة مش خطية اوعدي انو رح تجي، وتعا ولا تجي)

-إنها أغنيتك المفضلة

-قد كتبتها لك على دفتر اللغة العربية، وقد عاقبتك المعلبة، ولكنك لم تقل لها أني كتبتها لك.

مسك بيدها وأجلسها على الكرسي وتأملها وهي تأكل، كان ثوب الراهبة يخفي مفاتيح جسدها الأبيض النحيل، وشعرها الأشقر الذي ابيض وعينها الزرقاوين.
-لماذا لا تأكل ؟

-أأأأأأ.

-لكني سأأأأأ يوماً، إن الممحة التي في رأسي لا تتوقف، إنها تعمل دووما.

حدق نحو بعينها

-حين تحو تلك الممحة كل شيء سأأأأأ قلم الرصاص الذي يعيد كتابة كل شيء،
وحين تنسين سأأأأأ ذاكرتك، وحين تغفين سأأأأأ حلمك، وحين تمرضين سأأأأأ
دواؤك، وحين تتألمين سأأأأأ ضماداً لروحك، وحين تحزنين سأأأأأ ابتسامتك، وحين
تموتين سأأأأأ حياتك.

نزلت دمعة من خدها

-أنا متأسفة ولكن لا أريد أن أأأأأ، لو أن تلك الممحة تبقىك أنت فقط في ذاكرتي!

احتضنها نحو

-لا تبكي يا طفلي سأأأأأ ذاكرتي بيني وبينك، لا تقلقي لن تنسيني لأنني هنا في قلبك
وليس بعقلك.

- لا أخاف على نفسي بل أخاف عليك فبعد أن تركتك كل هذه السنين تركتك ذاكرتي، لكنك موقن أنني لست المذنبه حين أنساك، هناك شيء في رأسي سيجبرني على ذلك سامحي حين أنظر إليك ولا أعرفك حين ستصبح عندي مثل الآخرين.
وضع صحو يده على شفتيها

- لا أريد سماع هذا، يكفي أننا معا وفي باريس، سأدعوك يا طفلي اليوم إلى العشاء.
-حقا وسنسير في الشارع ونرى الذين يعزفون الموسيقى.
-وسنغي في الطرقات كما كنا نفعل حين كنا في مارسيليا معا.
-إنّ تسوغيك خرجت من المستشفى.
-آه تسوغيك حقاً ؟ من تسوغيك ؟ لم تكن معنا في المدرسة.
- تسوغيك أختي خرجت من المستشفى
-حقا يا للروعة انتظر

فتحت دفتريها وبحثت عن اسم تسوغيك وقرأت : تسوغيك حبيبة عمار، جاءت من فرنسا، ولديها فتاة اسمها باتيل

قال صحو

- ولكنها لم تعد حبيبته

-لماذا؟ أعاملها بسوء ؟

-لا قد انفصلا

-لماذا سأكله حين يرجع كي يتصالح معها.

-لا لا سيغضب

-أعرف عمار لن يغضب مني إنه طالبي المجد ويحبني كثيرا.

-إن عمار ابننا

-حقا

-ألا تتذكرني ذلك

-لا

مسح صحو على شعرها وقبلها على رأسها

-لا يهم يكفي إنك تحببته من قلبك

ابتسمت

-بالطبع فهو طالبي المحب، تحيل إلى قلبي أنه لم يترني حين جئت إلى هنا

لم يحذرها بأن لا تحدث عمار بشأن تسوغيك، فقد كان يعرف أنها ستنسى فلم يكثر
لذلك.

قال لها ليتحاشى الموضوع

-اليوم لدينا درس الجيتار

-إني انسى الكثير من النوتات

-سنتدرب كي لا تنسى، فقد قال الطبيب أنّ عليك أن تمارسي الهوايات التي تحبها

كي تعمل ذاكرتك بشكل أفضل.

-لكن عقلي يتعب كثيرا في التذكر

-إنه شيء طبيعي

-منذ سنة ونحن نتبع أوامر الطبيب بلا فائدة فالمحاة ما زالت تعمل بلا توقف.

-ألا يكفي أنها لم تحني بعد من ذاكرتك ؟!!!

-إني أنساك بهذا الوجه، وحين تذكرني بصحو وعن الماضي أتذكرتك، وأعرف أنكما

نفس الشخص.

-لا يهمني ذلك المهم أنك معي وكفى.

(٦٥)

مارسيليّا ٢٠١٤

كان القط لا يكو وباتيل يحيطان تسوغيك الممددة على السرير.

قالت باتيل

-ماما إنّ هذا القط يأكل كثيرا، وأشعر أنك تحببته أكثر مني، انظري كيف ينام

بمحضتك !

-تعالى فقد اشتقت إليك كثيرا، ماذا كنت تفعلين في غيابي؟

-أبقى مع أبي أسبوعا، وأذهب إلى آواديّس أسبوعا آخر، وقد كان أواديّس عمار
يعلماني العربية.

-حقا؟

-كان يسألني دوما عنك.

جاءت إيليك وقطعت سريعا حديث باتيل

-وبقيت معي أيضا، ألم نكن نذهب معا إلى مطعمنا (آارات)؟

قالت تسوغيك

-أفنتحت المطعم من جديد؟

-ولم لا ؟ وأصبح بريفير مسؤولا عنه

غمزتها تسوغيك

-بدأت الآن بربطه.

-كفني عن ذلك تسوغيك.

-ولم لا ؟ يكفيه النوم مع نساء أخريات، من فضلك أعطني الآياد.

ذهبت باتيل مع لايكو

قالت إيليك:

-أريد أن أحضر الطعام.

-أين ليفون ؟

-إنه يوم الأحد فقد ذهب للكنيسة

تصفحت تسوغيك الفيسبوك صدمها ذلك الخبر الذي ملأ صفحات الفيس لأصدقائها العرب.

(جثة لطفل اسمه (آلان) جرفته الأمواج إلى شاطئ بودروم التركي المطل على بحر إيجا محاولا مع أمه (حنين) الوصول إلى جزيرة (كوس) اليونانية).
حدقت تسوغيك بصورة حنين وآلان.

لا تدري كم من الوقت مضى وهي تحديق بصورتها ومنظر آلان الممدد على الشاطئ..
كان صوت حنين يملاً أذني تسوغيك وهي تروي لها :

حين تركت لك الرسالة ورحلت كنت قد تعرفت على امرأة سورية، قال لي زوجها
أنّ هناك مهرب سيساعدكم على الذهاب إلى اليونان، وقال لي أنّ آلان سيحظى
بالعلاج.

لم أفكر لحظة واحدة أعطيته ليرقي الذهب، وأوصلنا سائق الى الحدود الفاصلة بين الحدود التركيّه والسوريّة لنركب بقوارب الموت.

كان العسكر التركي يطاردنا كي نرجع، فقد كان الموج عال احتضنت آلان الذي كان يرتجف من البرد وأنا أردد : اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاائك، أسألك بكل اسم سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور بصري، وجلاء حزني وذهاب همي. لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

جاءت موجة أخرى وقلبت القارب، أصبحنا في عمق البحر كان يبكي بشدة، رفعته بيدي رغم ثقل الماء الذي هدّ يدي. لا أدري كم مرة غرق وأعدته إلى يدي. كم مرة غنيت له الأغنية التي يحبها كي ينام

(لو بقدرع السما اطلع

هيك بلا ما حدا يقشع

وقطف من السما نجوم

وزتن يحرش أمي...)

نام ولكن إلى الأبد، وبدأت أنفاسي تنتهي مع أنفاسه.

وإن سألتني بماذا كنت أفكر لحظتها، لم أفكر بالنجاة بل كنت أرغب بالموت لأني مت حين خرجت من حلب وحين ماتت أمي وقتل زوجي.

ماذا تعني الحياة بدون الذين نحبهم؟! بدون بيت نعلق عليه صورنا وصورهم؟!
 ما هي الحياة بلا وطن!!!!
 كانت بي رغبة عميقة بالتلاشي والاختفاء حين أصبحت عبثاً على كل أحد، قد قدّم
 إليّ الموت بشكل مجاني.
 لم يصرخ الآن كان يبكي فقط لأنّ هذا العالم الكبير لم يتسع له، لم تستطع خارطة
 العالم أن تحتوي ابني وتخبئه في بيت ما.
 قد تبلل جسده النحيل سيشعر الآن بالبرد من دوني. هل يقسو الموت على الصغار؟
 ستلف صورة ابني الآن على كل العالم، ولم يكثرث به أحد حين كان مريضاً، سيبكي
 عليه العالم لدقائق ثم ينسى.
 سينام حبيبي الآن بثيابه المبللة، ولن يكثرث له أحد، وسيدفن بمقبرة غريبة بعيداً عني.
 كنت أرغب بالموت كي لا أموت في كل لحظة وهو يذوب أمامي.
 كان البحر أحسنّ من كل هذا العالم الذي لفظنا قبل أن يلفظنا البحر.

طلبت تسويغيك من ليفون أن يشتري لها جريدة لوموند، وقصّت صورة الآن، ووضعتها
 على جدار غرفتها كي تتذكر أنّ الألم واحد مهما تعددت أسبابه.

(٦٦)

باريس ٢٠١٤

كانت راشيل تنفخ البالونات في غرفة الاستقبال في بيت رعاية مرضى الزهايمر،
 وذهب صحو ليحضر طبق الحلوى بالشكولاتة كما كانت تحبه سما.
 كانت راشيل تنفخ البالونات وتبكي، فالיום سيتزوج صحو رسميا من سما أمام الجميع،
 وهي التي كانت عشيقته لأعوام في الخفاء..
 منذ طفولتها والزينة كانت تثير فيها الحزن بفرحها الزائد الذي يذكر بغياب أحد ما لا
 يشاركها الفرح.

كانت راشيل أنيقة بحزن كعمر متأخر عن الفرح، وكقمعد ذابل في حديقة عامة تأخر
 عشاقه عن موعدهم.

جاء عمار وقد ارتدى بدلة سوداء..

نظرت إليه باندهاش

- ما كل هذه الوسامة !!!!

ابتسم عمار

- أنا الولد الوحيد الذي سيحضر زواج أبويه.

- إنك محظوظ

- هل انتهيت من الفيلم ؟

-بقي قليل من التوش.

-أنت الوحيد الذي يستطيع أن يعيد آوايس إلى الإخراج.

-أظن أنه قد نسي كل شيء حين وجد أمي.

تمتت راشيل

-حقاً إنه ترك كل شيء

قال عمار:

-متأسف لم أقصد ذلك، أقصد أنه نسي عمله.

-لا تكثرث لذلك.

جاء صحو وقد ارتدى أيضاً بدلة سوداء.

قالت راشيل لعمار

-انظر قد جاء أخوك الكبير

ضحك عمار

-إنه وسيم أكثر مني

قال صحو:

-كفّا عن الحديث إني أختق بهذه البدلة، فلم أذهب يوماً إلى أي مهرجان سينمائي

ببدلة.

جاءت المديرية :

-هل كل شيء على ما يرام ؟

قال صحو:

-أعلم أحد من المرضى؟

ابتسمت المديرية

-لا وإن علم أحدهم سينسى، سأذهب لأرى سما، فقد تركتها مع المزيّنة.

قال عمار:

-سأتي لأساعدك

سألت راشيل صحو

-هل ستأتي تسوغيك؟

قال صحو:

-اتصلت إيليك قبل يومين، وقالت أنها لن تأتي، وتخاف أن تصاب بالصدمة وهي

حامل

-من سيأتي؟

-إيليك وباتيل، وليفون سيبقي مع تسوغيك سيصلون مساء.

في المساء جاءت الممرضة وساعدت سما على ارتداء فستانها الأبيض.

قال لها عمار

-كم تبدين جميلة!

-وأنت أيضا.

سألت سما:

-لماذا ارتديت هذا الفستان ؟

-لأنك ستتزوجين

-من ؟

-صحو

-ولكننا لم نكمل بعد الثامنة عشر ؟

-بل أكملتما اليوم الثامنة عشرة

-حقا لن يغضب الرب إذن منا ؟

قال لها عمار مازحا :

-الرب سيغضب إن لم تتزوجا.

في الثامنة مساء نزل الجميع إلى الإستقبال.

قالت سونيا حيث رأت الزينة

-إنه عيد الميلاد متى سيأتي بابا نويل، قد تأخرت ماما ولم تصلح لي شعري.

نظرت إلى زوجها بيتر :

-أنظر لم تصلح لي شعري جيدا ستوبخني أمي لأنني لم أرتدي فستان العيد.

قبلها بيتر.

-إنك جميلة هكذا بهذه التنورة الحمراء، وبجذائك الذي يشبه حذاء ساندريللا.

كانت ماريا تحدّق في المكان.

- قد وصلنا متأخرين.

قال لها جيمس :

-لا ندوة لأطباء العيون ؟

نزلت سما وقد كان عمار يمسك بيدها

نظروا جميعهم إلى الدرج حيث كانت سما مرتدية فستانها الأبيض

قالت سونيا

-إنها الملاك الذي تحدثت عنه أمي الذي ينزل في عيد الميلاد ويقبل الأطفال.

قال بيتر :

-الملائكة لا تنزل على الأرض، لا يوجد سوى شياطين على هيئة بشر. إنها جميلة حقا

-أهي أجمل مني ؟

-لا بالطبع عزيزتي

وقبلها على فها.

كان صحو ينتظر قدوم إيليك وباتيل، وحين تأخروا مسك بيد سما وخاطبهم

-اليوم ليس عيد الميلاد بل هو زواجي من سما.

في هذه اللحظة دخلت إيليك وتبعها باتيل ثم ليفون ثم تسوغيك.

التقت عيناهما كما التقتا أول مرة، وتوقف القدر لثانية كما توقف أول مرة أمام مدرسة

الراهبات حين التقيا.

قالت تسوغيك بعينها لعمار

-لم تتغير لكنك أصبحت أكثر وسامة، اشتقت لغمازتي عينيك التي لا يراها إلا أنا.

قال لها عمار بعينه
 -طفلي المدللة قد ازداد شعرك طولا في غيابي.
 أزاحت بصرها سريعا عنه
 ركض صحو كطفل باتجاه تسوغيك.
 -يا حلوتي كم فرحت بجيئك قد كبر بطنك كثيرا، إن باتيل معها حق بأن تضحك
 من منظرك
 قرصته.
 -إنك تقف دوما بجانبها
 ضمها صحو
 - كم اشتقت إليك.
 لم تسلم تسوغيك على عمار وتعاملت معه كأنه ليس موجودا.
 عاد صحو إلى مكانه بجانب سما التي نهضت من مكانها.
 -أريد أن أقول كلمة، أعرف أنني سأنسى بعد قليل أنني كنت بينكم، وارتديت هذا
 الفستان الأبيض، وإني تزوجت من صحو، ولكني سأبوح لكم بشيء ربما سينساه
 معظمكم بعد أيام.
 قد فعلتها مرة حين كان عمري ثمانية عشرة عاما وئمت مع صحو، أنا التي حلمت أن
 تكون راهبة كانت خطيئتها أنها أحبت شابا حد الشغف، حد أنها عشقت كل تفاصيله
 منذ تلك اللحظة وأنا أهرب منه متخفية خلف ثياب الراهبة ولكني لم أستطع نسيان

خطيئتي، أتعرفون لماذا لأنني لم أتوقف عن حبه لحظة واحدة، وكان غفران خطيئتي هو أن أعود إليه واكتشفت ذلك متأخرة بعمر، ولكنني بالنهاية وجدته. أحيانا أنسى أنه معي ولكنني أبقي أحبه حين يبدأ بلسمي أو بتقبيلي أتذكر لحظتها صحو الذي كان يجلس معي على ذات المقعد في الصف.

أترون ما هو المؤلم في مرض (سارق الذكريات) أنه يجبرنا على نسيان ما هو نحن، فالآخر بالنهاية هو نحن وإننا نؤلم الآخرين بنسياننا لهم، فالذي ينسى لا يحس بالألم بقدر ما يحسه الذين يحيطون به.

صَفَّقَ الجميع في لحظة قدرية وكأنّ الذاكرة عادت إليهم للحظات. قبلها صحو على شفيتها ووضعت المديرة الموسيقى، وبدأ الجميع بالرقص، ولم يلاحظ أحد غياب عمار سوى تسوغيك.

جلست راشيل بجانبها.

-إنّ بطنك المدوّر جميل جدا.

-حقا؟ يكفي أنّ الحمل هو الشيء الوحيد الذي يميزنا عن الرجال، فهم لا يستطيعون احتمال أرواحهم، فكيف سيحملون روحا أخرى !

ضحكت راشيل بصوت عال. سألتها تسوغيك :

كيف حالك في هذه الأيام ؟

-لم أستطع الابتعاد عنه

-وقد تزوج الآن.

-قد اعتدت عليه، ولم يعد لي أحد غيره أتكى عليه، صار آواديس من روتين يومي الأساسي.

-وحين يكونان معا ؟

-أشعر أحيانا بالغيرة ولكن سما تنسى أحيانا أنّ صحو معها. فمن أغار؟! إني أعني الآن بها مثل آواديس. لماذا لم تسلي على عمار ؟
-لم أستطع فعل ذلك.

-لأنك ما زلت تحببته فتعاقبته بالصمت.

-ربما معك حق أريد الذهاب إلى الحمام.

أشارت لها راشيل إلى الحمام.

جاءت باتيل بالقرب من سما فأجلستها في حضنها

-أنا باتيل أتذكريني ؟ إنك أجمل بهذا الفستان من ثوب الراهبة.

-حقا شكرا لك ولكن أين التقينا ؟

-في تلك الحفلة عندما ذهبنا معا إلى عمان.

-آه حقاً قد قلت لي اسمك لكنت نسيت.

-باتيل

-مؤكد أنني سأنساه بعد قليل

قالت باتيل

-إنك كبيرة لماذا تتزوجين الآن؟

-حقا أأبدو كذلك ؟

-آه

-آه نسيت اسمك

-آه لماذا تنسين كثيرا ؟!!! اسمي باتيل باتيل

-إني أنسى كثيرا . قبل سنتين أجريت فحوا، وقال لي الطبيب أني أنسى كثيرا

-وأنا أيضا.

-حقا ؟

-أنسى أن أحل واجباتي المدرسية وأنا أشاهد نوم وجيري، فتغضب أمي كثيرا، ولكن

أنت تنسين ولا أحد يغضب منك.

ضحكت سما

سألها باتيل :

-هل أعطاك الطبيب دواء ؟

-لا أنا مريضة بمرض الزهايمر هل سمعت به ؟

-لا. هل هو معدي كالرشح ؟

-لا

-وإذا لا يوجد دواء ستموتين ؟

-لا لا. صحيح أني أنسى ولكن لن أنسى من أحبهم. أتعرفين الفأر الذي يأكل كل

شي ؟

-اه

-نسيت ما أريد أن أقول حسنا هناك فأر في رأسي يأكل ذاكرتي.

-ماذا؟!! فأر؟!!!

-آه ويأكل كل شيء..

-ولكن القط سينتصر عليه

-لا يريد القط مساعدتي.

-سأجلب القط لا يكو، هو يجب أني كثيرا سأخبرها أن تحضره ليأكل الفأر الذي في رأسك، لا تقلقي

-هل قلت لك أني أنسى كثيرا ؟

-آه لقد قلت لي.

جاء صحو

-ماذا توشوشينها يا باتيل ؟

-أنا حزينة

-لماذا؟

-إنها تنسى اسمي كثيرا قالت لي أنه هناك فأر في رأسها ويأكل ذاكرتها، سأكلم ماما

كي نحضر لا يكو كي يقضي على الفأر.

-حسنا كم أنت شجاعة

-أين عمار ربما عنده فكرة لإخراج الفأر من رأس سما

التفت صحو حوله ولم يجده، وتذكر أنّ تسوغيك لم تصافحه أشار إلى راشيل فاقتربت منه
-أين عمار؟

-ذهب سريعا حين لم تصافحه تسوغيك.

-وأيّن تسوغيك؟

-ذهبت الى الحمام

-ابحثي عنه فباتيل تريد رؤيته.

حين خرجت تسوغيك من الحمام، وجدت عمار على السلم ولكنها لم تتوقف.
-تسوغيك.

توقفت بدون أن تلتفت إليه

-ماذا تريد؟

وقف أمامها ولكنها لم تنظر في عينيه، مسك بيدها وهي ترفض السير معه إلى أن وصلا
إلى الشرفة.

-قد آلمتني. ماذا تريد لماذا عليّ أن أنظر في عينيك وأتكلم معك، ألاعيش الألم مرتين
!؟

منذ سنتين وأنا قابعة في المصح النفسي. أظنّ أفي نسييتك وأصبحت بلحظة عمّتك ؟!!!
-ألهذا عدت إلى ليفون وتنتظرين منه طفلا ؟!!

-أكان عليّ أن أنتظر معجزة لتعيدنا إلى بعضنا؟!! فعلت ذلك لأجلك.

-لأجلي؟!!!

-نعم ضئئت بنفسي مرة أخرى وءءت إلى ليفون بعء أن تطلقنا كي تعيش أنت حياة جءيءة مع فتاة أخرى.

-وتظنين بءلك أني نسيئك، إني أءءرك كلها رأيت أبي وأمي معا، إنها يشبهاننا تماما لءلك أءعمء البقاء خارج المنزل كي لا أراهما وهما يمارسان نفس العاءات التي كنا نمارسها.

-تءءء وكأني نسيئك، إني أءلم في كل لحظة كلها تءءرت أني سأراك مع فتاة أخرى ولن تكون لي.

-لماءا علينا أن نحيا كل هذا الألم واللءان تسببا به يتزوجان الآن ؟!!

مسءت تسوغيك ءموعها

-إني أغرق في الألم في كل يوم لكنني أريد أن أحيا لأجل بائيل التي تحتاج إلي، وإلى طفلي القاءم، قء جربت الموت قبل سنتين، ولا أريد أن يءوقه أبناي من بعءي. جاءت راشيل ومعها بائيل ركضت بائيل سريعا نحو عمار.

-لماءا لا تأتي لزيارتنا كما كنا في الأردن؟

انسجبت تسوغيك ولحقها راشيل

-أأنت بخير؟

-كنت بحاجة أن تكلم كي أوقن من أني نخلصت من هذه التجربة، وإني قاءرة على الاستمرار

جاء ليفون :

-أين أنت ؟ قد افقدتك لماذا تبكين؟

-لا شيء كنت أصلح ميكاجي، أريد أن نذهب الآن من هنا.

-حسنا لا تقلقي سنذهب حالا.

انفجرت تسوغيك بالبكاء حين ركبت في السيارة، وقد حاولت أن تخرج بدون أن يراها صحو، بكت كما لم تبكي من سنتين، وقد كانت فرحة ببكاءها أحست أنها بدأت تلد من الآلام.

كم انتظرت منذ سنتين ذلك اليوم الذي ستلتقيه به، وماذا ستقول له. أحست أنها خلقت من جديد.

اتصل بها صحو

-أأنت بخير ؟

-لا تعلق حبيبي متأسفة لأنني خرجت مبكرا. استمتع بليلتك

-سأتي إليك صباحا مع سما. هل أعجبك البيت ؟

- إنه جميل ودافئ.. حسنا سنشرب القهوة مع فيروز كما كنا نفعل بالسابق.

-وكي تعطيني مخطوط كتابك.

-قد أحضرت لك نسخة تصبح على خير.

في الثامنة صباحا اتصلت تسوغيك بصحو

-أحضر معك راشيل وعمار

-أنت متأكدة من ذلك؟

-ولم لا، علينا أن نعتاد على رؤية بعضنا فنحن عائلة واحدة.

-حسنًا كما ترغبين.

حين جاؤوا صاغت تسويك عمار أمام اندهاش الجميع وقالت له

-تعال يا سنفور الغبي لنحضر الفطور معا.

نهض عمار

-حسنًا يا شرشيل

دخلا المطبخ

-عمار أعطني سكينًا من الجارور الثاني

حين ناولها السكين اصطدما ببعضهما

-متأسف.

-متأسفة.

سكا لبرهة ثم ضحكا معا

قالا معا :

-أبله

-بلهاء

جاء صحو وأطل برأسه من خلف الباب

-آه صغيراي هنا... تعالا إلي

ضمهما صحو بقوة وقبلاه بنفس اللحظة

جاءت باتيل مسرعة

-وأنا؟؟

عانقوا بعضهم وهم يضحكون.

قالت تسوغيك: وهم يشربون القهوة

-علينا أن نعود مساء إلى مارسيليا

-ابقوا لأيام

-يجب أن أعود إلى الجامعة ربما سأدرّس في السنة المقبلة روايتي الجديدة

قال صحو: :

-حقاً.. أين نسختي؟

أخرجت تسوغيك من حقيبتها ملفاً وأعطته لصحو

قرأ صحو بصوت عال

-سارق الكرز

قالت تسوغيك: :

-كم ألهمني آني لأكتب هذا الكتاب، أظن أننا أصبحنا صديقتين بعد هذا الكتاب.

ضحكت إيليك

-لم نكوناً يوماً صديقتين.

-ولم نكن يوماً عدويتين.

كانت سما تعزف على الجيتار وباتيل بجانبها وتسألها

-هل ما زال الفأر يأكل ذاكرتك؟

-أي فأر؟

-أنسيت حين حدثني في الحفلة؟

-فأر؟ حقا؟!! هل حدثك عن فأر؟!!

قالت راشيل لتسوغيك

-عليّ أن أعترف لك بشيء، إنك إنسانة قوية حين تتعين، وتقعين، وتقعين، تقومين، وتلملمين جراحك.

-ربما لا أكون بهذه القوة بل أؤمن ان المحبة تغير كل شيء، والوقت لا يغير شيئا إلا إذا نحن تغيرنا، الزمن جامد ونحن الذي نغيره وهو لا يغيرنا.

....

في الصباح عاد كل أحد إلى بيته، عادت إيليك وليفون وتسوغيك وباتيل إلى مارسيليا، وعادت راشيل إلى بيتها، وصحو وسما وعمار إلى بيت الرعاية.

كانت تسوغيك تنظر من نافذة الطائرة وهي تعبر الغيوم تنفست بعمق فقد تخلصت من أكبر شيء كان يثقل على حياتها، أنها قبلت عمار مجددا في حياتها، عاد عمار ليشكل جزءا من حياتها ولكن بطريقة أخرى.

وكانّ الحب لا ينضب بل يتحول إلى أشكال عدة كي يبقى معششا في داخلنا.

الفصل السابع

(٦٧)

مارسيليّا ٢٠١٤

أخي الحبيب صحو...

لا أدري إذا كنت ما زلت أواريك من الموت بورقة، أم أنها كانت لعبة منك كي أفيض بك رسائلًا وحبًا. وكلانا قد صدقنا هذه اللعبة وأحببناها واعتدنا عليها. هناك حكمة أحبا تقول : ما هو الأصدق من الصدق، الجواب : القصة نفسها. لذلك كتبت لأنّ كان لديّ قصة وأصدق من الصدق، وتؤلم أكثر من الألم نفسه. أكتب إليك الآن من المستشفى، وأخيرا قد جاء روح من العتمة إلى النور.. طيلة فترة حملي كنت أقرأ انجيل يوحنا هناك ترجمة أخرى لأول آية " في البدء كان النور والنور هو الله " بدل "الكلمة"، في نظري الدائرية للكون، تعلت كيف أبحث عن النور، والنور هو الله، وإذا رأيت الله سأحترق.

أنا الموجة التي غرقت في المحيط لتعود من جديد، أتعرف قصة السمكة التي أرادت أن تجرّب حياتها خارج البحر، وأما كانت تخيفها بقولها : حياتك فقط داخل البحر، لكنها ظلت تسعى إلى أن خرجت من البحر، وماتت وعرفت المحيط، وولدت من جديد من الله.

أنا تلك السمكة، والبحر هو الحياة حين ذقت الموت، وقفزت عرفت الحياة.

أخذوا (روح) ليحمموه. حين خرج من بطني كان ككلمة لحمية لا اسم له، ولا ذاكرة، ولا معتقدات. وقد علمني ذلك درسا بأن لا أسقط عليه ذاكرتي ومعتقداتي، فقد جاء من العالم الآخر نظيفا، فلماذا أوسخه بأفكاري؟!.

إني أتواصل مع عمار منذ يوم زواجكم، أي من ستة أشهر. كان عليّ أن أعيده إلى حياتي ليس لأجلي أولا بل لأجله.

إنّ لديه الآن صديقة فرنسية قد وضعها أنا في طريقه، ويكمني دوما عما يحدث معه فإن بقيت أرفضه سأحمله ذنبا لا شأن له به. لا تسألني ماذا أنا بالنسبة له الآن، ربما روحه التي يتكلم معها عن همومه وأسراره. استطعنا أن نؤطر علاقتنا بدون أن تتنازل عن محبتنا لبعضنا.

إنّ ليفون بكافي الرجال قد شعر بالانتصار حين حمل ولي العهد، تلك الكلمة اللحمية التي أثبتت ذكوره للحظة. أشعر بأنّ الرجال أغبياء حين ينتظرون مولودا ذكر ليثبتوا رجولتهم (إني أمزح فقط).

طيلة فترة حملي كانت سورة (مريم) هي رفيقتي الوحيدة، كنت أبكي على مريم التي أنجبت ابنها تحت النخلة وحيدة في الصحراء بلا أحد بلا أكل ولا شرب، وقد أحاطها الرب بالحنان. ألم تقل جدتنا الفلسطينية كما رويت لي (أنّ الذي خلقنا يحبنا أكثر من الذي أنجبنا).

قد صدر سكّابي (سارق الكرز) البارحة أي وأنا ألد (روح) أي إني شعرت بألم المخاض مرتين.

لن أبعث لك نسخة لأنك ستأتي إلي.

قد أعطيتني ماما قبل أسبوع مذكرات آتي التي تركتها لها.

كم كانت آتي متطرفة بحبها وبكرهها وبفرحها وبآلامها. كم كانت امرأة استثنائية !

كم كانت طريقنا متقاطعة ولكننا لم ندرك ذلك.

أنظر إلى (روح) به منك،ومني، ومن ليفون، ومن باتيل،ومن عمار، ومن آتي، ومن

أمي،ومن العالم كله. لأول مرة أختار اسما بدون أن أكثرث أن يكون أرمينيا أم لا.

بالطبع بدأت باتيل بالغيرة أخاف أن أتركها معه وتخقه. إنها مثلي حين تحب تملك

الآخر وتموت من الغيرة.

تعال لنقضي معا إجازة نصف السنة، اشتقت أن نكون جميعنا معا، وكي نحتفل

بصدور الكتاب

اشتقت أن أضحك بصوت عال، وأن أضرب عن الحزن.

أريد لروح أن يعتمد على يد ليفون، وأن تؤذن أنت بأذنه.

....

حين انتهت تسويقك من كتابة الرسالة وجدت رسالة من كاجين وعائشة ياران لها

بعد أن بعثت لهما صورتها وهي في المستشفى وهي تحمل روح بين ذراعيها.

ووجدت رسالة أخرى من عمار

-ماذا تريد يا سنفور الغبي ؟

-أطمئن عليك يا شرشيل.

-قد ضحكت كثيرا على نكتة البارحة التي بعثتها لي، تعال مع صحو يوم الخميس وأحضر معك حبيبتك (أليس)
 -حقا.. سنقضي الإجازة معا ؟
 -اه

-ولماذا سأحضر (أليس) ؟ إنها لا تلاحظ غمازتي عيني.
 -وليفون لا يلبس شعري، كن ولدا مطيعا علينا أن نفكر بالخطبة
 -ماذا ؟

-ماذا كنت تظن إذن ؟!!
 -قد درست أليس في الجامعة، وأعرفها جيدا إنها مثلي.
 -حادة وعاطفية

-بالطبع
 -وعليك أن تتقبلنا
 -ههه أشعر أنني في الجيش
 -يجب أن تعتاد على عائلتنا كي لا تصاب بالجنون لاحقا.
 -معك حق وكى لا تدم.

(٦٨)

باريس ٢٠١٤

ذهب عمار إلى الجامعة وذهب صحو ليقابل صديقه في العمل، حين عاد صحو وجد راشيل بجوار سما التي كانت نائمة .
قال صحو: :

-إن فحصها الدوري ليس جيداً، في كل يوم تزداد غربتها.
-ألاحظ ذلك ولم تعد تبالي بأي شيء حتى بالعزف على الجيتار. ماذا يريد منك صديقك ؟

-أن أتهي من آخر فيلم لأشارك بمهرجان دولي.
-هذه الفرصة المناسبة لتعود من جديد.
-ولكن بقي أن أضع المشهد الأخير .
اقترب صحو من سما فوجد بيدها ورقة أخذها وفتحها

سألته راشيل

-ما هذه ؟

-لا أدري

بدأ يقرأ بصوت عال.

حيلي صحو....

في كل يوم أنسى أكثر من الذي قبله، والثقب الذي في رأسي يكبر أكثر حتى لم أعد قادرة على التحكم به.

سامحي إذا جاء ذلك اليوم الذي سأنسك به تماماً. عدني أن لا تملّ مني حين أحتاج للذهاب للحمام، وحين تحممني وأتكيء عليك بكل شيء حتى أصبح أقل من قدرة الأطفال، وأعتمد عليك بكل شيء..

أشعر أنني أغيب في هوة حقيقة معتمة تسمى الفراغ، وأحس أنك أنت الوحيد الذي تملأ هذا الفراغ بوجودك، في كل يوم يزداد سفري إلى المجهول إلى اللانهاية. نحن في الحقيقة لا ننسى بل هو الزمن الذي يبدّل الذاكرة، ويرتب أثاثها بالطريقة التي تناسبه، ونحن نقف أمامه جامدين، ولا ندرك في النهاية ما الأثاث الذي اختبأ في علبة النسيان، وما هي الذكريات التي أبقى عليها الزمن ليعيد تجميعها لتكون صالحة للجلوس عليها، والبشر في النهاية يضعون النسيان في قائمة النعم الربانية التي يحسدون عليها.

لو بمقدوري أن أخبرك عن عيون سارق الذكريات، أنا لا أستطيع أن أنسك لأنك تحيا بي.

أريد أن أكتب إليك قبل أن يتلاشى كل شيء في رأسي. كيف لي أن أنسى رائحتك، لون عينيك، صوت ضحكك، أصابعك النحيلة، شعرك الأشقر التي تلمسه يداي، صوت فيروز حين كنا نسمعه معاً، شفئك الصغيرتين كجة بندق.

ساحني إذا نظرت يوما في صورتك، ولم أقم بأي ردة فعل، فالصور لا تعني لي شيئا
 فقد صورتك في قلبي للأبد.
 سأظل أتذكرك جيدا بلون عينيك الصيفيتين، بلون بشرتك، بشكل أصابعك، برائحة
 ثيابك، بصوتك الذي يحمل معاطف الربيع.
 بعدد أحلامك المنسية في زوايا جسدي، بقميصك الذي يلامس جسدك أكثر مني،
 وحتى حين أخلع عند الموت فستان ذاكرتي.
 ستبقى عالقا في جميع الوجوه والأسماء مبلّلا بي، فلهوت ذاكرة أيضا، ولذا كرّتي رائحة
 الياسمين الذي يتكأ على الجدار، ولا ينام تماما...!
 سأنسى أنني كتبت لك هذه الورقة، ولكن عدني إن نسيتك أن لا تنساني.

سقطت دموع صحو على الورقة، وبدأت راشيل بالبكاء
 اقتربت منه

-إنّ سما بحاجة إليك الآن أكثر من أي وقت مضى.
 -إنها تشعر بأنها النهاية وتذكر ذلك جيدا، وهنا يكمن ألمها، أنها تعي ألمها.

(٦٩)

مارسيليّا ٢٠١٤

اجتمعوا جميعهم في بيت آني في مارسيليّا، وجاءت الممثلة فارتي
قالت فارتي.

-آه كم تغيرت يا تسوغيك، ولكنك ما زلت الطفلة الخجولة التي أجلستها على ركبتني حين
جئت مع صحو إلى موقع التصوير، ونجّلت من قول اسمك.
ابتسمت تسوغيك

-أتذكر ذلك اليوم جيداً
نظرت فارتي إلى باتيل
-آه من هذه الصغيرة؟

-ابنتي باتيل
أجلستها في حضنها
-كم تشبه آني !

بعد أن انتهوا من الأكل، وزعت عليهم تسوغيك نسخاً من كتابها.
ابتسمت فارتي.

-سارق الكرز إنها قصة آني المفضلة، اختيار موفق. كانت مشكلة آني دوماً أنها لا
تنسى.

نهضت تسوغيك وأحضرت صندوقاً فتحتته، وأخرجت صورتين ووضعتهما في برواز
وعلقتهما على الجدار في الصالون .

الأولى كانت لآني، والثانية لكوهار، وطلبت من باتيل أن تقترب منها، وأخرجت
قرطي الحلق، وألبستهما لباتيل .

-حان الآن وقتهما يا باتيل .

-هل أستطيع الاحتفاظ بهما دوما ؟

-بالطبع .

قالت تسوغيك: بصوت عال .

-ها هي آني عادت الآن إلى الحياة عن طريق باتيل .

قبلت إليك باتيل بشدة .

قالت تسوغيك: :

-والآن وجدت آني وكوهار موطنهما على هذا الجدار .

قالت إيليك: :

-وأنا لديّ خبر لكم .

نظر إليها الجميع، اتصلت ببريفير وطلبت منه الدخول، ذهبت نحوه وقبلته .

-قررنا أن نتزوج أنا وبريفير .

صقق الجميع فرحين

قالت تسوغيك:

-وبقي عمار وأليس.

غمزها عمار.. قالت له تسوغيك

-لا تغمزني يا سنفور لن تهرب من الزواج.

صمت عمار ثم قال لها

-كما تشائين

أحضرت باتيل لايكو واقتربت من سما

-لايكو سيأكل الفأر الذي برأسك، وستذكرين اسمي دوما.

ابتسمت سما

-لم يبق شيء للفأر أن يأكله.

(٧٠)

مارسيليا ٢٠١٤

في السابعة ليلا قال صحو: لتسوغيك

-تعالى يجب أن نذهب فى مشوار وحدنا.

ركبا السيارة، وتوقف صحو عند مقبرة

-قد وصلنا

-لماذا جئنا إلى هنا ؟

-تعالى،

-أترين هذا القبر الذى بلا لافتة ؟

-آه

-هو قبر أينا نديم.

(ستة وعشرون عاما) وهذا القبر قابع هنا فى هذه المقبرة الفرنسية.

لم ألقِ عليه يوما التحية، لم أصافحه، لم أتحدث معه عن الطقس، وهل كان يحس

بالبرد. عمر بأكملة وهو بجوارى..

الآن أصبح لى وطنا، ولم أعد يتيم بقبر...

أستطيع الآن زيارته كما يفعل الجميع مع موتهم، أحمل بيدي باقة زهر.

قالت تسوغيك:

- كم بحثنا عنه لنجده قابعا بجوارنا منذ سنين.
 في الحب كما في الموت الأسماء لا تلعب أيّ دور في تلك المسرحية المجهولة، كما أنّ
 لافتات القبور الوهميّة لا تدلّ على أحد ما..
 كما أتينا إلى الحياة بلا أسماء ولا عنوان بيت، علينا أن نرحل بنفس الطريقة، بخفّة
 أمتعتنا، وعلى لافتة بيتنا الأخير يوقّع البياض عشقه !!!!

(٧١)

مارسيليّا ٢٠١٤

كانت تسوغيك تضع رأسها على كتف صحو، وهما جالسان أمام البحر
سألها صحو :

-أحقا نسيت عمار ؟

-أتظن ذلك حقا ؟! وماذا أفعل بغمازة عينيه التي لن يراها غيري، الألم لا ينسى...
الألم يصبح رواية، قصيدة شعر، أغنية، ولحنا ولكنه لا يُنسى.

-والحب لا ينسى

- لذلك نتألم حبا. الن أدركت معنى هذه الجملة التي قتلها لي قبل سنتين.
-انتظري سأعطيك شيئا.

ذهب إلى السيارة، وأخرج مغلفا، وأعطاه لتسوغيك.

-ما هذا ؟

-جميع رسائلك التي كتبتها لي وأنت في سن العاشرة إلى الآن.
-حقا ؟!!

قبّله على خده

-قد حان الوقت لأعيدها لك ربما تستطيعين جمعها في كتاب.

-صحو ؟

-ماذا ؟

-سأذهب مع ليفون إلى أرمينيا المهجرة في تركيا ثم إلى أرمينيا الجديدة.

-لماذا هذا القرار ؟

-كي أجد جذوري أو لفكرة مجنونة برأسي حين قرأت مذكرات آني تحدثت عن مخطوط

كتبه أبوها، ولم يكمله حين أخذه الجنود، نجبأته أمها في حديقة البيت .

-تسوغيك... أجننت ؟!!

-ربما لم يكمله كي أعود أنا وأبحث عنه.

-وتتركيني ؟

أشارت إلى قلبه : أنا دوما هنا.

صمتا أمام البحر.

قال صحو:

-أتذكرين فيلم الكرتون (لحن الحياة)

-والآنسة صفاء

-أتذكرين آخر أغنية في الحلقة الأخيرة حين افترقت الآنسة صفاء عن طلابها.

-أذكرها (لن تباعدنا أيها السفر) كنا نغنيها معا في المطبخ في ليالي الشتاء..

ضمها صحو

-هيا لنغنيها

تشابكت أيديهما وبدأوا بالغناء، والبحر يحمل صوتيهما إلى البعيد.

لن تباعدنا أيها السفر
نلتقي يوما وفي الدنيا قمر
عندما نعود للوطن
سوف تزهو لنا الأيام
فارقصي للنداء يا أغائنا
لن تباعدنا أيها السفر
نلتقي يوما وفي الدنيا قمر.

(٧٢)

باريس ٢٠١٤

حين عاد صحو إلى دار الرعاية
كانت سما جالسة في الحديقة صامتة، ويدها دقتر صغير.
اقترب منها..
بدأت الممرضة بالحديث.
-سما... هذا صحو.
فتحت لها الدقتر وأشارت إلى صورته.
-أتحيينه ؟
أومأت برأسها..
همست الممرضة بأذنه
-ستقلق إذا عرفت من الضيف الذي سيأتي إليها، وستنساك سريعا
-هل بمقدورنا أن نبقي وحدنا قليلا؟
حين ذهبت الممرضة
اقترب منها وضما بذراعيه، وعرف أنها في عالم لا ينتمي إليه.
فتح مجددا الدقتر وأشار لها بيده إلى صورته فابتسمت مجددا، أخرج من جيبه صورتها،
وألصقها بجانب صورته.

نظر إلى الياسمين الذابل الذي لم يجد جدارا يتكىء عليه، وهي التي حملت ذاكرة
كذاكرة الياسمين فتعبت وذبلت.

التفت إليها، كانت تبسم وهي تحدّق في الصورتين اللتين التقتا في دفتر، ولم تلتقيا في
الحياة.

رنّ هاتفه

-ألو عمار

-قد اخترت بابا نهاية للفيلم .

كان صحو يحديق بالصورة مع سما التي كانت تلبس صورتهما بأصابعها، وصوت عمار
يأتيه مضرجا بالحنين.

(تقول إيزابيل الليندي : إنّ الصور ليست إلا تحايل على الزمن بإسقاطه على ورق
مقوّى حيث تبقى الروح جامدة "

الكاميرا تبقي الذين نحبهم على قيد صورة ولكنها لا تستطيع أن تبقيهم على قيد ذاكرة!
ذلك أنهم خارج الصورة يتألمون ويفرحون ويندمون، ويتخلون عن ذاكرتهم، فتبدّلهم
الحياة إلى أن تجعل من في الصورة كائنا آخر لا يشبه الذي يعيش خارجها، فالكاميرا
لا تمجّد الحنين والذاكرة حين تسرق صورة لأحدنا، وكاميرا الحياة آنية تصورنا جميعا،
وتنسى أن تضغط على زر القدر لتثبيت الصور. لهذا ذاكرتنا هشة ونحن لسنا مصورين
بارعين كي نجمّد كل لحظة كي نقيها من التلف والنسيان.

(٧٣)

كان الجميع في المطار..

إيليك، وبريفير، وصحو، وسما، وراشيل، وعمار، وفارتي
التقطت تسوغيك صورة حين طلبت من ليفون وباتيل الانضمام إليهم، وكانت تحمل

روح

قالت تسوغيك:

-أنتم جاهزون؟

صرخوا جميعهم

-هيا

لم تكن الصورة ناقصة فقد شعرت تسوغيك أنّ آني وكوهار كانتا أيضا في الصورة،
وليس بالضرورة أن يراها الجميع.

نظرت تسوغيك في عيون الجميع حين كان صوت المضيفة ينادي المسافرين، وشعرت
أنها أصبحت حماما زاجلا يحمل الرسائل.

كان الجميع يلوّحون بأيديهم، اقتربت تسوغيك من صحو وقبلته على جبينه، ونظرت إلى
عمار فابتسم لترى غمازتي عينيه اللتين ستزرعان بقلها إلى الأبد.

(٧٤)

أرمينيا ٢٠١٤

عزيري صحو

يا كرز روجي

أنت سارق الكرز الذي سرق روجي وتعلقت به.

أكتب إليك وأنا في الطائرة ذاهبة إلى تركيا إلى المناطق المهجورة حيث كان يسكن أهلي، والتي كانت تسمى أرمينيا.

(روح) يحدّق في الغيوم باحثا عن حلم، وباتيل لا تكفّ عن الصلاة مع ليفون كما قالت لها أمي إليك، وكأنهما يواريان الموت بكثرة الصلوات، وأنا أصدق ذلك، فلقد كنت أحاول أن أواريك عن الموت بالكلمات.

حين أعطيتني رسائي فرحت كثيرا، ولم أفكر بما فعلته إلا وأنا في الطائرة. كم مرت طلبت منك أن تعطيني إياها وكنت ترفض ذلك كي أظلّ أكتب إليك وتبقى على قيد الحياة، وحين أعطيتني إياها وكأنك تطلب مني أن أتوقف عن الكتابة إليك.

أفعلت هذا لأنني صرت بعيدة عنك !؟

حتى لو توقفت عن الكتابة إليك، لن يتوقف قلبي عن فعل ذلك كتعلقي بغمازتي عمار، ومشاكسة باتيل، وبعيني ليفون البريثتين.

قد تواصلنا على الورق كثيرا، وعليّ الآن أن أكتب إليك بحبرة القلب.
أريد أن أعود إلى أرمينيا القديمة حيث المدن المهجورة في تركيا كي أبدأ من جديد،
وأفهم آني، وأسير على طريق الآماها.
أريد أن أرى الصورة كاملة، فلسنا الشعب الوحيد الذي تألم في هذا الكون.
العالم بالنسبة لي أجزاء صغيرة عليّ للمتها كي تكتمل الصورة.
ماذا يعني ألمي بالنسبة لأوطان بأكلها تتألم؟؟
لا أريد أن أقيك بعد هذا اليوم من الموت بورقة، بل بحبي الأبدي لك.
حين أعدت لي رسائلي، قد أخرجتني من حبس الورقة لأطير في فضاء كل قلب.
لا أريد أن تكون حصيلة عمري رسائل مكدسة، أريد أن أحيا الحياة كما هي، ولا
أهرب منها خلف حدود ورقة.
أشعر الآن بالانعتاق، أنظر إلى العالم الآن من نافذة الطائرة الصغيرة.
كم يبدو كل شيء صغيرا صغيرا. وكأني أقبض على العالم بكفّ يدي.
أردد الآن مع باتيل وليفون ما حفظته عن آني :
هذا هو وطني
وهو بحجم يمكنني اصطحابه
عند ذهابي إلى أمكنة عديدة
إذ أنه صغير كالأم العجوز
كالمولود الجديد

وأما على الخارطة
فهو دمة واحدة فحسب
هذا هو وطني
بحجم يمكنني أن أحفظه في قلبي
كي لا أفقده فجأة.
نحن لا نكف عن الألم لأننا لا نكف عن الحب.
وسارق الكرز لم يستطع أن ينسى ابنه حين فقد ذاكرته، فكيف سأنساك وأنسى غمازتي
عمار.
لن أخاف عليك الآن من الموت لأنني سأبقى أفكر بك بعد أن تموت، وحين تفكر
بأحد ما لا يموت.
طوت تسوغيك الورقة، وأغمضت عينيها، وتنفست بعمق، وكأنّ العالم كان يتنفس
من خلالها.
وفي أذنيها كانت تسمع ترتيلة الحياة قادمة من أعماقها...

Il suffit d'une larme pour que pleure le monde,
D'une seule chanson pour le faire danser.
D'une main dans ma main, pour commencer la ronde
Et si nous sommes deux, pourquoi pas des milliers?

"يكفي دمة واحدة لتبكي العالم
وأغنية واحدة كي يرقص
يده واحدة بيدي لنبدأ بصنع دائرة
وإذا كنا اثنين، لماذا لا نكون بالآلاف؟!"

ضمت إلى صدرها كتابها (سارق الكرز)، كان صوت آني يعبر المسافات، ويعيد
تسوغيك طفلة صغيرة بين يدي آني، تروي لها من البداية :
حين نغلف حياتنا بالقصص فلن تُنسى أبدا، فلا تنسي يا تسوغيك ذلك.
ما هو الأصدق من الصدق ؟ القصة نفسها !

تمت

في الساعة الثالثة مساءً

٢٠١٧/١٠/٥

الخميس

محمد دغلس

كاتب من الأردن

من مواليد ١٩٨٩

بكالوريوس لغة فرنسية

صدر له في مجال الرواية :

-رواية بعنوان (تصبحون على انتظار)، بدعم من وزارة الثقافة الأردنية عام ٢٠١٥.

-رواية بعنوان (البيت الوحيد) عن دار الألفية عام ٢٠١٨.

-رواية بعنوان (سارق الكرز) بدعم من دار بلومانيا للنشر والتوزيع عام ٢٠١٨.

صدر له في مجال الشعر :

-ديوان شعر بعنوان (صوت تموز)، بدعم من أمانة عمان عام ٢٠٠٧.

-ديوان شعر بعنوان (أنت) عن دار البيروني عام ٢٠١٧.

للتواصل :

wahdnbesan@yahoo.com

Facebook : mohammad daghlas

حقوق النشر والتوزيع محفوظة

ببلومانيا للنشر والتوزيع



ببلومانيا
للنشر والتوزيع

